

سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه وكرم وجهه

بقلم

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم

دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١


المرتضى
سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه وكرم وجهه

المرتضى

سيرة أمير المؤمنين: سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وكرّم وجهه ـ في إطار قَبَليّ وشخصيّ وجماعيّ، ومبدئي وإداري. وفي ضوء دراسة تاريخية مقارنة محايدة، لما امتاز به من خصائص ومواهب وعبقريات، وتعاون جاد مخلص مع مَن سبقه في تولّي الخلافة، في صالح الإسلام والمسلمين، والسرّ في ما قدَّره الله وحقَّقه من توالي الخلفاء الراشدين بعضهم على إثر بعض، مع بيان جهود عظماء ذريته في قيادة المسلمين، ومحاولة تغييرٍ صالحٍ في منهج الحكم والإمارة، وإعادته إلى منهج الخلافة الراشدة، ودورهم الرائع البطولي في بلاد الإسلام وفي قرون مختلفة، في نشر الإسلام، وتزكية النفوس، وإصلاح المجتمع، وقيادة الحركات الجهادية والتحريرية في مختلف الأمكنة والأزمنة، مع نقد النظريات الدخيلة على الإسلام وتفنيد نسبتها إلى أهل البيت، واستغلالها لغايات مذهبية طائفية سياسية.

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين، ومَن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن لكثيرٍ من عظماء الرجال وقادة الأجيال، وصانِعي التاريخ، ومُثري الآداب والعلوم وفضائل الأعمال، ديوناً وحقوقاً على الشعوب والأُمم والمجتمعات التي تُجلُّهم وتتغنَّى بأمجادهم وبطولاتهم وعبقرياتهم، وقد تتفانى وتغلو في حبّهم وتفضيلهم، يتأخر أداؤها وإيفاؤها، وقد تطول هذه المدة فتبلغ إلى قرون وتمتد إلى أجيال، وقد تقصُر فتصل إلى عقود من السنين وفترات تاريخية محدودة.

وهي حكاية كثير من الأُمم والعهود، وطبقات مختلفة من حَمَلة راية الإِصلاح، والداعين إلى سبيل الرشاد والصلاح، ومنقذي الأُمم ومُحرّري البلاد، والمبدعين لصُنُوف العلم والأدب والحكمة.

بقي ذكرهم مطموراً في ركام التاريخ، واسمهم مغموراً في قائمة الأسماء اللامعة ـ لأسباب خاصة ـ وأحاطت بهم هالات من الأساطير والمبالغات والتفاصيل الجانبية التي لا تلقي ضوءاً على شخصيتهم المميزة، ولا تحدِّد مكانتهم في التاريخ.

وقد تحول بينهم وبين فهمهم الصحيح والإنصاف لهم، خلافات مذهبية، وحوادث تاريخية، ومصالح سياسية، ونُقول تقليدية، فتحجبهم عن

الأنظار، أو تجعلهم ملكاً لطائفة خاصة أو فرقة معينة، ويعتبر الخروج من هذا السُّور العالي والاعتراف بالفضل والنظر إليهم كثروة مشاعة للبشرية ـ أو لديانة خاصة على الأقل ـ وهِبَة إلٰهية ومعجزة من معجزات الرسول الأعظم، ودليلٍ على صدق الإسلام وقدرة إنجابه للعظماء وأهل الكمال، انحرافاً عن الدائرة التقليدية، وشذوذاً مذهبياً يتحاشاه المتديّن المُتحمّس.

* * *

ومن هذه الشخصيات المظلومة أو المهضومة حقها، شخصية سيدنا علي بن أبي طالب التي تراكمت عليها حجب كثيفة على مدى القرون والأجيال لأسباب مذهبية طائفية ونفسية، ولم ينصف لها حق الإنصاف، ولم تعرض للدارسين والباحثين وحتى للمحبّين المُجِلّين في صورتها الحقيقية، وإطارها الواسع الشامل، وفي استعراض أمين دقيق محايد للعصر الذي نبغت فيه، والأحداث التي عاشتها، والمجتمع ورجاله وقادته الذين عاصرتهم وتعاونت معهم، والمعضلات والمصاعب التي واجهتها، والقِيَم والمُثُل التي تمسّكت بها أشد التمسُّك، والخُطّة السياسية والإدارية التي آثرتها، ولم يبحث عن أسبابها ونتائجها، ولم تقارن بنقيضها وضدّها ونتائجه، لو فضَّله وسار عليه.

والتَبِعة الكبيرة في ذلك على الأُسلوب التاريخي والتراجمي الذي آثره مؤرخونا والمؤلفون في السِّيَر والتراجم ومناقب الرجال ومآثرهم، والمؤلفون في تاريخ الفِرَق والطوائف، والدراسات المقارنة، فاعتمدوا ـ في الغالب ـ على ما كتب قديماً وجاء في كتب الأولين من غير بحث حُرّ ومُوسَّع في المصادر القديمة التي قد لا تعتبر مراجع الموضوع المباشرة الصَّميمة، وحتى في المصادر المُعوَّل عليها قديماً وحديثاً في هذا الموضوع، فجرت سنة التناقل والاعتماد على ما قاله ونقله عن هذه المصادر المؤرخون والمؤلفون في العصر الماضي.

والتاريخ ـ كما يعرفه المجرِّب الباحث ـ كأنقاض بناية شامخة أو قصر

مشيد، تناثرت على الأرض وتراكم بعضها على بعض، حتى أصبحت كومة من الركام، فيها الغثّ والسمين، والأحجار والأتربة، وأسباب الزينة والحِلية، وفيها الرّكاز الدفين والكنز الثمين، وفيها ما يصلح أن يكون حجر الزاوية وقيمة القصر كله، فالذي يكتفي بمجهود مَن تقدَّمه من المؤلفين في العثور على ما تضمنته أنقاض هذا البناء والبيان عنه، ويعتمد على ذلك في تصوير ما كان يحتوي عليه هذا القصر حين كان قائماً على أعمدته وأُسسه، عامراً بأهله وزخارفه، حُرِمَ الشيء الكثير، وحَرَمَ قرّاءه من الاطّلاع على جمال هذا القصر، وروعته وسعته وحُسْن هندسته وتصميمه.

فلكلٍّ باحث رائد من طبيعته وتربيته ونفسيّة عصره، يواصل سيره في الرحاب التاريخية، وفي مجالات المكتبة الواسعة وأجنحتها وثروتها، في قيادة هذا الرائد ودلالة هذا الموجِّه الدافع. والناس فطروا على حبّ السهولة والتفادي من التعب المضني والسير المرهق، فيكتفون بما نقله الأولون ويعتمدون على ما عرضه واختاره الأقدمون، ولكنه كما قال الأولون: (كم ترك الأول للآخر)، فالتاريخ وموضوع السِّيَر والتراجم لا يزال ينتظر السائح المغامر والغوّاص المخاطر، والسائح القوي الهمّة البعيد النظر، ولسان الغيب ينشد - في شيء من التحرُّر مما أراده الشاعر الحكيم -:

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزوِّد
ويأتيك بالأخبار مَن لم تبِع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

* * *

ذات يوم (في الخمسينيات الأخيرة من القرن الميلادي الجاري) قال لي أخي الأكبر وصاحب الفضل في تثقيفي وتربيتي - وقد توفي والدي[1] رحمه

---

(١) هو العلاّمة السيّد عبد الحيّ الحسني مؤرِّخ الهند الكبير، وصاحب المؤلفات العظيمة في تاريخها وثقافتها ومدنيَّتها، وتراجم رجالها كـ«نُزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثمانية مجلدات كبار، و«الثقافة الإسلامية في الهند»، وهو دليل لمؤلفات أهل الهند في العلوم والآداب الإسلامية، و«الهند في العهد الإسلامي» وغير ذلك من المؤلفات في العربية والأردية، مات رحمه الله في ١٦ من جمادى الآخرة عام ١٣٤١ هـ ٣ فبراير سنة ١٩٢٣ م.

الله وأنا ابن تسع سنوات ـ الدكتور السيد عبد العلي الحسني[1] بصوت شجيّ: (عليك يا علي، بتأليف كتاب في سيرة سيدنا علي رضي الله عنه، وأنت جدير بذلك قدير عليه)، قال لي ذلك، وقد ألَّفت عدة كتب في سيرة الرجال العظماء، والدعاة إلى الله والمصلحين والمجاهدين، ومنها ما يزيد مجموع صفحاته على ألف صفحة، قال لي ذلك وقوسي موتّرة وفرسي مُسْرجة في ميدان التأليف والكتابة، ولكني تهيّبت هذا الموضوع تهيّباً ما تهيَّبته لموضوع آخر، لأن فيه مواقف وبحوثاً هي أحدُّ من الشفرة وأدقُّ من الشعرة، لا يمرُّ بها المؤلف سليماً إلا إذا اتسع صدره وقوي صبره واتَّزَنَ فكره، وبالأصحّ إذا حالفه التوفيق الإلٰهي، فآثرت السلامة على التعرّض للملامة، والوقوف على الساحل على اقتحام البحر الخضمّ، ومضى رحمه الله إلى رحمة الله، ولم يكتب لي أن أُحقّق رغبته وأُدخل السرور على نفسه.

ولكني بدأت بعد ذلك أشعر بشدة بفراغ مثير للاستغراب والدهشة في المكتبة الإسلامية العالميّة في ما يختص بموضوع سيرة سيدنا علي بن أبي طالب، سيرة موسعة مؤسّسة على دراسة تاريخية جديدة واسعة، يتخطّى فيها المؤلف الحدود المرسومة التي قيَّد فيها المؤلفون كتاباتهم، ولا يكون عيالاً على ما كُتِب وأُلِّف، ولا على مصادر التاريخ المعدودة العرفية المُعيّنة التي يستقي منها المؤلفون معلوماتهم في الغالب، وتسمو همّته إلى دراسة واسعة متنوعة، وتعريف الشخصية العملاقة التي كثر فيها التنازع وعظم فيها الإفراط والتفريط، ونظر إليها كل فريق من زاوية خاصة، وكثيراً ما أخضعوا التعريف به

(١) كان من نوادر الرجال في عصره في الجمع بين الثقافتين القديمة والحديثة، والتعمُّق فيهما، والرسوخ في الدين، مع سعة الأُفق وتفتّح الفكر، كان فيه عِرق حسنيٌّ علويٌّ نابض، مع التمسك ـ كل التمسك ـ بعقيدة أهل السنّة والجماعة والمحافظة على مسلك السلف. دام مديراً لندوة العلماء ثلاثين سنة تقدمت فيها تقدماً ملحوظاً، توفي في ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٣٨٠ هـ (٧ من مايو سنة ١٩٦١ م).

وهو والد فقيد الدعوة الإسلامية والكاتب الإسلامي القوي السيد محمد الحسني (م ١٧/ رجب ١٣٩٩ هـ = ١٣ من يونيو ١٩٧٩ م) منشىء مجلة (البعث الإسلامي) الصادرة من ندوة العلماء وصاحب كتابيْ: (الإسلام الممتَحَن) و(المنهج الإسلامي السليم).

لنظرياتهم وأهوائهم، حتى صار أفراداً معدودين وأشخاصاً خياليين باسم واحد، واحتجب الشيء الكثير من أسرار عظمته ومظاهر عبقريته عن العيون[1].

* * *

بدأ المؤلف رحلته الشاقة العسيرة ـ على تقدُّم سِنّه، وضعف صحته، وكثرة شواغله ورحلاته ـ متوكلاً على الله محتسباً، وملكته هذه الفكرة واستولت على أعصابه ومشاعره حتى ما تركت له مجالاً للكتابة والتفكير في موضوع آخر، فبدأ يدرس المصادر التاريخية من جديد ويقتبس منها مقتطفات ونقولاً، حتى إذا انتهى منها بدأ يملي هذا الكتاب من ١١/ رجب سنة ١٤٠٨ هـ (١/ مارس ١٩٨٨ م) وذلك في مدينة «إندور» في الولاية المتوسطة في الهند، وقد قام مساعده وزميله فضيلة الشيخ محمد معين الندوي نائب مدير ندوة العلماء، بجميع التيسيرات وتهيئة الجوّ الهادىء المناسب للتأليف وذلك في بيت الوجيه شاه نواز مَلِك، والأخ العزيز الشيخ أبي البركات الندوي.

ثم رجع إلى مقرّه في لكهنؤ وراي بريلي وظلَّ مشتغلاً بالإملاء والكتابة ثلاثة أشهر (بما فيها شهر رمضان) يتخلّلها جولات وفترات، حتى وفِّق لإكماله بتوفيق الله تعالى في منزل مضيفه الكريم القديم الحاج غلام محمد في بمبائي، حيث يتهيّأ له دائماً الجو الهادىء المساعد للتأليف، وذلك في أوائل شهر شوال عام ١٤٠٨ هـ، وكانت نهاية الكتاب في ١٤ من شوال سنة ١٤٠٨ هـ (٣١ مايو ١٩٨٨ م).

* * *

وبعد ما انتهى المؤلف بتوفيق الله تعالى من سيرة سيدنا علي ـ كرّم الله

---

(١) إن مما يقتضيه الإنصاف والاعتراف بالحق، أن خير ما كتب عن سيدنا علي رضي الله عنه هو كتاب «عبقرية الإمام» للاستاذ الكبير عباس محمود العقاد، الذي نشر في مجموع رسائله ومقالاته (العبقريّات الإسلامية) ونشر مفرداً باسم (عبقرية الإمام). ولكنه تحليل نفسي وبحث تاريخي مقارن، أكثر من سيرة مفصلة للإمام الكبير، وقد أفاد منه المؤلف كثيراً، وأحال إليه حين نقل عنه واستفاد.

وجهه ـ وإلقاء الأضواء على عصره، وصلاته بالذين سبقوه بالخلافة، ومَدَى إخلاصه لهم وتعاونه معهم، ثم على دوره في الخلافة، والمعضلات والأزمات الدقيقة التي واجهها، وخُطّته في الخلافة والإدارة، والمبادىء التي تمسَّكَ بها أشد التمسُّك، والقِيَم والمُثُل التي استهدفها دائماً، وسيرته العطِرة الزاهدة النادرة، وما أكرمه الله به من مزايا وخصائص.. لما انتهى من هذه المرحلة ـ وهو المحور الذي يدور حوله الكتاب ـ واصل رحلته إلى الحديث عن ابنيه العظيمين الكريمين سبطي الرسول ﷺ وريحانتيه، ودورهما في قيادة المسلمين، ومواجَهَة الأمر الواقع وإيفاء الظروف والمتطلّبات حقها من الجِدّ والإخلاص، والعزم والحماس.

* * *

ثم انتقل إلى أخلافهم وذريتهم فتحدّث عن سيرتهم العَطِرة المثالية التي تليق بالذرية النبوية وآل الرسول، والتي لا تزال حافزة على الأخلاق الإسلامية المثالية، ونمط الحياة المثلى.

ثم ذكر ما كان لهم من جهود لإقامة الحكم الصالح، وتغيير الأوضاع، وقيادة حركات الجهاد، وتحرير البلاد في أزمنة مختلفة، وما لها من قيمة وفضل في تاريخ الإسلام المبدئي والخلقي والإصلاحي ـ وإن لم تستطع لأسباب طبيعية وسياسية أن تُحقِّق الهدف المطلوب ـ ثم انصراف نوابغ هذا البيت وقادته إلى تربية الرجال، وتزكية النفوس والدعوة إلى الله، وربط القلوب به ربطاً قوياً محكماً، والتسامي على الأغراض المادية، وما لهم من فضل في تاريخ الدعوة الإسلامية، وانتشار الإسلام في أقطار بعيدة، فظهر بذلك أن خليَّة الإسلام لم تزل تُعسّل، وغصن العِتْرة النبوية لم يزل يورق ويثمر، وذلك مما قلَّ أن تعرّض له المؤلفون في سيرة سيدنا علي ـ كرّم الله وجهه ـ على ندرتهم وقلة عددهم.

* * *

وتعرَّض في آخر الكتاب ـ مُضطرّاً ومحتسِباً ـ لنقد بعض العقائد

والنظريات التي استخدم فيها أصحابها انتصارهم لأهل البيت وذريّة سيدنا عليّ، وهي دخيلة على الاسم منبثقة من الفلسفات العجمية والشعبية والإقليمية، ومن رواسب الحضارات والنُظُم الدينية القديمة، والإسلام بريء منها.

وبذلك جاء الكتاب استعراضاً تاريخياً طويل المدى واسع الأرجاء، ومساهمة متواضعة في عرض سيرة رجل كبير من كبار الجيل الإنساني، وخرِّيجي مدرسة النبوّة المُنجِبة.

* * *

ولا بأس بالإشارة إلى أني التزمت في تأليف هذا الكتاب مبدأين كل الالتزام؛ أولاً أن أعتمد على الكتب القديمة الموثوق بها المتلقّاة بالقبول فقط، ثانياً التزمت الإحالة في النقل إلى اسم الكتاب بقيد الجزء ورقم الصفحة واسم المطبعة، وخلافاً لكثير من المؤلفين المعاصرين الذين لا يرون حاجة إلى الإحالة إلى الكتاب المنقول عنه، فضلاً عن رقم الصفحة والإشارة إلى الطبعة أو المطبعة.

* * *

ولا يفتني أخيراً أن أشكر فضيلة الشيخ محمد عتيق البستوي أُستاذ دار العلوم ـ ندوة العلماء على مساعدته في البحث في المراجع القديمة والاهتداء إلى بعض مظان الشهادات والنقول، وأن أشكر الأخ العزيز الأُستاذ نثار الحق الندوي على الكتابة والانتساخ، والأخ العزيز الشيخ محمد هارون الندوي على الطبع على الآلة الكاتبة، فلهم جميعاً شكر المؤلف واعترافه.

وأخيراً ـ لا آخراً ـ أحمد الله تبارك وتعالى على توفيقه للقيام بهذا العمل وإتمامه، وأسأله أن ينفع به مؤلّفه وقرّاءه، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

٢١ من شوال ١٤٠٨ هـ (٧/ ٦/ ١٩٨٨ م)

بمبائي، (الهند)



الفصل الأوّل

عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه في مكّة

من الأسرة والولادة إلى الهجرة

الأُسرة وأثرها في الأعقاب ونظرة الإسلام إلى ذلك - قبيلة قريش - بنو هاشم - عبد المطلب جدّ الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب - أبو طالب والد سيِّدنا علي - إخوة سيِّدنا علي - الولادة - كفالة رسول الله ﷺ له - إسلام علي رضي الله عنه - بين علي وأبي طالب - عون للوافدين إلى مكة في البحث عن الإسلام - كرامة ليس فوقها كرامة - الهجرة.



الفَصل الأوَّل

عَليُّ بْنُ أَبي طَالِبٍ في مَكّة

من الأسرة والولادة إلى الهجرة

الأُسرة، وأثرها في الأعقاب، ونظرة الإسلام إلى ذلك:

لقد دلَّ علم التشريح وهو دراسة التركيب الجسدي ANATOMY، وعلم النفس، وعلم الأخلاق، وعلم الاجتماع، على تأثير الدم والسُّلالات في أخلاق الأجيال وصلاحياتها ومواهبها وطاقاتها، إلى حدٍّ مُعيَّن، وفي أكثر الأحوال، وذلك عن ثلاث طرق:

الأول: القِيَم والمُثُل التي ما زال آباء هذه الأُسرة وأجدادها يؤمنون بها أشدَّ الإيمان، ويحافظون عليها ـ أو يحاولون أن يحافظوا عليها ـ أشدَّ المحافظة، ويتنبَّلون بها ويتمجَّدون، ويعتبرون مَن ثار عليها من أبناء الأُسرة أو خالفها وحادَ عنها، شارداً غريباً، ويرون في ذلك غضاضة، وسقوط همّة، وقلّة مروءة، وعقوقاً للآباء وإساءة إليهم، لا تُغتَفَر في «شريعة» هذه الأُسرة العُرفية المتوارثة.

الثاني: حكايات الآباء وعظماء الأُسرة، في البطولة والفتوّة والفروسية، والشهامة والألفة والإباء، والجود والسخاء، وحماية المظلومين والضعفاء، تتناقلها الأجيال بعد الأجيال وتتباهى بها، وذلك من سنٍّ مبكّرة ومن أيام الصِّبا، إلى سنّ الشباب والكهولة، فتؤثر في تكوين عقليتها ومشاعرها، وتعيين المقاييس للعظمة والرجولة، والبرّ بالآباء، وتبرير شهرة الأُسرة والسلالة.

الثالث: تأثير الدم الموروث في أعضاء الأُسرة كابراً عن كابر، في أُسرة حافظت على أنسابها وأصالتها، وذلك ما أيّده علم السلالات.

وقد نطق بذلك شعراء العرب، فقال الشاعر الحماسي ربيعة بن مقروم الضَّبيّ، وهو شاعر مُضري مُخَضرَم:

هِجان الحيّ كالذهب المُصَفّى   صبيحة ديمة يجنيه جان[1]

وقال الحُطَيئة:

مَطاعينُ في الهيجا، مكاشيف للدُّجى   بَنَى لهم آباؤهم وبنى الجَدُّ

وذلك كله إلى حدٍّ معيَّن وفي أكثر الأحوال، وليس شيء من ذلك كلية مطلقة، وقاعدة مطّردة، لا تقبل استثناءاً ولا شذوذاً كالسنن الإلّهية التي قال الله عنها: ﴿ فلن تجدَ لسنّة الله تبديلاً، ولن تجدَ لسنّة الله تحويلاً ﴾[2].

وذلك ما نطق به لسان النبوّة في حكمة النبوّة وبلاغتها، وفي دقة وحكم سليم موزون امتاز به الكلام النبوي وشهادات الأنبياء الصادقين وتعبيرهم عن الحقائق، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، قال:

«الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[3]، وقال: «مَن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»[4].

وذلك ليس في شيء من تقديس الدم الموروث الدائم، وتركُّز الرئاسة الدينية والزعامة الروحية والعلمية في أُسرة معيّنة، واحتكارها لقيادة أُمة، دينيّاً وروحياً وعلمياً بشكل دائم، وهو الذي عانى به العالم القديم ـ قبل الإسلام ـ فساداً اجتماعياً وخلقياً جارفاً، واستبداداً فظيعاً، واستغلالاً مادّياً شنيعاً، تزخر به كتب التاريخ وشهادات المؤرخين للامبراطوريتين الرومية والساسانية،

---

(١) الهجان: الكريم، والرجل الحسيب، وقوله: كالذهب المصفى يعني لا عيب فيه.
(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند أبي هريرة، ج ٢ ص ٥٣٩.
(٤) الجامع الصحيح لمسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة.

والمجتمعين الإغريقي والهندي، كما يأتي في ذلك بحث مفصّل في الصفحات التالية.

لذلك يحسن بنا أن نستعرض - في أمانة تاريخية، وحياد علمي - وضع الأُسرة والسلالة - اللتين ولد ونشأ فيهما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه - العُرفي والاجتماعي، وما كانتا تمتازان به من خصائص وأعراف، وتقاليد وتراث خلقي ونفسي، وكيف كان العرب ينظرون إليهما، ويقرّون لهما بالفضل.

ونبدأ في ذلك بقريش، ثم ببني هاشم[1].

قبيلة قريش

أقرَّ العرب كلهم بعلوّ نسب قريش، والسيادة، وفصاحة اللغة، ونصاعة البيان، وكرم الأخلاق والشجاعة والفتوّة، وذهب ذلك مثلاً لا يقبل نقاشاً ولا جدلاً[2].

وكانوا حلفاء متآلفين متمسكين بكثير من شريعة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ولم يكونوا كالأعراب الذين لا يوقِّرهم دين، ولا يزيِّنهم أدب، وكانوا يحبون أولادهم، ويحجّون البيت، ويقيمون المناسك، ويكفِّنون موتاهم، ويغتسلون من الجنابة، ويتبرؤون من الهربذة[3]، ويتباعدون في المناكح من البنت وبنت البنت، والأُخت وبنت الأُخت، غَيْرة وبُعداً من المجوسية، ونزل القرآن بتأكيد صنيعهم وحُسْن اختيارهم، وكانوا يتزوجون بالصّداق والشهود ويطلِّقون ثلاثاً.

---

(١) قد بحثنا فيما كان يمتاز به العرب من خصائص ومزايا في كتابنا «السيرة النبوية» تحت عنوان «لماذا بُعِث النبيّ في جزيرة العرب؟» في باب العصر الجاهلي، ص ٤٢ - ٥٥ الطبعة السابعة طبع دار الشروق - جدّة.

(٢) السيرة النبوية للمؤلف ص ٧٤، واقرأ للتفصيل سيرة ابن هشام ق ١، الطبعة الثانية - مصطفى البابي بمصر عام ١٩٥٥ م، وكتب السيرة والأنساب.

(٣) الهرابذة قَوَمَة بيت النار، فارسي معرب، وقيل عظماء الهند أو علماؤهم.

وما زاد شرفهم أنهم كانوا يتزوجون من أيّ قبيلة شاؤوا، ولا شرط عليهم في ذلك، ولا يزوِّجون أحداً حتى يشترطوا عليه أن يكون متحمِّساً على دينهم، يرون أن ذلك لا يحلّ لهم ولا يجوز لشرفهم، حتى يُدان إليهم وينقاد. والتحمُّس التشدّد في الدين[1].

بنو هاشم

أما بنو هاشم فكانوا واسطة العقد في قريش، وإذا قرأنا ما حفظه التاريخ وكتب السيرة من أخبارهم وأقوالهم ـ وهو قليل من كثير جداً ـ استدللنا به على ما كان يمتاز به هؤلاء من مشاعر الإنسانية الكريمة، والاعتدال في كل شيء، ورجاحة العقل، وقوة الإيمان بما للبيت من مكانة عند الله، والبُعد عن الظلم ومكابرة الحق، وعلوّ الهمّة، والعطف على الضعيف والمظلوم، والسخاء، والشجاعة، وما تشتمل عليه كلمة «الفروسية» عند العرب من معانٍ كريمة وخلال حميدة، السيرة التي تليق بأجداد الرسول الكريم ﷺ، وتتفق مع ما كان يفضِّله ويدعو إليه من مكارم الأخلاق، غير أنهم عاشوا في زمن الفترة، وسايروا أبناء قومهم في عقائد الجاهلية وعباداتها[2].

عبد المُطّلب بن هاشم جدّ الرَّسول ﷺ وعليٍّ بن أبي طالب

وُلِّي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة[3] بعد عمّه المطَّلب، فأقامهما للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشَرُف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبّه قومه وعظم خطره فيهم[4].

ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش، ولم يكن سيد مكة

(١) «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» للعلاّمة السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، ج ١ ص ٢٤٣ ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة.

(٢) «السيرة النبوية» للمؤلف، ص ٧٥، الطبعة السابعة، طبع دار الشروق، جدّة.

(٣) إطعام الحجاج في أيام الموسم حتى يتفرقوا.

(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٤٢.

الوحيد المطاع، كما كان قُصيّ، إذ كان في مكة رجال كانوا أكثر منه مالاً وسلطاناً، إنما كان وجيه قومه، لأنه كان يتولى السقاية والرفادة، وبئر زمزم. فهي وجاهة ذات صلة بالبيت، وقد تكون صلته هذه هي التي جعلته يذهب إلى أبرهة لمحادثته في شؤون مكة والبيت[1].

ويتجلّى إيمان عبد المطلب بأن لهذا البيت مكانةً عند الله وأنه حاميه ومانعه، وتتجلّى نفسيّة سيد قريش السامية، وشخصيته القوية الشامخة، في حديثٍ دار بينه وبين أبرهة ملك الحبشة، وقد غزا مكة وأراد أن يهين البيت ويقضي على مكانته، وقد أصاب لعبد المطّلب مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وقد أعظمه أبرهة ونزل له عن سريره فأجلسه معه، وسأله عن حاجته، فقال: حاجتي أن يردَّ عليّ الملِك مائتي بعير أصابها لي.

فلما قال له ذلك زهد فيه الملك وتفادته عينه، وقال: أتُكلّمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟!

قال عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك[2].

وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثُّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأُمور[3].

ومات عبد المُطّلب بعد أن جاوز الثمانين، وعمر الرسول ثماني سنين،

---

(١) «المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي، ج ٤ ص ٧٨، (دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨ م).

(٢) «السيرة النبوية» للمؤلف ص ٧٩ ـ ٨٠ نقلاً من سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٤٩ ـ ٥٠، وقد كان ما قاله عبد المطلب فحمى رب البيت بيته، وجعل كيد أبرهة وجيشه في تضليل، ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجّيل، فجعلهم كعصف مأكول ﴾ (القرآن، سورة الفيل).

(٣) «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» ج ١ ص ٣٢٤.

ومعنى ذلك أنه توفي في حوالي السنة (٥٧٨ للميلاد)[١]، وذكر أنه لم تقم بمكة سوق أياماً كثيرة لوفاة عبد المطلب[٢].

أبو طالب والد سيدنا علي بن أبي طالب

ولد أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف قبل النبي ﷺ بخمس وثلاثين سنة، واسمه عبد مناف على المشهور، واشتهر بكنيته، وقيل اسمه عمران، وقيل شيبة، وكان من حكّام قريش وساداتها ومرجعها في المُلمّات[٣].

ولما مات عبد المطلب، وصّى بالنبي ﷺ إليه، فكفله وأحسن تربيته، وسافر به إلى الشام، وهو شاب[٤]، وعبد الله أبو رسول الله ﷺ وأبو طالب أخوان لأب وأم، أُمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم[٥].

وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحبّ ابن أخيه حبّاً شديداً لا يحبه لولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه، وصَبّ أبو طالب صبابته لم يصب مثلها شيء قطُّ، وكان يخصّه بالطعام[٦].

قال ابن إسحق: كان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جدّه، فكان إليه ومعه[٧].

وخرج أبو طالب في ركب تاجراً إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صبَّ به رسول الله ﷺ ـ فيما يزعمون ـ فرقَّ له أبو طالب وقال: والله

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٤ ص ٧٨.
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري جـ ١ ص ٨٧، (دار المعارف ـ مصر ١٩٥٩ م).
(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب جـ ١ ص ٣٢٤، والطبقات الكبرى لابن سعد.
(٤) والقصة بطولها في كتب السيرة، اقرأ السيرة النبوية للمؤلف ص ١٠٣.
(٥) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٧٩.
(٦) حياة أبي طالب، للشيخ خالد الأنصاري (مطبعة علوي ١٩٥١ م).
(٧) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٧٩.

لأخرجنَّ به معي لا يفارقني ولا أُفارقه أبداً، فخرج به معه[1].

وكان رسول الله ﷺ يقول عن فاطمة بنت أسد -زوج أبي طالب-: «كانت أُمي بعد أُمّي التي ولدتني، وإن أبا طالب كان يصنع الصنع ويكون له المأدبة، وكان يجمعنا على طعامه، فكانت هذه المرأة تفضل منه شيئاً فأعود فيه»[2].

وفاطمة بنت أسد بن هاشم، قال أبو عمر: هي أول هاشمية ولدت هاشمياً[3]، وقد أسلمت وهاجرت إلى المدينة، ولما توفيت كساها رسول الله ﷺ قميصه، واضطجع في قبرها، تكريماً لها وإقراراً بفضلها[4].

* * *

وأظهر رسول الله ﷺ الدعوة للإسلام، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى، وذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، ومضى أبو طالب يحدب عليه ويذود عنه.

فلما طال ذلك مشت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: (يا أبا طالب، إن لك سِنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل، وإنّا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا على شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، فإما أن تكفّه عنّا وإما أن ننازله وإياك في ذلك حتى يهلكَ أحد الفريقين). فحكى أبو طالب لرسول الله ﷺ ما جرى بينه وبين قريش من الكلام، وطلب منه أن يُبقِي عليه وعلى نفسه، فكان جواب رسول الله ﷺ: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٨٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٠٨/٣.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البرّ جـ٣ ص ٢٦، على هامش «الإصابة» لابن حجر، دار صادر، بيروت.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي، جـ٢ ص ٨٧، (طبع مؤسسة الرسالة، بيروت).

يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركت»، فقال أبو طالب: (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً)[1].

ولما جعل الإسلام يفشو في القبائل اجتمعت قريش فائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يَنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا صحيفة وعلقوها في جَوْف الكعبة وتواثقوا على ذلك، وانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شِعْبه[2]. وذلك في محرم سنة سبع من النبوة، ومكث بنو هاشم على ذلك نحو ثلاث سنوات لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً، ثم كان ما كان من أكل الأرضة للصحيفة، وإخبار النبي ﷺ أبا طالب بذلك، وتمزيق الصحيفة وبطلان ما فيها[3].

مات أبو طالب في النصف من شوال في السنة العاشرة من النبوة، وهو ابن بضع وثمانين سنة[4]، وهو العام الذي ماتت فيه خديجة زوج النبي ﷺ، ولم يسلم أبو طالب[5]، وتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب، وسُمِّي هذا العام بعام الحزن[6].

إخوةُ سيّدنا عليّ بن أبي طالب

كان لأبي طالب أربعة أبناء، وهم: طالب، وهو الذي تكنّى به، وعقيل، وجعفر، وعلي، وبنتان هما أُم هانىء وجُمانة، وكلهم من فاطمة بنت

---

(١) مختصراً من سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١، وهو الشِّعب المعروف إلى الآن بشِعب أبي طالب.

(٣) ليرجع للتفصيل إلى سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٧، أو «السيرة النبوية» للمؤلف ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٤) بلوغ الأرب، جـ ١ ص ٣٢٤.

(٥) وهو المشهور الثابت من كتب الحديث والسيرة، المعروف عند المسلمين قديماً وحديثاً، وقد تأسّف على ذلك رسول الله ﷺ وحزن له، وذلك يدلُّ على أن هذا الدين دين مبدئي عقائدي، لا يحابي فرداً ولا سلالة على أساس نسب وسلالة، أو رحم وقرابة، ولا على حب ودفاع، إذا لم تقترن به عقيدة صحيحة وإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

(٦) سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

أسد، وكان بين كل واحد منهم وبين أخيه عشر سنوات، فطالب كان أكبر من عقيل بعشر سنوات، وكذلك الشأن مع جعفر وعلي، فكان جعفر أكبر من علي بعشر سنوات[1].

هلك طالب مشركاً بعد غزوة بدر، وقيل إنه ذهب فلم يرجع، ولم يُدْرَ له موضع ولا خبر، وهو أحد الذين تاهوا في الأرض، وكان محبّاً لرسول الله ﷺ، وله فيه مدائح، وكان خرج إلى بدر كرهاً، وجرت بينه وبين قريش حين خرجوا إلى بدر محاورة، فقالوا: (والله يا بني هاشم، لقد عرفنا ـ وإن خرجتم معنا ـ أن هواكم مع محمد)، فرجع طالب إلى مكة مع مَن رجع، وقال شعراً وقصيدة ثناءاً على النبي ﷺ، وبكى فيها أصحاب قليب بدر[2].

* * *

أما عقيل بن أبي طالب، فكان يُكنى أبا يزيد، تأخر إسلامه إلى عام الفتح، وقيل أسلم بعد الحديبية، وهاجر في أول سنة ثمان، وكان أسر يوم بدر ففداه عمّه العباس. وقع ذكره في الصحيح في مواضع، وشهد غزوة مؤتة، ولم يسمع له بذكر في الفتح وحُنَين، كأنه كان مريضاً، أشار إلى ذلك ابن سعد، لكن روى الزبير بن بكار بسنده إلى الحسن بن علي، أن عقيلاً كان ممّن ثبت يوم حُنَين.

وكان أبو طالب يحب عقيلاً أكثر من حبه سائر بنيه، لذلك قال أبو طالب للنبي ﷺ وللعباس حين أتياه ليقتسما بنيه عام المَحْل فيخفّفا عنه ثقله: (إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما)، فأخذ رسول الله ﷺ عليّاً فضمّه إليه، وأخذ العبّاس جعفراً فضمّه إليه[3].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، جـ ٧ ص ٢٢٣، مكتبة المعارف ـ بيروت، ومكتبة النصر ـ الرياض، (الطبعة الأولى ١٩٦٦).

(٢) «الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة» تأليف محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني، الشهير بالبري، المتوفى سنة ٦٨٠ هـ، طبع دار الرفاعي بالرياض.

(٣) المرجع السابق، جـ ٢ ص ١٩٢ ـ ١٩٣، (الطبعة الأولى ١٩٨٣ م).

وكان عالماً بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة، وكان سريع الجواب المسكت، روى هشام بن الكلبي بسنده إلى ابن عباس، قال: كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات: عقيل، ومخرمة، وحويطب، وأبو جهم.

وفد عقيل إلى معاوية في دَيْن لَحِقَه، قال ابن سعد: قالوا مات في خلافة معاوية، وفي تاريخ البخاري الأصغر بسند صحيح أنه مات في أول خلافة يزيد قبل الحَرّة[1]، وعمره ست وتسعون سنة[2].

وكانت له دار واسعة كثيرة الأهل، ومات بعد ما عمي، وكان له من الولد اثنا عشر ذكراً، وخرج منهم تسعة مع الحسين رضي الله عنه فقتلوا معه، منهم مسلم بن عقيل وكان أشجعهم، وهو الذي قدَّمه الحسين رضي الله عنه إلى الكوفة، فقتله الدَّعيُّ ابن زياد صبراً[3].

* * *

أما جعفر بن أبي طالب فهو أحد السابقين إلى الإسلام[4]، قالوا: وآخى النبي ﷺ بينه وبين معاذ بن جبل. كان أبو هريرة يقول: إنه أفضل الناس بعد النبي ﷺ، وفي البخاري عنه قال: (كان جعفر خير الناس للمساكين)، وقال خالد الحذّاء عن عكرمة سمعت أبا هريرة يقول: (ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا، ولا وطىء التراب بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب)، رواه الترمذي والنسائي وإسناده صحيح. وروى البغوي من طريق المَقْبُري عن أبي هريرة قال: (كان جعفر يحب المساكين، ويجلس

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» تأليف شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، جـ ٢ ص ٤٩٤، (طبع دار صادر ـ بيروت).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، جـ ١١ ص ٢٥٠، (دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ م).

(٣) «الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة» جـ ٢ ص ٤٠ ـ ٤١.

(٤) قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: أسلم جعفر بن أبي طالب قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها، (الطبقات الكبرى لابن سعد، جـ ٤ ص ٣٤، دار صادر، بيروت).

إليهم، ويخدمهم ويخدمونه، يحدّثهم ويحدِّثونه، فكان رسول الله ﷺ يكنِّيه أبا المساكين)، وقال له النبي ﷺ: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» رواه البخاري ومسلم من طريق حديث البراء.

* * *

وهاجر جعفر إلى الحبشة، فأسلم النجاشي ومَن تبعه على يديه، ولما قَدِمَ جعفر وأصحابه (في غزوة خيبر) استقبله رسول الله ﷺ فقبَّل ما بين عينيه وقال: «ما أدري بأيّهما أنا أفرح، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟». وعن عبدالله ابن جعفر قال: «ما سألت علياً فامتنع، فقلت له: بحق جعفر، إلا أعطاني»!!.

* * *

استشهد جعفر بمؤتة من أرض الشام مقبلاً غير مدبر، مجاهداً للروم في حياة النبي ﷺ سنة ثمان في جمادى الأولى، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم تقدم فقاتل حتى قُتل، قال ابن عمر: كنت معهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفراً فوجدنا فيما أقبل من جسمه بضعاً وتسعين بين طعنة ورمية، قال النبي ﷺ: «رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة»، روى ذلك الطبراني من حديث ابن عباس، وفيه أيضاً: أُرِي النبي ﷺ جعفراً مَلَكاً ذا جناحين مُضرَّجين بالدماء، وذلك لأنه قاتل حتى قطعت يداه.

ولما دنا جيش مؤتة من حول المدينة تلقَّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم صبيان يشتدّون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: «خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر»، فأُوتي بعبدالله فأخذه فحمله بين يديه[1]، وعن عائشة قالت: لما أتى وفاة جعفر عرفنا في وجه رسول الله ﷺ الحزن[2]، وقال لآل جعفر: «ايتوني ببني أخي» فجيء بهم كأنهم أفراخ،

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ١ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

فقال: «ادعوا لي الحلَّاق» فدعي فحلق رؤوسهم، وقال لأُمهم: «العَيْلة تخافين عليهم؟ وأنا وليّهم في الدنيا والآخرة»[1].

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ لزوج جعفر: «ائتيني ببني جعفر»، فلما حضروا تشممهم، وذرفت عيناه، وأخبر بشهادة جعفر، ولما أتاهم النعي، قال لأهله: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً[2]، فقد أتاهم أمر يشغلهم»، وعرف في وجه رسول الله ﷺ الحزن[3].

وعبد الله بن جعفر ـ وهو أول مولود في الإسلام بأرض الحبشة ـ كان من أجواد العرب، وله من الإخوة محمد بن جعفر، وعون بن جعفر[4].

وحين قال النجاشي للمسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في دين أحد من هذه الملل؟ فانبرى جعفر للجواب فلم يزد على أن صوَّرَ الجاهلية تصويراً واقعياً، ثم ذكر ما أحدثه الإسلام من انقلاب في حياة مَن آمن به، ولم يتعرض لجانب يثير النقاش والحمية الجاهلية فيمن لا يدين بالإسلام، فضلاً عن الملك الذي يحكم البلاد ويتحمس للنصرانية ويحميها، إنما هي حكاية حال وتصوير لواقع[5]، وهو كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه، وقد دلَّ على بلاغة صاحبه العقلية قبل أن يدلَّ على بلاغته العربية البيانية، ويدل كذلك على سلامة الفطرة ورجاحة العقل اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشاً، وفاق فيهما قريش العرب كلهم، وامتاز فيهما جعفر بصفة خاصة[6].

* * *

أما أُم هانىء بنت أبي طالب، ابنة عم النبي ﷺ، فقيل اسمها فاختة،

(١) الطبقات الكبرى، جـ ٤ ص ٣٧، طبع دار صادر بيروت.
(٢) وكان ذلك سُنّة فيما بعد.
(٣) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ باختصار، والرواية في سنن الترمذي.
(٤) الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة للبري، جـ ٢ ص ٤١ ـ ٤٢.
(٥) اقرأ جواب جعفر للنجاشي في سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٨.
(٦) ليقرأ التفصيل في «السيرة النبوية» للمؤلف، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

وقيل اسمها فاطمة، وقيل هند، والأول أشهر، وكانت زوج هُبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي، قال فيها رسول الله ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد...» (الحديث)، قال أبو عمر: هرب هُبيرة لمَّا فتحت مكة إلى نجران، وقال في ذلك شعراً يعتذر فيه عن فراره، ولما بلغه أن أُم هانىء أسلمت قال فيها شعراً، وكان له منها عمرو، وبه كان يكنى.

ولما دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، كانت أُم هانىء أجارت رجلين من بني مخزوم من أحمائها، وقد هدّدهما عليٌّ بالقتل، وجاء رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً وأهلاً بأُم هانىء، ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين، فقال: «قد أجرنا مَن أجرت، وأمّنّا مَن أمّنت، فلا نقتلهما»، وقد ذكرت أن النبي ﷺ اغتسل في بيتها ثم صلّى ثماني ركعات[1]، وروت أُم هانىء عن النبي ﷺ في الكتب الستة وغيرها، قال الترمذي وغيره: عاشت بعد علي رضي الله عنه[2].

* * *

وأما جُمانة (بضم أوله وتخفيف الميم وبعد الألف نون) بنت أبي طالب، فقال أبو أحمد العسكري: هي أُم عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكذا قال الدارقطني في كتاب الإخوة، تزوجها أبو سفيان بن الحارث فولدت له عبد الله ولم يسند شيئاً، وقال الزبير بن بكار: هي أُخت أُم هانىء، وذكرها ابن إسحاق فيمن قسم له النبي ﷺ من خيبر ثلاثين وَسْقاً، وأخرج الفاكهي في كتاب مكة من طريق عبد الله بن عثمان بن جشم، قال: أدركتِ عطاءاً ومجاهداً وابن كثير وأُناساً إذا كان ليلة سبع وعشرين من رمضان خرجوا في التنعيم واعتمروا من خيمة جُمانة، وهي بنت أبي طالب، وذكرها ابن سعد في ترجمة أُمها فاطمة بنت أسد، وأفردها في باب بنات عم النبي ﷺ، وقال: ولدت لأبي سفيان بن الحارث ابنه جعفر بن أبي سفيان، وأطعمها رسول الله ﷺ من خيبر ثلاثين وَسْقاً[3].

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٣٠٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ٨ ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) نفس المرجع، جـ ٤ ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

الولادة:

ولد سيدنا علي بن أبي طالب قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح[1]، وقال ابن سعد: ولد لاثنتي عشرة ليلة خلَت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل من القرن السادس المسيحي[2].

قال الحاكم في ترجمة حكيم بن حزام: (قد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علياً في جوف الكعبة، وولد حكيم بن حزام في الكعبة)[3]، وقال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

(اختلف في مولد علي عليه السلام أين كان؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة، والمحدِّثون لا يعترفون بذلك، ويزعمون أن المولود في الكعبة حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي)[4].

كفالة رسول الله ﷺ له

روى الطبري في تاريخه بسنده عن مجاهد قال:

كان من نعمة الله عزّ وجل على علي بن أبي طالب وما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ: «يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفِّف عنه من عياله، آخذ من بيته واحداً وتأخذ واحداً، فنكفيهما عنه»، فقال العباس: نعم.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ٢ ص ٥٠٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ـ البدريين ـ ص ١١، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي جـ ٢ ص ٣٥٨، (المطبعة الأزهرية المصرية، الطبعة الأولى ١٣٠٣ هـ).

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي جـ ٢ ص ٢، و«إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهير «بالسيرة الحلبية» جـ ٣ ص ٤٩٨ (مطبعة مصطفى البابي، مصر، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م)، وهو الذي ذكره حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ وليّ الله الدهلوي ورجَّحه في كتابه «إزالة الخفا عن خلافة الخلفاء»، (طبع مجمع سُهيل لاهور، الطبعة الأولى ١٩٧٦ م).

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، جـ ١ ص ١٤.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليّاً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفراً رضي الله عنه فضمّه إليه، فلم يزل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتَّبعه علي، فأقرّ به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه[1].

إسلام عليّ رضي الله عنه

ذكر ابن إسحاق أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه جاء وهما ـ أي النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها ـ يصلّيان، فقال علي: يا محمد، ما هذا؟ قال: «دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وأن تكفر باللّات والعزَّى». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمراً حتى أُحدِّث به أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا علي، إذ لم تسلم فاكتم».

فمكث عليٌّ تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب عليٍّ الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه، فقال: ماذا عرضت عليَّ يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللّات والعزّى، وتبرأ من الأنداد»، ففعل علي وأسلم، ومكث يأتي على خوف من أبي طالب، وكتم علي إسلامه ولم يظهره[2].

والثابت المُرجّح وما عليه أكثر الرواة أنه أول مَن أسلم بعد خديجة رضي الله عنها، وأول مَن صلّى، فعن زيد بن أرقم قال: أول مَن أسلم مع رسول الله ﷺ عليّ. وعن ابن عباس قال: أول مَن أسلم من الناس بعد

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣١٣ (طبعة المعارف) والحكاية عند محمد بن إسحاق أيضاً.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٤.

خديجة علي. وعن محمد بن عبد الرحمن بن زُرارة قال: أسلم علي وهو ابن تسع سنين. وعن مجاهد قال: أول مَن صلَّى عليٌّ وهو ابن عشر سنين. وقال الحسن بن زيد: لم يعبد الأوثان قطّ لصغره[1]!!.

وهو ما تدل عليه القرائن وطبيعة الأشياء، فإنه رضي الله عنه نشأ في أحضان رسول الله ﷺ، وفي البيئة الإسلامية النبوية التي احتضنت الدعوة إلى الإسلام، وتبليغ رسالات الله إلى كافة الأنام. والخضوع لتأثيرها ـ إذا لم يكن مانع قاسر، أو طبيعة منحرفة قاسية، وحاشا عليّاً عن ذلك ـ شيء طبيعي.

وقد جمع بعض المحقِّقين والباحثين بين الروايات بأنه كان أول النساء وأهل البيت إسلاماً خديجة أُم المؤمنين، وأول الرجال الواعين الناضجين إسلاماً أبو بكر الصدِّيق، وأول الصغار والأحداث إسلاماً علي بن أبي طالب. والأول أقرب إلى القياس، والله أعلم[2].

بين عليّ وأبي طالب

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شِعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلِّيان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: «أي عم، هذا دين الله ودين مَلائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم»، أو كما قال ﷺ: «بعثني الله رسولاً إلى العباد، وأنت أيْ

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣ ص ٢١، وأسد الغابة لابن الأثير الجزري ٧/ ٢١ ـ ٢٣.

(٢) وقد جاءت قصة ضيافة بني عبد المطلب وصنع الطعام لهم، وقيام علي بن أبي طالب بذلك على إثر نزول آية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ودعوة رسول الله ﷺ بني عبد المطلب إلى الإسلام، وردّ أبي لهب على ذلك ردّاً قبيحاً، واستجابة علي ومؤازرته لرسول الله ﷺ، وما تكلم به الرسول ﷺ، في بعض كتب السيرة، وسردها ابن كثير بطولها في كتابه «البداية والنهاية» ٣/ ٣٩ ـ ٤٠، وتكلم في بعض رواتها، وفيها ما يشكك في صحتها وضبطها.

عم أحقّ مَن بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحقّ مَن أجابني إليه وأعانني عليه» أو كما قال.

فقال أبو طالب: أيْ ابن أخي، إني لا أستطيع أن أُفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخلَص إليك بشيء[1] تكرهه ما بقيتُ. وذكروا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصلّيت معه لله واتبعته، فزعموا أنه قال له: «أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه»[2].

عونٌ للوافدين إلى مكة في البحث عن الإسلام

وكان علي دائماً عوناً للوافدين إلى مكة بحثاً عن الحق أو رغبة في الإسلام، ودليلاً لهم إلى رسول الله ﷺ، صاحب فِراسة موهوبة، وفطنة وذكاء امتاز بهما بنو هاشم، فقد روى البخاري في إسلام أبي ذرٍّ الغفاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه، قال:

لما بلغ أبا ذرّ مبعثُ رسول الله ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الآخر حتى قَدِمَه وسمع من كلامه، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل شَنّة فيها ماء حتى قَدِمَ مكة، فأتى المسجد، فالتمس رسول الله ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه عليّ فعرفه أنه غريب، فلما رآه تبعه، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قِربته وزاده إلى المسجد، وظلَّ ذلك اليوم، ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرَّ به عليٌّ، فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله، فأقامه فذهب به

---

(١) لا يخلص إليك بشيء: أي لا يوصل إليك، يقال خلصت إليه: أي وصلت إليه، قاله أبو ذر الخشني شارح سيرة ابن هشام.

(٢) سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٢٤٦.

معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء.

حتى إذا كان اليوم الثالث فعاد علي مثل ذلك فأقام معه، فقال: ألا تحدِّثني بالذي أقدَمَك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنِّي فعلت، ففعل، فأخبره، فقال: إنه حق، وإنه رسول الله ﷺ. فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، وإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه[1].

كرامة ليس فوقها كرامة

يقول سيدنا علي: انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس، وصعد على منكبيّ، فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد على منكبيّ، فصعدت على منكبيه، قال: فنهض بي فإنه ليخيّل إليَّ أنه لو شئت لنلت أُفق السماء، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صُفْر أو نحاس، فجعلت أُزاوله عن يمينه وشماله، ومن بين يديه ومن خلفه، حتى استمكنت منه، قال لي رسول الله ﷺ: «اقذف به»، فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس[2].

ومن الواضح أن هذه القصة كانت قبل الهجرة، كما في المستدرك للحاكم[3].

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٥٣ م).

(٢) رواه أحمد في مسنده (راجع الجزء الثاني من ٦٤٤ - ٦٤٥ تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف بمصر)، والبخاري في التاريخ، وابن ماجه، والحاكم، والنسائي في الخصائص.

(٣) قد توهم بعض مَن ألّف في السيرة من المتأخرين، فذكر القصة في سياق فتح مكة حين طهّر رسول الله ﷺ الكعبة من الأوثان، ولكن الصحيح أن ذلك كان قبل الهجرة، يقول العلّامة علي بن برهان الدين الحلبي (٩٧٥ - ١٠٤٤) في كتابه الشهير بالسيرة الحلبية: إن كلام علي: (وانطلقت أنا والنبي ﷺ نسعى وخشينا أن يرانا أحد من قريش)، يدل على أن ذلك لم يكن يوم فتح مكة، فليتأمل (جـ ٣ ص ٣٠).

واستمرت الدعوة إلى الإسلام لقريش وللقبائل، وظلَّت حرب قريش لها على قدم وساق، حتى كانت مقاطعة بني هاشم وانعزالهم في شِعْب أبي طالب، وكانت هجرة جعفر بن أبي طالب وكثير من المسلمين إلى الحبشة، وكان توجّه رسول الله ﷺ إلى الطائف لدعوة أهل الطائف إلى الإسلام، وسوء تلقّيهم لذلك وتجهمهم، وكان الإسراء، وكان من إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، ومَن أراد الله به خيراً وشرح صدره من أهل مكة ومن الوافدين إليها، وما قدَّر الله من موت أبي طالب المدافع عن رسول الله ﷺ والذابّ عنه، وموت خديجة أُم المؤمنين، واشتداد أذى قريش لرسول الله ﷺ ولمن دخل في الإسلام، وما كان من إفراغ جعبتهم في رمي الإسلام وتفنّنهم في ذلك تفنناً لا مزيد عليه.

وكان من دخول رهط من الأوس والخزرج ـ وهما قبيلتان كبيرتان من قحطان في يثرب ـ في الإسلام، وكان من بيعة العقبة الأولى والثانية، وانتشار الإسلام في المدينة، وهجرة عدد من المسلمين إلى مدينة يثرب حتى لم يبقَ بمكة غير مَن حُبِسَ وفُتِن، وغير رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب وأبي بكر بن أبي قحافة، وتخوّف قريش من خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة، مما ليس من السهل ـ ولا داعي له ـ استيعابه في السيرة الخاصة بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمحله السيرة النبوية، وهو بحر لا ساحل له[1].

واجتمعت قريش أخيراً في «دار الندوة»، واجتمع رأيهم أخيراً على أن يؤخذ من كل قبيلة فتىً شاب صاحب جلادة ونسب، فيهاجموا رسول الله ﷺ ويضربوه ضربة رجل واحد، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً. وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

وأخبر الله رسوله بهذه المؤامرة، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على

---

(١) ليرجع إلى كتاب المؤلف «السيرة النبوية» ـ على سبيل المثال ـ ص ١٢٠ ـ ١٥٩.

فراشه متسجّياً بُبردته، وقال: «لن يخلص إليك بشيء تكرهه». ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن السهل، ولا يقدر على ذلك، ولا يعرف جفنه الكرى، ولا يهدأ له نوم، إلا مَن قوي إيمانه بالله تعالى، وحبّه للرسول وثقته بوعده وإخباره، ومَن هيّأ نفسه ليكون فداه، فقد علم عليٌّ مدى حنق قريش على رسول الله ﷺ والإسلام، وكان يعرف أنه إذا فاتهم أن يدركوا رسول الله ﷺ فإنهم سيرضون ضمائرهم، ويسلون أنفسهم بالفتك به، ولكنه أعرض عن كل ذلك وتناساه، ونام على فراش رسول الله ﷺ، وطاب له النوم.

واجتمع القوم على باب بيت الرسول ﷺ، وهم متهيّئون للوثوب، وخرج رسول الله ﷺ وأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو آيات من سورة «يٓس» من أولها إلى قوله تعالى: ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[1].

وأتاهم آتٍ فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيّبكم الله، قد والله خرج، وانطلق لحاجته!! وتطلعوا فرأوا عليّاً نائماً على الفراش، فلم يشكُّوا في أنه رسول الله ﷺ، فلما أصبحوا قام علي ـ رضي الله عنه ـ عن الفراش فخجلوا وانقلبوا خائبين[2].

أخرج ابن سعد عن علي رضي الله عنه قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة في الهجرة، أمرني أن أُقيم بعده، حتى أُؤدي ودائع كانت عنده للناس، ولذا كان يُسمَّى الأمين، فأقمت ثلاثاً، فكنت أظهر ما تغيبت يوماً واحداً، ثم خرجت فجعلت أتبع طريق رسول الله ﷺ حتى قَدِمت بني عمرو بن عوف ورسول الله ﷺ مقيم، فنزلت على كُلثوم بن الهدم، وهناك منزل رسول الله ﷺ[3].

---

(١) سورة «يٓس»، آية: ٩.

(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٤٨٠ ـ ٤٨٣.

(٣) كنز العمال جـ٨ ص ٣٣٥، (مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣١٢ هـ).

وكان علي يسير الليل ويكمن النهار حتى قَدِمَ المدينة، وقد تفطَّرت قدماه، فقال النبي ﷺ: «ادعوا لي علياً»، قيل لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي ﷺ واعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وتفل في يديه وأمرَّها على قدميه فلم يشتكهما بعد حتى قتل[1].

وكان قدوم عليّ للنصف من شهر ربيع الأول، ورسول الله ﷺ بقباء لم يَرِمْ بعد[2].

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٧٥، (دار صادر ـ بيروت ١٣٩٩ هـ).
(٢) الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٢٢.



الفصل الثاني

عليٌّ في المدينة

من الهجرة إلى وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم

المؤاخاة ـ زواج علي بفاطمة رضي الله عنهما ـ معيشة علي وفاطمة ـ في سبيل راحة رسول الله ﷺ ـ لقب حب ودلال ـ غزوة بدر ودور علي فيها ـ غزوة أُحُد ـ غزوة الخندق وعبقريته الحربية فيها ـ صلح الحديبية وأدب سيِّدنا علي وحبّه للرسول ﷺ ـ غزوة خيبر وبطولته فيها ـ بين أسد الله وبطل اليهود مرحب ـ الإيمان القوي والثقة الراسخة بما أخبر به الرسول ﷺ في أثناء المسير لفتح مكة ـ تسلية رسول الله له حين خلفه في المدينة في غزوة تبوك ـ بعثه إلى اليمن وإسلام همدان على يديه ـ نيابة عن رسول الله ﷺ وتواضع ـ حجة الوداع وخطبة غدير خُمّ ـ وفاة الرسول ﷺ .



الفصل الثاني

عليّ في المدينة

من الهجرة إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

المؤاخاة

جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد:

آخى رسول الله ﷺ بين علي بن أبي طالب وسَهْل بن حُنَيف[1].

وقال ابن كثير:

آخى النبي ﷺ بينه وبين سَهْل بن حُنيف، وذكر ابن إسحاق وغيره من أهل السِيَر والمغازي أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين نفسه، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة لا يصحّ شيء منها لضعف أسانيدها ورِكّة بعض متونها[2].

زواج علي بفاطمة رضي الله عنها

وفي السنة الثانية من الهجرة زوَّج رسول الله ﷺ بنته فاطمة عليّاً كرّم الله وجهه، وقال رسول الله ﷺ لفاطمة: «قد أنكحتك أحبّ أهل بيتي إليَّ، ودعا لها، ونضح عليها من الماء»[3].

وأخرج أبو عمر عن عبيد الله بن محمد بن سماك بن جعفر الهاشمي يقول: أنكح رسول الله ﷺ فاطمة علي بن أبي طالب بعد وقعة أُحُد، وكان

(١) الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٢٣.
(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٣) إزالة الخفاء ص ٢٥٤.

سنّها يوم تزوجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصفاً، وسِنُّ علي يومئذ إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر[1].

وقد جاء في مسند علي حديث مفصَّل في خِطبة فاطمة بنت الرسول ﷺ، فإنه قال:

أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته، فقلت: ما لي من شيء فكيف؟ ثم ذكرت صلته وعائدته، فخطبتها إليه، فقال: «هل لك من شيء؟» قلت: لا، فقال: «أين درعك الحُطَمِيَّة التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟» قال: هي عندي، قال: «فأعطها»، قال: فأعطيتها إياه[2].

وعن عطاء بن السائب عن أبيه عن علي قال: جهَّز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أَدَم حَشْوها ليف الإذخر[3].

معيشةُ عليّ وفاطمة رضي الله عنهما

وكانت معيشة علي وفاطمة ـ وهما أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله أحبّ الخلق إلى الله ـ معيشة زهد وتقشف، وصبر وجهد، فقد أخرج هنَّاد عن عطاء، قال:

نُبئت أن علياً رضي الله عنه قال: مكثنا أياماً ليس عندنا شيء، ولا عند النبي ﷺ، فخرجت فإذا أنا بدينار مطروح على الطريق، فمكثت هنيهة أُوامر نفسي في أخذه أو تركه، ثم أخذته لما بنا من الجهد، فأعطيت به

(١) تردد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ وليّ الله المحدّث الدهلوي في صحة هذه الرواية، وقد كانت وقعة أُحُد في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وقد قال علي لفاطمة في وقعة أُحُد: اغسلي عنّي الدم، وكيف يسوغ ذلك بغير تزوج (إزالة الخفاء ص ٢٥٤). والصحيح الأول، وأكبر دليل على صحّته أنه قد ثبت أن الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ كانت ولادته للنصف من شعبان ـ وقيل في رمضان ـ سنة ثلاث من الهجرة (تاريخ دمشق لابن عساكر وغيره من كتب التاريخ).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند علي بن أبي طالب.

(٣) المرجع السابق.

الضفَّاطين[1]، فاشتريت به دقيقاً، ثم أتيت به فاطمة فقلت: اعجني واخبزي، فجعلت تعجن - وإن قُصَّتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها - ثم خبزت، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «كلوه فإنه رزق رزقكموه الله عزّ وجل»[2].

وأخرج هنّاد الدينوري عن الشعبي، قال: قال علي رضي الله عنه: تزوجت فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار، وما لي خادم غيرها[3].

وأخرج الطبراني - بإسناد حسن - عن فاطمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أتاها يوماً فقال:

«أين ابناي؟» يعني - حسناً وحُسيناً رضي الله عنهما - قالت: أصبحنا وليس في بيتنا شيء يذوقه ذائق، فقال علي: أذهب بهما فإني أتخوف أن يبكيا عليك وليس عندك شيء، فذهب إلى فلان اليهودي، فتوجَّهَ إليه النبيّ ﷺ فوجدهما يلعبان في شَرَبة[4] بين أيديهما فَضْل من تمر، فقال: «يا علي، ألا تُقْلب ابنيَّ قبل أن يشتد الحر؟» قال: أصبحنا وليس في بيتنا شيء، فلو جلستَ يا رسول الله حتى أجمع لفاطمة فضل تمرات، فجلس رسول الله ﷺ حتى اجتمع لفاطمة فَضْل تمر، فجعله في خِرْقة، ثم أقبل فحمل النبي ﷺ أحدهما وعلي الآخر حتى أقلباهما[5].

وقد روى البخاري عن علي رضي الله عنه أن فاطمة عليها السلام

---

(١) الضَّفَّاطون: الجمَّالون والمكارون الذين يجلبون الدقيق من الخارج.

(٢) كنز العمال للعلاّمة علي المتقي البرهانبوري جـ ٧ ص ٣٢٨، وأخرجه أبو داود عن سهل بن سعد رضي الله عنه مطوَّلاً (جـ ١ ص ٢٤٠)، وأخرجه العدني عن محمد بن كعب القرظي مطوّلاً.

(٣) كنز العمال جـ ٧ ص ١٣٣.

(٤) شَرَبة: حوض يكون في أصل النخلة وحولها يملأ ماءً لتشربه.

(٥) الترغيب والترهيب للمنذري، جـ ٥ ص ١٧١، (مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية ١٩٥٤ م).

اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن، فبلغها أن رسول الله ﷺ أُوتي بسَبْي، فأتته تسأله خادماً، فلم توافقه، فذكرت لعائشة، فجاء النبي ﷺ فذكرت عائشة له، فأتانا، وقد دخلنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم، فقال: «على مكانكما» حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: «ألا أدلّكما على خير مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبِّرا لله أربعاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماني»[١].

وفي رواية في هذه القصة أنه ﷺ قال: «والله لا أعطيكم وأدع أهل الصُّفَّة تطوى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أُنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأُنفق عليهم أثمانهم»[٢].

في سبيل راحة رسول الله ﷺ

وكان مع ذلك لا يألو جهداً في ما يريح النبي ﷺ ويفرغه للدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله.

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

أصابت نبي الله ﷺ خَصَاصة، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فخرج يلتمس عملاً يصيب فيه شيئاً ليغيث به النبي ﷺ، فأتى بستاناً لرجل من اليهود، فاستسقى له سبعة عشر دلواً، على كل دلو تمرة، فخيَّره اليهودي على تمره، فأخذ سبع عشرة عجوة، فجاء بها إلى النبي ﷺ، فقال: «من أين لك هذا يا أبا الحسن؟» قال: بلغني ما بك من خَصَاصة يا نبي الله، فخرجت ألتمس لك عملاً لأصيب لك طعاماً، قال: «حملك على هذا حُبّ الله ورسوله»؟ قال: نعم، يا نبي الله! قال النبي ﷺ: «ما من عبد يحبّ الله ورسوله إلا الفقر أسرع إليه من جَرْية السيل على وجهه، ومَن أحبّ الله ورسوله فليعدَّ للبلاء تجفافاً»[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (فتح الباري جـ٧ ص ٢٣ - ٢٤). وعن علي رضي الله عنه نحو ذلك (راجع مسند علي في مسند الإمام أحمد بن حنبل).

(٣) كنز العمال جـ٣ ص ٣٢١.

لقب حُبّ ودلال

ولقَّبه رسول الله ﷺ في حبٍّ ودلال بأبي تراب.

قال ابن عباس: دخل عليٌّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد، فقال النبي ﷺ: «أين ابن عمكِ»؟ قالت: في المسجد، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول: «اجلس يا أبا تراب» مرتين[١].

غزوة بدر الكبرى، ودور علي بن أبي طالب فيها

وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى، وهي المعركة الحاسمة التي قرَّرت مصير الأُمة الإسلامية والدعوة الإسلامية، وغيَّرت مسيرة التاريخ[٢].

ولما خرج رسول الله ﷺ في هذه الغزوة إلى الناس وحرّضهم على القتال خرج عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار، فقالوا: مَن أنتم؟ قالوا: رَهْط من الأنصار، قالوا: أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمِّنا.

وكان رسول الله ﷺ من أعرف الناس بمكانتهم وغَنائهم في الحرب، فقد كانوا من أبطال الحرب المرموقين، وكان في قريش مَن ينهض لذلك من الأبطال والفرسان، ولكن رسول الله ﷺ لم يزد أن قال: «قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة»[٣] ـ وهم من أقرب الناس رَحِماً ودماً، وأحبّهم إليه، ولكنه لم يؤثر أحداً عليهم ضنّاً بحياتهم، وإبقاءاً عليهم ـ قالوا: نعم، أكفاء كرام.

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عليّ بن أبي طالب القرشي الهاشمي.
(٢) اقرأ خبر هذه الغزوة وتفاصيلها في كتب السيرة، وفي كتاب «السيرة النبوية» للمؤلّف ص ٢١٥ - ٢٢٨.
(٣) هو عبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف.

وبارز عبيدةُ ـ وكان أسنَّ القوم ـ عتبةَ، وبارز حمزةُ شيبةَ، وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا خصميهما أن قتلاهما، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة، فأجهزا عليه، واحتملا عبيدة وهو جريح، ومات شهيداً[١].

وقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد عن قتادة أن علي بن أبي طالب كان صاحب لواء رسول الله ﷺ يوم بدر[٢]، قال الحافظ ابن عساكر: تنفَّل رسول الله ﷺ سيفه «ذا الفَقَار» يوم بدر، ثم وهبه لعلي بعد ذلك[٣].

غزوة أُحُد

وكانت في شوال سنة ثلاث من الهجرة غزوة أُحُد[٤]، وقد أنزل الله تعالى نصره على المسلمين وصَدَقهم وعده، حتى كشف المشركين عن العسكر، وولَّت النساء مشمِّرات هوارب، وقد كان رسول الله ﷺ أمَّر على الرماة عبد الله بن جبير وهم خمسون رجلاً، وقال: ادفع الخيل عنّا بالنبل، لا يأتون من خَلْفنا، إن كانت لنا أو علينا، وأمرهم بأن يلزموا مركزهم، وألّا يفارقوا ولو رأووا الطير تتخطَّف العسكر.

ولكن لما انهزم المشركون وولَّوا مدبرين، مال الرماة إلى المعسكر، وهم موقنون بالفتح، وقالوا: يا قوم الغنيمة، الغنيمة، فذكَّرهم أميرهم عبد الله بن جبير عهد رسول الله ﷺ، فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فأخلَوا الثغر وأخلَوا ظهور المسلمين إلى الخيل، وأتاهم المشركون من خلفهم، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فتراجع المسلمون وكرَّ المشركون كرّة، وانتهزوا الفرصة، ودارت الدائرة على المسلمين.

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٦٢٥.

(٢) الطبقات الكبرى، جـ ٣ ص ٢٣.

(٣) راجع البداية والنهاية، جـ ٤ ص ٤٧.

(٤) اقرأ التفصيل في كتب السيرة، أو في «السيرة النبوية» للمؤلف ص ٢٢٩ ـ ٢٤٦، (طبع دار الشروق، الطبعة السابقة).

وخَلَص العدو إلى رسول الله ﷺ، وأصابته الحجارة حتى وقع لشقِّه، وأُصيبت رباعيته، وشُجّ في رأسه، وجرحت شفته ﷺ، ولا يعلم المسلمون بمكانه، فأخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيد رسول الله ﷺ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، ومصَّ مالك بن سِنان الدم عن وجهه ﷺ.

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد، وهو يُسأل عن جرح رسول الله ﷺ، فقال:

أما والله إني لأعرف مَن كان يغسل جُرح رسول الله ﷺ، ومَن كان يسكب الماء، وبما دُووي، قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليٌّ بن أبي طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقتها، فاستمسك الدم[1].

قال ابن كثير: وشهد عليٌّ أُحُداً، وكان على الميمنة، وله الراية بعد مصعب بن عمير، وقاتل يوم أُحُد قتالاً شديداً، وقتل خلقاً كثيراً من المشركين، وغسل عن وجه النبي ﷺ الدم الذي كان أصابه من الجراح حين شُجَّ في وجهه، وكسرت رباعيته[2].

غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب، وعبقريّة علي الحربية فيها

وكانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس من الهجرة، وكانت من الحوادث التي لها أثر بعيد في تاريخ الإسلام والمسلمين وفي المدّ الإسلامي، وكانت معركة حاسمة ومحنة ابتلي فيها المسلمون ابتلاءاً لم يبتلوا بمثله[3]، ولا تصوير أدقّ وأصدق من قول الله تعالى فيها:

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أُحُد.
(٢) البداية والنهاية، جـ ٧ ص ٢٢٤.
(٣) اقرأ خبر الغزوة وتفاصيلها في «السيرة النبوية» للمؤلف، ص ٢٤٧ - ٢٥٧.

﴿ إذ جاؤوكم من فَوْقكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنّون بالله الظنونا. هنالك ابتُلي المؤمنونَ وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً ﴾[1].

وقد تجلَّت فيها عبقرية علي الحربية لأول مرة في أروع مظاهرها، فكان الخندق ـ الذي حفره المسلمون بإشارة سلمان الفارسي في السهل الواقع شمال غرب المدينة، والجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو ـ حائلاً بين المسلمين وبين قريش وغطفان الذين بلغ عددهم عشرة آلاف، وأقبلت فوارس من قريش تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمّموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في أرض المعركة التي نزل بها المسلمون.

ومنهم الفارس المشهور عَمْرو بن عبد ودّ الذي كان يُقَوَّم بألف فارس، فلما وقف قال: مَن يبارز؟ فبرز علي بن أبي طالب، فقال: يا عَمْرو، إنك كنتَ عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلّتين إلا أخذتها منه، قال: أجل.

ـ قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

ـ قال: لا حاجة لي بذلك.

ـ قال: فإني أدعوك إلى النزال.

ـ فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أُحب أن أقتلك.

ـ قال له علي: لكني والله أُحب أن أقتلك.

فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي رضي الله عنه، فتنازلا وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه[1].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ١٠ ـ ١١.

(٢) البداية والنهاية، جـ ٤ ص ١٠٠.

وجاء في رواية أُخرى أن عمـراً نادى على رجل يبرز، وجعل يؤنبهم ويقول: أين جَنَّتُكم التي تزعمون أنه مَن قُتل منكم دخلها، أفلا تُبرِزون إليّ رجلًا؟ وقام عليٌّ مرتين، فقال: أنا يا رسول الله، فقال: «اجلس»، ثم نادى عمرو الثالثة واستثار، فقام علي، فقال: أنا يا رسول الله أنا، فقال: «إنه عمرو»، فقال: وإن كان عَمْـراً، فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه، فلما سمّى نفسه قال عمرو: يا ابن أخي من أعمامك مَن هو أسنُّ منك، فإني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فكانت المجالدة، فقتل علي عَمْـراً[1].

ووضعت الحرب أوزارها بعد ما حدث خلاف بين بني قريظة ـ الذين حالفوا قريشاً ـ وبين قريش، وبعد أن بعث الله على الأحزاب الريح العاصفة في ليالٍ شاتية باردة، تقلب قدورهم، وتطرح أبنيتهم[2]، ولم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين، وقال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»[3].

صلح الحديبية، وأدب سيّدنا عليّ، وحبُّه للرسول ﷺ

وكان في ذي القعدة سنة ست من الهجرة صلح الحديبية[4]، وبعد اللُّتَيّا والتي، وعناد قريش ورفضهم السماح للمسلمين بدخول مكة للعُمْرة، بعثت قريش سهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»، وقال: اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا علي بن أبي طالب، فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: (باسمك اللّهم)، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك

(١) المرجع السابق، جـ ٤ ص ١٠٦.
(٢) اقرأ سورة الأحزاب وكتب السيرة.
(٣) البداية والنهاية، جـ ٤ ص ١١٥.
(٤) اقرأ السبب الداعي إليه وخلفياته وتفصيل الواقع، في كتب السيرة، وفي «السيرة النبوية»، للمؤلف ص ٢٧٣ ـ ٢٨٣.

اللَّهم»، ثم قال: «اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب (محمد بن عبد الله) فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله» فأمر عليّاً أن يمحوها، فقال علي: لا والله، لا أمحوها، فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانه» فأراه مكانها فمحاها[1].

غزوةُ خَيبر وبطولته فيها

وكانت في آخر المحرم سنة سبع من الهجرة غزوة خيبر[2]، وهي الغزوة التي تجلَّت فيها بطولة أسد الله الغالب، ومكانته عند الله وعند رسوله، وما قدَّر الله من فتح هذه المستعمرة اليهودية، ذات الأهمية العسكرية الاستراتيجية على يده، في مظهر جليّ رائع.

كانت خيبر مستعمرة يهودية تتضمن قلاعاً حصينة، وقاعدة حربية لليهود، وكانت آخر معقل من معاقلهم في جزيرة العرب، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتآمرون مع يهود المدينة وخارجها لغزو المدينة، فأراد رسول الله ﷺ أن يستريح منهم، ويأمن من جهتهم، وكانت في الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منها.

تَوجَّهَ رسول الله ﷺ بجيشه إلى خيبر، وكانوا ألفاً وأربع مئة، ونازل حصون خيبر، وبدأ يفتتحها حصناً حصناً، واستعصى حصن القموص على المسلمين، وكان علي بن أبي طالب رَمِداً، فقال رسول الله ﷺ: «ليأخذنَّ الراية غداً رجل يحبّه الله ورسوله يفتح عليه»، وتطاول لهذا الأمر كبار الصحابة رضي الله عنهم، وكلٌّ منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك، ودعا عليّاً وهو يشتكي عينيه، فأتى فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرىء، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي رضي الله عنه: أُقاتلهم حتى

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير «باب صلح الحديبية» (دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى ١٩٥٥ م).

(٢) اقرأ للتفصيل كتب السيرة أو «السيرة النبوية» للمؤلف ص ٣١١ ـ ٣١٩.

يكونوا مثلنا؟ قال رسول الله ﷺ: «انفُذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعَم»[1].

بين أسد الله وبطل اليهود مرحب

وأتى عليّ رضي الله عنه حصن القموص فخرج مَرْحب وهو الفارس المشهور يرتجز، فاختلفا ضربتين، فبدره علي بضربة ففلق مغفره ورأسه، ووقع في الأضراس[2] وكان الفتح.

جاء في مصنَّف ابن أبي شيبة بسنده عن ليث، قال: دخلت على أبي جعفر فذكر ذنوبه وما يخاف، قال: فبكى، ثم قال: حدّثني جابر أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون ففتحوها، وأنه جُرِّب، فلم يحمله إلا أربعون رجلاً[3].

وذكر محمد بن إسحاق عن عبد الله بن حسن عن بعض أهله عن أبي رافع أن يهودياً ضرب عليّاً فطرح ترسه، فتناول باباً عند الحصن، فتترّس به، فلم يزل في يده حتى فتح الله على يديه، ثم ألقاه من يده، قال أبو رافع: فقد رأيتني وأنا وسبعة معي نجتهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم

---

(١) الرواية في صحيح البخاري وصحيح مسلم، في باب «غزوة خيبر».

(٢) قد جاء في سيرة ابن هشام أن الذي قتل مرحباً هو محمد بن مسلمة (ق ٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٤) والصحيح أن الذي قتل مرحباً هو علي بن أبي طالب (الطبري ص ١٥٧٩) وقد جاء ذلك مصرحاً في رواية مسلم، وجاءت فيه الأبيات التي ارتجز بها علي، والذي يرويه مسلم بسنده أولى بالاعتماد والترجيح (راجع صحيح مسلم حديث رقم ١٨٠٧ كتاب الجهاد والسير).

(٣) أورده الهندي في الكنز ١٥/١٢٠ برمز «ش»، وضعف ابن كثير حديث حمل باب خيبر، وقال: في هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر، وضعَّف رواية أبي جعفر الباقر عن جابر كذلك (البداية والنهاية، جـ ٤ ص١٨٩ - ١٩٠). أقول وقد رويت هذه القصة من طرق عديدة، وهي قصة مشهورة ولا يستبعد وقوعها - إن صحَّ ثبوتها وكان لها أصل - فمن عقائد أهل السنّة أن كرامات الأولياء حق، ولها أصل في القرآن فقد جاء: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريمُ أنّى لكِ هذا قالت هو من عند الله، إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب ﴾، (سورة آل عمران)، وسيدنا علي كرّم الله وجهه من سادة الأولياء ومقدَّميهم.

نستطع، وقال ليث عن أبي جعفر عن جابر فلم يحمله إلا أربعون رجلاً[١].

الإيمان القوي والثقة الراسخة بما أخبر به الرسول ﷺ

لما تأهَّب رسول الله ﷺ للتوجّه إلى فتح مكة في رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة، أمر الناس بالجهاز، واستعان على أمره بالكتمان، وقال: «اللَّهمّ خُذِ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتَها في بلادها»[٢].

وأراد حاطب بن أبي بَلْتَعة وهو ممّن هاجر من مكة وشهد بدراً وكان امرءاً مُلصَقاً في قريش ليس من أنفسهم، وله فيهم أهل وعشير وولد، وليس فيهم قرابة يحمونهم، فأحبَّ إذ فاته ذلك أن يتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابته، فكتب كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وأعطاه امرأة، وجعل لها جُعْلاً على أن تُبلِّغه قريشاً ـ وكان تصرفاً خاطئاً غفر الله له ـ وقد قال رسول الله ﷺ فيه كلمة خير، وقال: «لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[٣].

وجعلت المرأة هذا الكتاب في قرون رأسها ثم خرجت به، وأُعطي رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليّاً والزبير، فقال: «انطلقا حتى تأتيا رَوْضة خاخ[٤]، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش».

فانطلقا تعادَى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان، فاستنزلاها وقالا: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، ففتشا رَحْلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها عليٌّ: أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجنّ الكتاب أو لنجردنّك، فلما رأت الجدّ منه قالت: أعرِض، فأعرَض، فحلّت قرون رأسها فأخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسول الله ﷺ[٥].

---

(١) البداية والنهاية، جـ ٧ ص ٢٢٥، (طبع مكتبة المعارف).

(٢) زاد المعاد، جـ ١ ص ٤٢١ (المطبعة الميمنية مصر)، وابن هشام، ق ٢ ص ٣٩٧.

(٣) المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٢١، وقد وردت القصة في الصحاح.

(٤) موضع بين المدينة ومكة على مسافة اثني عشر ميلاً من المدينة (مجمع بحار الأنوار للفتني).

(٥) زاد المعاد، جـ ١ ص ٤٢١، وقد وردت القصة في الصحاح.

تسلية رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه حين خلَّفه في المدينة

وكان في رجب سنة تسع من الهجرة غزوة تبوك، وكانت لها أهميّة كبيرة في السيرة النبوية، وتحققت منها غايات كانت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام[1].

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلَّف على أهله علي بن أبي طالب، وحين شَكَى إليه علي إرجاف المنافقين وقالتهم، قال له: «أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»[2].

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ استخلف عليّاً على المدينة، فقال له: يا رسول الله أتخلفني مع النساء والصبيان، إلى آخر الرواية[3].

بَعثُه إلى اليمن وإسلام همدان على يده

وفي سنة تسع من الهجرة تقاطرت الوفود إلى المدينة ـ على إثر فتح مكة والعودة من تبوك ـ من كل وجه، يدخلون في دين الله أفواجاً[4]، وفيها وفد الأشعريين وأهل اليمن، وكانوا يرتجزون:

غداً نلقَى الأحبّة مُحمَّداً وحزبه

وقال رسول الله ﷺ: «أتاكم أهل اليمن، هم أرقّ أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يَمَان، والحكمة يمانية»[5].

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام في نفر من المسلمين، فأقاموا ستة أشهر يدعوهم خالد إلى الإسلام فلم يجيبوا، ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقرأ عليهم كتاب

---

(١) اقرأ التفصيل في كتاب المؤلف «السيرة النبوية»، ص ٣٦١ ـ ٣٧٢.

(٢) صحيح البخاري «باب غزوة تبوك».

(٣) البداية والنهاية، جـ ٧ ص ٢٢٥.

(٤) اقرأ التفصيل في كتاب المؤلف «السيرة النبوية»، عنوان عام الوفود، ص ٣٧٧ ـ ٣٨٣.

(٥) رواه البخاري في باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن. راجع زاد المعاد، جـ ٢ ص ٣٢.

رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال: «السلام على هَمْدان، السلام على هَمْدان»[1].

نيابة عن رسول الله ﷺ وتواضع

فُرض الحج سنة تسع، وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً للحج هذه السنة ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشِرْك على منازلهم من حجِّهم، وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه مَن أراد الحج من المسلمين في ثلاثمائة رجل من المدينة.

ونزلت سورة براءة على رسول الله ﷺ، فدعا عليّ بن أبي طالب فقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذِّن في الناس يوم النحر، إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ومَن كان له عند رسول الله ﷺ عهْد فهو له إلى موته».

فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر الصدِّيق، قال أبو بكر: أمير أم مأمور؟ فقال علي: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذّن في الناس بالأمر الذي أمره به رسول الله ﷺ[2].

حجة الوداع وخطبة غدير خُم

وأدرك علي رسول الله ﷺ في حجة الوداع، ونحر رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بدنة بيده، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره، ثم أمسك، وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة، ففعل وأكمل العدد.

ولما أكمل رسول الله ﷺ أيام التشريق الثلاثة نهض إلى

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٣٣، واقرأ للبلاذري «أنساب الأشراف» ف ٨٢٦ و٥، طبع القاهرة، وفيه أنهم أدّوا الزكاة.

(٢) ابن هشام ق ٢ ص ٥٤٣ - ٥٤٦.

مكة، فطاف للوداع، وأمر الناس بالرحيل، وتوجه إلى المدينة، فلما وصل إلى غدير (خُمّ)[1] خطب ﷺ، وذكر فيها فضل علي -رضي الله عنه- وقال: «مَن كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهمّ والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه»[2].

وكان سبب ذلك أن بعض الناس كانوا قد اشتكَوا علياً وعتبوا عليه، وتكلم فيه بعض مَن كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلاً، والصواب كان مع علي في ذلك[3].

وفاة الرسول ﷺ

وتحققت سنّة الله في خلقه وأنبيائه، وصدق الله العظيم:

﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ﴾[4]، وكملت مُهمّة التبليغ والتشريع، وأقرّ الله عين نبيّه ﷺ بدخول الناس في هذا الدين أفواجاً، وبدت طلائع انتشاره في العالم، واطمأن إلى وفاء مَن ربّاهم في حِجْره، ونشأوا تحت سمعه وبصره، لهذا الدين وتنفيذهم لتعاليمه، والغَيْرة على أصالته ونقائه، وظهرت شواهد ذلك من غير شك وريبة، فتهيّأ للقاء الله، وقد أحبّ الله لقاءه، وأوصى المسلمين وخطب فيهم مراراً، وأنفق ما تبقّى من المال، وكانت خمسة إلى تسعة من الذهب، وقال: ما ظنّ محمد بالله عزّ وجل لو لقيه وهذه المال عنده، وقال لعائشة رضي الله عنها: «أنفقيها»[5].

ولما ثَقُل به ﷺ وجعه، واغتسل وذهب لينوء أُغمِي عليه، ثم أفاق

(١) غدير بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ٤١٥ - ٤١٦ نقلاً عن الإمام أحمد والنسائي.
(٣) راجع سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٤١٤ (طبع دار الفكر العربي).
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٤٤.
(٥) مسند الإمام أحمد جـ ٦ ص ٤٩.

فقال: أصلّى الناس؟ قالوا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، وكان أبو بكر رجلاً رقيقاً، فقال: يا عمر صلِّ بالناس، فقال: أنت أحقّ بذلك منّي، فصلَّى بهم تلك الأيام.

ثم إن رسول الله ﷺ وجد خِفَّة، فخرج بين رجلين، أحدهما العباس والآخر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، فأمرهما فأجلساه إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلي قائماً، ورسول الله ﷺ يصلّي قاعداً[1].

يقول علي رضي الله عنه: أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم[2]، وتقول عائشة رضي الله عنها: ذهبت أعودُه فرفع بصره إلى السماء وقال: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى، وبين يديه رَكْوة وعلبة فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه، ثم يقول: «لا إلّه إلا الله، إن للموت سكرات» ثم نصب أصبعه اليسرى وجعل يقول: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى، حتى قُبض ومالت يده في الماء[3].

ونزل نبأ وفاة رسول الله ﷺ على الصحابة كالصاعقة لشدة حبّهم له، وما تعودوه من العيش في كنفه، عيش الأبناء في حجر الآباء، بل أكثر من ذلك، وكان حظ أهل البيت والأُسرة الهاشمية ـ وعلى رأسها فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ـ أوفر وأكثر بطبيعة الحال، وبحكم الفطرة السليمة والقرابة القريبة، وما يمتازون به من رقة الشعور وقوة العاطفة، وشدة الحب، ولكن احتملوه بقوة إيمانهم والرضا بقضاء الله والاستسلام لأمره.

وتولّى أهل البيت جَهاز رسول الله ﷺ ودفنه، ولكن مع تعلقهم به تعلقاً

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، في «باب مرض النبي ﷺ ووفاته».
(٢) رواه أحمد (سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٣).
(٣) رواه البخاري «باب مرض النبي ﷺ ووفاته».

لم يعرف لبشر مع بشر، ومتّبع لنبي، ومحب لمحبوب، لم يَنُحْ عليه أحد، فقد نهى عن النياحة أشدّ النهي.

وقال في آخر أيام حياته:

«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا من قبـور أنبيائهم مساجد» يحذِّر ما صنعوا[1].

وكان ذلك يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ للهجرة بعد الزوال، وله ﷺ ثلاث وستون، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة على المسلمين، ومحنة للإنسانية، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) مختصراً من كتاب «السيرة النبوية» للمؤلف ص ٣٩٣ ـ ٤٠٧.



الفصل الثالث

سيّدنا عليّ

في خلافة سيّدنا أبي بكر رضي الله عنهما

ساعة دقيقة حاسمة - مصير الديانات القديمة - شروط خلافة النبي ومتطلباتها - تحقيق أبي بكر هذه الشروط والمتطلبات - الأمر الشورى في الإسلام وخلافة سيدنا أبي بكر - مبايعة أبي بكر رضي الله عنه - الحكمة في تأخير خلافة سيدنا علي - المحنة الأولى لأبي بكر وموقفه الصارم منها - فاطمة الزهراء رضي الله عنها - مبايعة سيدنا علي - محنة لعلي وثباته فيها - إخلاص سيدنا علي لأبي بكر وتعاونه معه - صلة سيدنا أبي بكر بآل بيت الرسول الوديّة والتقديرية - نظرة في حياة الصدِّيق كخليفة - جمع القرآن - ثناء علي على أبي بكر بعد وفاته.



الفصل الثالث

سيدنا علي عليه السلام

في خلافة سيدنا أبي بكر رضي الله عنهما

ساعة دقيقة حاسمة

لقد كانت وفاة الرسول ﷺ ـ والإسلام لا يزال جزيرة صغيرة في بحر لا أرجاء له من الجاهلية، بعقائدها الشركية، وأخلاقها الحيوانية، وأعمالها الوحشية، ومجتمعات فاسدة، وحكومات جائرة، والعرب حديثو العهد بالإسلام لم يتعوّدوا في حياتهم القبلية القديمة الوحدة والانسجام، والخضوع لنظام ـ أدقَّ ساعة من ساعات التاريخ الحاسمة التي مرّت بها هذه الأُمة.

وقد كانت دياناتٌ، أخضعت مساحات كبيرة من المعمورة ومجموعات كثيفة من العمران في عهدها الباكر، فريسة الانحراف أو التحريف، والمؤامرات الداخلية، أو المحاربات الخارجية، لضعف خلفاء مؤسِّسي هذه الديانات، والمضطلعين بأعبائها وعَرْضها وتفسيرها، والقائدين لأتباع هذه الديانات، لعدم تعمُّقهم في فهم غايات هذه الديانات وأُسسها، أو لعدم إخلاصهم لها، أو لقلة غَيْرتهم على أصالتها ونقائها، أو لقلة زهدهم في حطام الدنيا، أو لتنافسهم على الجاه والمنصب، فذابت هذه الديانات الجبارة في النظم والفلسفات التي جاءت للقضاء عليها أو صالحتها وتلقحت بها في صالح الملوك الذين دانوا بها، أو الحكومات التي تبنّتها واستفادت بها أكثر مما أفادتها، كان ذلك الشأن مع البرهمية والبوذية في عهد قريب من مؤسّسها، والزرادشتية، والشأن مع اليهودية في عهد قريب، والنصرانية بعدما غادر سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام هذه الدنيا.

مصير الديانات القديمة

ونبدأ باليهودية والمسيحية، لأنهما كانتا ديانتين سماويتين ويصف القرآن والإسلام أتباعهما بأهل الكتاب.

جاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه: إنَّ سُخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة كانت قد تسرَّبت إلى نفوس الإسرائيليين قديماً، ولم يُستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة[1].

أما المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، ووثنية الرومان المتنصِّرين منذ عصرها الأول، وأصبح كل ذلك ركاماً دُفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب الكثيفة، وكان في ذلك نصيب كبير لبولس الراهب SAINT PAUL (١٠ - ٦٥ م) الذي تملّك زمام الديانة المسيحية وتوجيهها في عهد قريب، ويعتقد عدد من الباحثين أن المسيحية السائدة اليوم تدين لبولس في وضعها وفي طريقة التجسيم والتمثيل والخضوع للتقاليد البوذية أكثر مما تدين لخلفاء المسيح الأولين، وهو الذي تلقّاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً.

أما البرهمية فقد انحرفت مبكراً عن جادّتها الأولى، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطر الكون، وطغت عليها عبادة الأصنام، وبلغ عددها إلى ٣٣٠ مليون[2]، كذلك الشأن مع البوذية، فقد انحرفت وتحرّفت، وهجمت عليها الأوثان والتماثيل والطقوس التي حاربتها حتى أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية، لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتماثيل وعددها، حتى أصبحت كلمة بوذا BUDDHA مرادفة لكلمة

(١) JEWISH ENCYCLOPEDIA VOL. XII P. 568-569.

(٢) C.V.VAIDYA HISTORY OF MEDIAEVAL HINDU INDIA, VOL. I P.101.

(الوثن) أو الصنم في بعض اللغات الشرقية، وهي «بت» المتقاربة نطقاً[١].

كذلك الشأن مع الزرادشتية، يقول مؤلِّفو (ديانات العالم) RELI-GIONS OF THE WORLD:

إن حركة ردّ الفعل التي ظهرت على إثر وفاة زرادشت كحركة إصلاحية متوازية، أعادت آلهة الديانات القديمة إلى الحياة والتأثير، ورحب بذلك المرتبطون بها قلباً وعقيدة في حماس، وقاد الكهنة القدماء هذه الحركة، وأبدَوا على ذلك سرورهم ورضاهم، وهكذا غرقت الديانة التي دعت إلى التوحيد بجراءة كبيرة في سَيْل كثرة الآلهة[٢].

شروط خلافة النبي ومتطلباتها

وكان الحل الوحيد لهذه الأزمة والمعضلة التي واجهتها الأُمة الإسلامية الوليدة الناشئة ـ وكان لا بدَّ أن تواجهها في حينٍ من الأحيان ﴿سنّةَ الله في الذين خَلَوا من قَبْلُ، ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً﴾[٣] ـ وطريق التغلّب عليها هو اختيار خليفة يمتاز بخلالٍ تمكّنه ـ بتوفيق الله تعالى ـ من تأمين الدين من التحريف، والأُمة من الانحراف.

١ ـ يمتاز بأنه ظلَّ طول حياته بعد الإسلام متمتعاً بثقة رسول الله ﷺ به وشهادته له، واستخلافه إياه في القيام ببعض أركان الدين الأساسية، وفي مهمات الأُمور، والصحبة في مناسبات خطرة دقيقة لا يستصحب فيها الإنسان إلا مَن يثق به كل الثقة، ويعتمد عليه كل الاعتماد.

٢ ـ يمتاز هذا الفرد بالتماسك والصمود في وجه الأعاصير والعواصف التي تكاد تعصف بجوهرة الدين ولُبّه، وتحبط مساعي صاحب رسالته، وتنخلع لها قلوب كثير ممّن قوي إيمانهم وطالت صحبتهم، ولكن يثبت هذا الفرد في وجهها ثبوت الجبال الراسيات، ويمثّل دور خلفاء الأنبياء الصادقين

---

(١) L.S.S.O'MALLEY POPULAR HINDUISM,P. 6-7.

(٢) ص ١٣٩ ـ طبع نيويورك.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦٢.

الراسخين، ويكشف الغطاء عن العيون، وينفض الغبار عن جوهرة الدين وعقيدته الصحيحة.

٣ ـ يمتاز هذا الفرد في فهمه الدقيق للإسلام، ومعايشته له في حياة النبي ﷺ على اختلاف أطواره وألوانه، من سِلْم وحرب، وخوف وأمن، ووحدة واجتماع، وشدّة ورخاء.

٤ ـ يمتاز بشدة غَيْرته على أصالة هذا الدين وبقائه على ما كان عليه في عهد نبيّه، غَيْرة أشدّ من غَيْرة الرجال على الأعراض والكرامات والأزواج والأمهات والبنين والبنات، لا يحوِّله عن ذلك خوف أو طمع أو تأويل، أو عدم موافقة من أقرب الناس وأحبِّهم إليه.

٥ ـ يكون دقيقاً كلَّ الدقة وحريصاً أشدَّ الحرص في تنفيذ رغبات الرسول الذي يخلفه في أمته بعد وفاته، لا يحيد عن ذلك قيد شعرة، ولا يساوم فيه أحداً، ولا يخاف لومة لائم.

٦ ـ يمتاز بالزهد في متاع الدنيا والتمتّع به، زهداً لا يتصور فوقه إلا عند إمامه وهاديه سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وأن لا يخطر بباله تأسيس الملك والدولة وتوسيعهما لصالح عشيرته وورثته، كما اعتادت ذلك الأسر الملوكية الحاكمة في أقرب الدول والحكومات من جزيرة العرب، كروما وفارس.

تحقيق أبي بكر هذه الشروط والمُتطلَّبات

وقد اجتمعت هذه الصفات والشروط كلها في سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، كما تمثلت في حياته وسيرته في حياة الرسول ﷺ قبل الخلافة وبعد الخلافة إلى أن توفاه الله تعالى[١]، بحيث لا يسع مُنْكِراً أن ينكره أو مُشَكّكاً يشكِّك في صحته، فقد تحقق بطريق البداهة والتواتر.

(١) اقرأ سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير ـ المجلد السادس، و(الإصابة في تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر، وكتب التاريخ والسير والتراجم.

ونتناول مظاهر تحقيق سيدنا أبي بكر الشروط المذكورة أعلاه بالترتيب:

١ ـ فأما ثقة رسول الله ﷺ به الثقة الكاملة، فقد تجلَّت باستصحابه في رحلة خطرة دقيقة، وهي الصحبة في سفر الهجرة من مكة إلى المدينة، والعدو بالمرصاد، ولا يستصحب الإنسان العاقل في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاوف إلا مَن يثق كل الثقة بإخلاصه، ومعلوم أن أضعف الناس عقلاً لا يستصحب في مثل هذا السفر الذي يعاديه فيه الملأ الذين هو بين أظهرهم ويطلبون قتله ويتتبّعون أثره وينتهزون الفرصة لذلك، إلا الموثوق به كل الثقة، المخلص له كل الإخلاص، ومَن يؤثره على نفسه وحياته[١].

وقد خلَّد الله هذه المأثرة بذكرها في القرآن، وقوله تعالى: ﴿ ثانيَ اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إنَّ الله معنا ﴾[٢]، وتلك منقبة لا يشارك أبا بكر فيها أحد.

أما الاستخلاف في القيام ببعض أركان الدين الأساسية فمعلوم أنه لا سبيل إلى الاستخلاف في الصوم والزكاة، فهما فريضتان شخصيتان يقوم بهما الفرد بنفسه، وإنما يمكن الاستخلاف في الإمامة في الصلاة، أو في إمارة الحج، وقد ثبت كل ذلك لأبي بكر، فقد استخلفه رسول الله ﷺ في الإمامة بالناس في الصلاة فلم يعدل به أحداً، فعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدِّثيني عن مرض رسول الله ﷺ، قالت: بلى، ثَقُل النبي ﷺ فقال: «أصلَّى الناس»؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: «ضعوا لي ماءاً في المِخْضب»، قالت: ففعلنا، فاغتسل فذهب لينوء فأُغمي عليه، ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلَّى الناس»؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «ضعوا لي ماءاً في المِخْضب»، قالت: فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء

(١) يقول صاحب (منهاج الكرامة):
إنه لا فضل له (يعني لأبي بكر) في الغار لجواز أن يستصحبه حذراً منه لئلا يفشي سرّه. وقد روي أنه ذكر ذلك لخربنداه ـ الأمير الذي صنّف له هذا الكتاب ـ فقال ما فحواه: (إنه لا يفعله عاقل).

(٢) سورة التوبة، آية: ٤٠.

فأُغمِيَ عليه، ثم أفاق فقال: «أصلّى الناس»؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: «ضعوا لي ماءاً في المِخْضب» فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأُغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلّى الناس»؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، الناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخر.

فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلِّي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصليَ بالناس، فقال أبو بكر وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر، صلِّ بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلّى أبو بكر تلك الأيام.

ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خِفَّة فخرج بين رجلين،أحدهما العباس، لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلِّي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر، قال: «أجلساني إلى جنبه»، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر، والنبي قاعد.

قال عبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدّثتني عائشة عن مرض النبي ﷺ؟ قال: هاتِ، فعرضت عليه حديثها، فما أنكر منه شيئاً، غير أنه قال: أسمَّت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت: لا، قال: هو علي[1].

وعن أبي موسى قال: مرض رسول الله ﷺ فاشتدَّ مرضه فقال: «مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس» فقالت عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق متى يقم مقامك لا يستطيع أن يصليَ بالناس، فقال: «مُري أبا بكر فليصلِّ بالناس، فإنكنَّ صواحب يوسف»[2].

(١) صحيح البخاري، باب (إنما جُعِل الإمام ليؤتَمّ به) كتاب الصلاة، كذلك في صحيح مسلم في باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر أو مرض.

(٢) الجامع الصحيح لمسلم، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر أو مرض.

واستخلفه رسول الله ﷺ في إمارة الحجّ، وهو منصب رفيع ومسؤوليةٌ كبيرة، وقد فُرض الحج سنة تسع، وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً للحج هذه السنة ليقيم للمسلمين حجَّهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجِّهم، وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه مَن أراد الحج من المسلمين في ثلاث مائة رجل من المدينة[1]، كما مرّ في الصفحات الماضية.

٢ ـ وقد تجلَّى تماسك سيدنا أبي بكر وصموده الأول في أكبر محنة امتحن بها المسلمون، وهي وفاة الرسول ﷺ، فقد نزل نبأ وفاته على الصحابة كالصاعقة، ولم يكد بعضهم يصدق بهذا النبأ، وكان في مقدمتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وقد عُرِف برباطة جأشه ورجاحة عقله ـ فأنكر على مَن قال مات رسول الله ﷺ، وخرج إلى المسجد وخطب الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفنيَ الله المنافقين[2].

فكان أبو بكر رجل الساعة المطلوب والجبل الراسي الذي لا يحول ولا يزول، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر، حتى نزل على باب المسجد، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها وهو مسجّى، فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً، وردّ البُرْد على وجهه ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رِسْلك يا عمر وأنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

(أيها الناس، إنه مَن كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسل، أفإنْ مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومَن ينقلبْ على

(١) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٥٤٣ ـ ٥٤٦.

(٢) سيرة ابن كثير، جـ ٤ ص ٤٧٩، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة (طبع ١٩٦٤ م).

عَقِبَيْه فلن يضرّ الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين ﴾[1]).

يقول مَن شهد هذا الموقف: والله كأنَّ الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يومئذ، ويقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعَقَرت[2] حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[3].

٣ ـ ٤ ـ وتجلَّى فهمه الدقيق للإسلام، وشدة غَيْرته على أصالة هذا الدين وبقائه على ما كان عليه في عهد نبيِّه في الكلمة التي فاض بها لسانه ونطق بها جنانه، وهي الكلمة التي تساوي خطبة بليغة طويلة وكتاباً حافلاً، وهو قوله عندما امتنع كثير من قبائل العرب أن يدفعوا الزكاة إلى بيت المال، أو منعوها مطلقاً وأنكروا فرضيتها[4]: (قد انقطع الوحي وتَمَّ الدين، أيُنقص وأنا حيّ؟!)[5].

وقد توقف في جواز محاربتهم بعض كبار الصحابة لتلفّظهم بكلمة الإسلام وإقرارهم بكثير من أحكامه، ولكن أبا بكر لم يتلعثم ولم يتردّد في محاربتهم دقيقة واحدة، فقد رُوي أنه قال: (والله لو منعوني عَناقاً[6] ـ وفي رواية عِقالاً[7] ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لأقاتلنَّهم على منعها، إن

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٤.

(٢) تحيرت ودهشت.

(٣) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٦٥٥ ـ ٦٥٦، ورواه البخاري مطولاً في باب مرض النبي ﷺ.

(٤) اقرأ مذاهب قبائل العرب في منع الزكاة أو إنكارها في كتاب المؤلف (الأركان الأربعة ـ ركن الزكاة، طبع دار القلم، الكويت) وبحث العلاّمة الخطّابي في «معالم السنن» في أنواع المانعين.

(٥) في «مشكاة المصابيح» قال عمر: فقلت يا خليفة رسول الله، تألّف الناس وارفق بهم، فقال لي: أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام قد انقطع الوحي وتمَّ الدين، أينقص الدين وأنا حيّ؟! رواه رَزين.

(٦) العناق: الأنثى من أولاد المعز.

(٧) العقال: زكاة عام من الإبل والغنم، والعقال أيضاً: الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة.

الزكاة حق المال، والله لأقاتلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة)[1].

وقد كان منع الزكاة عن الإمام ثلمة كبيرة في الإسلام، وباباً واسعاً للثورة والفوضى، لو سمح أبو بكر ـ لا سمح الله بذلك ـ بفتحه وتهاون في سدّه وإغلاقه لما استطاع أحد من بعده أن يسدّه، ولفُتحت على إثره أبواب أُخرى، ففي أمر الصلاة قال قوم: لا لزوم للجمعة والجماعة وحسبنا أن نصلّيَ فرادى أو في بيوتنا، وفي أمر الصيام قيل: لا لزوم لتوقيته برمضان أو بمبدئه ومنتهاه، وكذلك الحج الاجتماعي الذي مناسكه معيّنة وأوقاته محدودة، إلى غير ذلك، ولأصبحت الخلافة النبوية ونظام الإمارة في الإسلام الذي ترتبط به الحدود والأحكام وعزّة الإسلام كبحر العَروض، اسمه بحر ولا ماء، ولانفرط عقد الإسلام والمسلمين على إثر وفاة الرسول ﷺ.

فكان موقف أبي بكر رضي الله عنه الذي لا هوادة فيه ولا ليونة، ولا مساومة فيه ولا تنازل، موقفاً موفَّقاً ملهَماً من الله، يرجع إليه الفضل الأكبر في سلامة هذا الدين وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته، وقد أقرَّ الجميع وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد وقف في مواجهة الردّة الطاغية، ومحاولة نقض عُرَى الإسلام عروة عروة، موقف الأنبياء والرسل في عصورهم، وهذه خلافة النبوّة التي أدَّى أبو بكر حقها واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث الله الأرض وأهلها[2].

٥ ـ أما دِقته كل الدقة وحرصه أشد الحرص على تنفيذ رغبات الرسول ﷺ بعد وفاته، فقد تجلَّى في إلحاحه على بعث جيش أُسامة الذي كان رسول الله ﷺ حريصاً عليه كل الحرص، عازماً على ذلك كل العزم، وقد خرج جيش أُسامة حتى نزل الجُرف من المدينة على فرسخ، ولحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، فلم يبرح، وأمر أبو بكر بتجهيزه تحقيقاً لرغبة رسول الله ﷺ

---

(١) البداية والنهاية، جـ ٦ ص ٣١١.

(٢) مقتبس من كتاب «الأركان الأربعة» للمؤلف (ركن الزكاة) ص ١٣٨ ـ ١٣٩، الطبعة الثانية، دار الفتح.

في ساعة عصيبة دقيقة لم يرَ أحد من المصلحة خروجه من المدينة خوفاً من غارة المرتدين، وغزو الأعداء للمدينة، ولكنه لم يمتنع عن ذلك.

وقد أعرب عن ذلك أبو هريرة رضي الله عنه، وعبّر عن هذه الحقيقة خير تعبير، فقد روى عنه أبو الأعرج، أنه قال:

(والله الذي لا إله إلا هو، لولا أن أبا بكر استُخلف ما عبدالله)، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ثم ذكر قصة توجيه جيش أُسامة، فقال:

فوجَّه جيشَ أُسامة، وقال: ما رددتُ جيشاً وجهه رسول الله ﷺ، ولا حللتُ لواءاً عقده رسول الله ﷺ، فجعل أُسامة لا يمرّ بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن نَدَعهم حتى يلقَوا الروم، فلقـوا الروم فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام[1].

وكان قتال أبي بكر رضي الله عنه للذين ارتدّوا عن الدين ونابذوا الملّة، وعدلوا إلى الكفر، والذين أنكروا الشرائع وتركوا الصلاة وغيرهما من أُمور الدين وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية، وهم الذين عدَّهم الخطابي من أهل الصنف الأول، وكذلك الذين فرّقوا بين الصلاة وبين الزكاة، فأنكروا وجوب الزكاة، وهم الذين عدّهم الخطابي من الصِنف الثاني.. كان قتال أبي بكر رضي الله تعالى عنه لهؤلاء جميعاً على أساس من أهل الردّة، وقد كفروا بإنكار ما صحَّ في هذا الدين بالضرورة، ولذلك قال: (والله لأقاتلنَّ مَن فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال).

أما الذين أنكروا وجوب أدائها إلى الإمام فاستبدوا بها واستأثروا، أو فرّقوها في قبيلتهم، ومَن كان يسمح بالزكاة ولم يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدُّوهم عن ذلك الرأي فأطاعوهم، فكان قتال أبي بكر لهم على أساس أنهم من أهل البغي، وقتال أهل البغي ثابت في القرآن، متَّفق عليه بين المسلمين، فقد قال تعالى:

---

(١) البداية والنهاية، جـ ٦ ص ٣٠٤.

﴿ فإن بَغَتْ إحداهُما على الأُخرى فقاتلوا التي تَبْغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾[1].

وقد قضى أبو بكر على فتنة ردّة كثير من القبائل العربية[2]، وفتنة المتنبّئين الكذّابين، الفتنة التي لو استمرَّت وتوسّعت لما قامت للإسلام قائمة ولا بقيت له باقية، وقتل مسيلِمة الكذّاب[3]، وتصدّى الصدِّيق لقتال أهل الردّة، ومانِعي الزكاة، وعقد ألوية الأُمراء الأحد عشر، وقضَوا على فتنة سجاح، وبني تميم[4]، والفجاءة، وعاد أهل البحرين وأهل عمـان ومهـرة واليمن إلى الإسلام، وقتل من الكفّار والمشركين والمرتدين في خلافة أبي بكر في العراق، وفي جزيرة العرب، ما ينيف على خمسين ألفاً[5]، وكان كما يقول ابن كثير في صدق وبلاغة:

(ردَّ شارد الدين بعد ذهابه، ورجّع الحق إلى نصابه، وتمهدت جزيرة العرب، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى)[6].

ويقول محمد بن إسحاق:

لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبّتْ اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفَقْد نبيِّهم،

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٩.

(٢) أولئك هم الأعراب والقبائل العربية التي لم يرسخ في قلوبها الإسلام لبُعدها عن مركز الإسلام، ودار الهجرة (المدرسة الإيمانية) والبيئة الإسلامية، التي يتلقون فيها تعاليم الإسلام ويتذوّقونها ويسيغونها إساغة كاملة، ولوجود بقايا الحمية الجاهلية، وما بين ربيعة ومضر وعدنان وقحطان من تباعد وعصبية قبلية سُلالية، وأولئك هم الذين قال الله عنهم ونبّه المسلمين بشأنهم، فقال: ﴿ قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولمّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبكم ﴾ (سورة الحجرات، آية: ١٤) وقال: ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ﴾ (سورة النساء، آية: ٨٩).

(٣) راجع للتفصيل «البداية والنهاية»، جـ ٦ ص ٣٦٤.

(٤) المرجع السابق جـ ٦ ص ٣١٩.

(٥) المرجع السابق جـ ٦ ص ٣٢٩.

(٦) المرجع السابق جـ ٦ ص ٣٣٢.

حتى جمعهم الله على أبي بكر رضي الله عنه[1].

وبعث الصدِّيق رضي الله عنه خالد بن الوليد إلى العراق ففتح معظمه، وفتح الأنبار ودُومة الجندل، وكانت وقائع وحروب كان فيها فتح الإسلام[2].

وبذلك ساد الهدوء والاستقرار على العرب الذين هم مادّة الإسلام ورأس ماله، وعلى الجزيرة العربية التي هي منبع الإسلام والسند الذي يستند إليه، واتَّجَهَ تَيّار الفتوح إلى العراق والشام، وشغل المسلمون بتمديد ظل الإسلام وتوسيع مملكته وأرضيته في الدول المجاورة، حتى تم ذلك في عهد سيدنا عمر وسيدنا عثمان رضي الله تعالى عنهما، وفارق الصدِّيق الحياة وغادر الدنيا وفتحُ دمشق والانتصارُ في وقعة اليرموك الحاسمة على الأبواب، وكان في جميع الفتوح التي تحققت للإسلام في عهد عمر وعثمان، حتى في عهد الأمويين، فضل للدور الذي قام به أبو بكر في خلافته، وكان الأساس الذي قام عليه المدّ الإسلامي وجرى فيضانه في العالم.

٦ ـ أما الزهد في متاع الدنيا والتمتّع به، والورع في الانتفاع ببيت أموال المسلمين، فيكفي لذلك تقديم مثالين من سيرة أبي بكر: أما الأول فكما يلي:

قيل إن زوجة أبي بكر اشتهت حلواً، فقال: ليس لنا ما نشتري به، فقالت: أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري، قال: افعلي، ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير، فلما عرّفته ذلك ليشتري به حلواً، أخذه فردّه إلى بيت المال وقال: هو يفضل عن قوتنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصته كل يوم، وغرمه لبيت المال من ملك كان له[3].

والمثال الثاني، وهو ما روي عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، قال:

لما احتضر أبو بكر قال: يا عائشة، انظري اللَّقْحَة التي كنّا نشرب من

(١) البداية والنهاية، جـ ٥ ص ٢٧٩.
(٢) راجع للتفصيل المرجع السابق، جـ ٧ ص ٢ ـ ٣.
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير، جـ ٢ ص ٤٢٣.

لبنها، والجَفْنة التي كنّا نصطبغ فيها، والقطيفة التي كنّا نلبسها، وإنّا كنّا ننتفع بذلك حين كنّا نلي أمر المسلمين، فإذا متُّ فارددیه إلى عمر. فلما مات أبو بكر، أرسلتْ به إلى عمر، فقال عمر رضي الله عنه: (رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت مَن جاء بعدك!!)[1].

الأمر الشورى في الإسلام وخلافة سيدنا أبي بكر

مخالفاً لما سادَ في العالم القديم من الحكم الوراثي والسيادة الروحية السُّلالية، جاء الإسلام وكمل أمره والعالم يرزح تحت دولتين سلاليتين وراثيتين: إحداهما الدولة الزمنية الإدارية، وهو الحكم المطلق الذي كان ينتقل من أب إلى ابن، أو من فرد من عشيرة إلى فرد آخر منها بوصية منه وتدبير له، أو باستيلاء وقدرة، من غير نظر إلى جدارة أو استحقاق، ومن غير نظر إلى صالح المحكومين أو الشعب أو البلاد، وكانت موارد البلاد كلها مِلكاً لهؤلاء الملوك، وقد تطرّفوا في اكتناز الأموال، وادِّخار الطُّرف والأشياء الغالية، والتأنُّق في المعيشة والتمتُّع بالحياة، ووصل الولوع بالتلذّذ وترفيه الحياة والمسابقة في مظاهر الغِنَى والعظمة إلى حدّ الخيال والشعر[2]، لا يتصوره إلا مَن توسّع في مطالعة كتب التاريخ القديم، وقد كان هؤلاء الملوك يحكمون بالوراثة ويرون أنفسهم فوق بني ادم، وكان الناس يعتقدون أنه يجري في عروقهم دم إلّهي مقدس.

وبجانبه كان الشعب يعاني من بؤس وشقاء، وتعب وعناء، وتذمر وبكاء، ما يُدمع العيون ويحزن القلوب، كان أفراد هذه الشعوب في جهد من العيش للحصول على ما يسدُّ رمقهم ويستر عَوْرتهم، يئنّون تحت أثقال الضرائب والإتاوات، ويرسفون في القيود والأغلال، ويعيشون عيش البهائم[3].

(١) تاريخ الخُلَفاء للسيوطي ص ٨٧، (الطبعة الميمنية مصر ١٣٠٥ هـ).

(٢) راجع السيرة النبوية للمؤلف ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) راجع للتفصيل (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للمؤلف، الفصل الثاني النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي ص ٧٥ - ٨٤، طبعة دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة عشرة، (١٩٨٢ م).

وكانت الدولة الأُخرى هي الدولة الروحية الدينية، وهي الرئاسة الدينية التي تتركّز في عشيرة خاصة وسُلالة معيَّنة، وتحتكر التوجيه الديني والاحترام البالغ إلى حدّ التقديس، كابراً عن كابر وجيلاً بعد جيل، وتستغلّ ذلك في مصالحها الاقتصادية وفي تحقيق رغباتها النفسانية والشهوية، وتكون واسطة بين الخلق والخالق والعباد والرب، وقد تُحلّ الحرام وتُحرّم الحلال، وتشرّع شرائع حرّة مطلقة، ولا أدق من تصوير الله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا، إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويَصدُّون عن سبيل الله ﴾[١].

وكان يسمى هؤلاء أكليروس[٢] CLERGY عند النصارى، يقول المعلم بطرس البستاني (وهو مسيحي) في شرحه:

(هو اسم يطلق على خَدَمة الدين عند النصارى، سُمُّوا بذلك إشارة إلى كونهم قسم الرب أو ميراثه، كما كان سبط لاوي في ناموس موسى ميراثاً للرب، . . . وكان عند العبرانيين والمصريين وغيرهم من الشعوب القديمة طائفة مفرزة لإقامة العبادة، وقد كان للكنيسة المسيحية منذ تأسيسها رعاة يُقامون لسياستها، وإذ كانت الكنيسة قد نهضت من ورطة الفقر أخذت سطوة الأكليروس في الامتداد، ولم يكونوا يُعتبرون فقط رُعاةً روحيين وخَدَمة الدين، بل أيضاً لكون المعارف في تلك الأيام كانت كلها تقريباً منحصرة فيهم، وكان الأكليروس في عهد الإمبراطورية الرومانية مُعفىً من كثير من الضرائب التي ضربت على الشعب، ولم يكن يطلب إليهم حينئذ أن يقوموا بمصالح عمومية، وقد حصلوا على سلطة زمنية لا على أنفسهم فقط، بل على الشعب أيضاً)[٣].

* * *

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٢) من «أكليروس» اليونانية، ومعناه قِسمٌ أو ميراث.

(٣) دائرة المعارف للبستاني، جـ ٤ ص ١٤٦، (طبعة بيروت، ١٨٧٦ م).

وكذلك كان الشأن في إيران القديمة (فارس)، فقد كانت الزعامة الدينية في بلاد فارس تتمثل في قبيلة من القبائل، فالسيطرة قديماً كانت لقبيلة «ميديا»، وفي عصر أتباع زرادشت أصبحت السيطرة لقبيلة «المغان».

ورجال القبيلة الدينية هم ظل الله في الأرض قد خلقوا لخدمة الآلهة، والحاكم يجب أن يكون من هذه القبيلة، وتتجسَّد فيه الذات الإلّهية، وتتولى هذه العائلة شرف سدانة بيت النار[1].

* * *

وكذلك كان الشأن في الهند للبراهمة، فكانوا محتكرين للديانة والقداسة، وقد منح القانون الهندي المقدس البراهمة مركزاً ومكانة لا يشاركهم فيها أحد، والبرهمي رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز فرض جباية عليه، ولا يعاقب بالقتل في حالٍ من الأحوال، وهو الذي لا تتحقق العبادة والمراسم الدينية إلا بواسطته[2].

* * *

وقد قضى الإسلام على هذين الاحتكارين الوراثيين اللذين جنيا على الإنسانية جناية تجلَّت شواهدها ومظاهرها في تاريخ روما وإيران والهند[3]، وترك الأمر إلى المسلمين وإلى أهل الشورى وأهل العلم والإخلاص في اختيار الخليفة، ولذلك لم يصرِّح رسول الله ﷺ بشيء في شأن مَن يكون خليفته بعده ووليّ أمر المسلمين، فإن كان ذلك فريضة من فرائض الدين وكان لا بدَّ من التصريح به، لنفَّذه رسول الله ﷺ وصرّح به، فإن الله تعالى يقول:

---

(١) راجع كتاب «إيران في عهد الساسانيين» لمؤلفه آرتهر كرستين سين.

(٢) راجع «السيرة النبوية» للمؤلف ص ٣٨ معتمداً على القانون المدني الاجتماعي الهندي المسمى بـ «منوشاستر».

(٣) «تاريخ إيران في عهد الساسانيين» لآرتهر كرستين سين.

﴿ يأيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعلْ فما بلّغتَ رسالتَه، والله يعصِمُك من الناس ﴾[1].

ويقول عزَّ من قائل:

﴿ سُنَّةَ الله في الذين خَلَوا من قبل، وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً. الذين يبلِّغون رسالاتِ الله ويَخْشَونه ولا يخْشَون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيباً ﴾[2].

وقد جاء في صحيح البخاري عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال يوم حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «هَلُمُّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده»، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم مَن يقول قرِّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم مَن يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «قوموا»[3].

وقد عاش رسول الله ﷺ بعدما طلب القرطاس ثلاثة أيام، ولم يعد إلى ما طلبه، ولم يصرّح بشيء في أمر الخلافة، ووصى في نفس ذلك اليوم وبعده بوصايا ولم يصرِّح فيها بشيء في أمر الخلافة.

وكان من وصاياه ﷺ: الصلاة، وما ملكت أيمانكم. يقول علي رضي الله عنه: أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم[4].

وكان منها: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقينَّ دينان على أرض العرب»[5].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ووفاته.

(٤) رواه البيهقي وأحمد.

(٥) رواه مالك في الموطأ (ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧١).

وتقول عائشة وابن عباس - رضي الله عنهم - لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك:

«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد» يُحذِّر ما صنعوا[١].

يقول الأُستاذ العقاد معلِّقاً على حديث القرطاس:

(أما القول بأن عمر هو الذي حال بين النبي عليه السلام والتوصية باختيار علي للخلافة بعده، فهو قول من السخف بحيث يسيء إلى كلِّ ذي شأن في هذه المسألة، ولا تقتصر مساءته على عمر، ومَن رأى في المسألة مثل رأيه.

فالنبي عليه السلام لم يَدْعُ بالكتاب الذي طلبه ليوصي بخلافة علي أو خلافة غيره، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال، أو إشارة كالإشارة التي فهم المسلمون منها إيثار أبي بكر بالتقديم، وهي إشارته إليه أن يصلِّي بالناس.

وقد عاش النبي بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه، ولم يكن بين علي وبين لقائه حائل، وكانت السيدة فاطمة زوج عليّ عنده إلى أن فاضت نفسه الشريفة، فلو شاء لدعا به، وعَهِد إليه.

وفضلاً عن هذا السكوت الذي لا إكراه فيه، نرجع إلى كل سابق من سنن النبي في تولية الولاة، فنرى أنه كان يجنب آله الولاية، ويمنع وراثة الأنبياء، وهذه السنّة مع هذا السكوت لا يدلّان على أن محمداً صلوات الله عليه أراد خلافة علي، فحِيل بينه وبين الجهر بما أراد)[٢].

وقد أجاد في «عبقرية علي» متحدِّثاً عن الوراثة في خلافة النبي ﷺ إذ قال:

---

(١) رواه البخاري «باب مرض النبي ﷺ ووفاته».

(٢) العبقريات الإسلامية ص ٦١٩، للأُستاذ عباس محمود العقاد (دار الفتوح، القاهرة).

(فلو أنها ـ الوراثة ـ كانت حُكماً من أحكام الله، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور، وأن يُختم القرآن وليس فيه نصٌّ صَريحٌ على خلافة أحد من آل البيت.

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين أو ضرورات القضاء، لنفذت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم، وحبطت كل خلافة تنازعها، كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية.

فلا النصوص الصريحة ولا دلالة الحوادث، ولا الإرادة الإلٓهية، مما يؤيد أقوال الغلاة في ترجيح الخلافة بالقرابة، أو حصر الخلافة في الأُسرة الهاشمية)[1].

مبايعة أبي بكر رضي الله عنه

وقف المسلمون في المدينة ـ وهم أهل الحَلّ والعَقد والنقض والإبرام، وفيهم المهاجرون والأنصار، وكل نتيجة يتوصلون إليها وأمر يُجمِعون عليه ينفذ في جزيرة العرب وفي المسلمين أينما كانوا ـ على مفترق الطرق: إما اتفاق الكلمة واجتماع الشمل وتفرُّغ لتمديد ظلّ الإسلام وبسط سلطانه على الأنام، بالاتفاق على بَيْعة رجل شهد له المسلمون بالتقدّم والفضل، وعلموا في ذلك موقف الرسول منه وشهادته له وتقديمه إياه في مواقف دقيقة حاسمة، وإما تنازع واختلاف وتمزُّق شمل وتوزُّع رأي يتهدد مستقبل الإسلام ويعوق شقَّه الطريق إلى الأمام، ويكون شأن الإسلام ـ لا قدَّر الله ـ شأن الديانات التي كانت ضحية الاختلاف والتنازع في الرئاسة والصراع في القيادة والخلافة.

* * *

وقد زاد الأمر تعقُّداً ودِقَّة حدوث هذا الحادث في المدينة التي كانت موطن قبيلتين عظيمتين من قحطان، وهم الأوس والخزرج، وهم الذين آوَوا رسول الله ﷺ والمسلمين، وبذلوا لهم أقصى ما يمكن من نصر ومؤازرة،

(١) العبقريات الإسلامية تأليف الأُستاذ عباس محمود العقاد ص ٩٣٦ طبع دار الفتوح، القاهرة.

وحب ومؤاخاة، وتضحية وإيثار، وهم الذين تبوّؤا الدار والإيمان من قَبْل[١]، (أي قبل المهاجرين) منذ قرون، وقد سكنوها وهم أهل البلد، فلم يكن غريباً ولا غير طبيعي أن يرَوا لهم حقاً في خلافة النبي المكّي المهاجر مع أصحابه وعشيرته ويرَون لهم أولوية، وكان ذلك بحكم الطبيعة ومنطق الأشياء[٢].

وقد فطن لهذه العقدة النفسية والمحنة التي واجهها الإسلام والمسلمون على أثر وفاة الرسول ﷺ: سيدنا عمر بن الخطاب، وقد تفطَّن بألمعيته التي امتاز بها في أقرانه وأصحابه، والتي شهدت بها عِدَّة مواقف له، وعرف أن الأمر لا يحتمل التأخير ولا ليوم، وأنه إذا أُفلت حبل الاتفاق والإبرام من يد هذه الجماعة التي توقَّف مستقبل الإسلام على اهتدائها إلى ما يجمع كلمة المسلمين ويحفظ حظيرة الدين، لم يعد إليهم أبداً، فاستعجل الأمر، وقد علم أن الأنصار يستشرفون إلى أن يكون منهم الخليفة، فهم الأنصار وأهل الدار، وكان يعلم أن العرب لا يخضعون لغير قريش بما لهم من ركائز وخلفيات دينية واجتماعية، فجمع المسلمين في سقيفة بني ساعدة حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، ويفارقَ رسول الله ﷺ - ولم يُدْفن بعد - هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة، وشملهم منتظم، وعليهم أمير يتولى أُمورهم، ومنها جهاز رسول الله ﷺ ودفنه، فقام ودعا إلى بيعة أبي بكر، وقال: (إن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه)، فبايع الناس أبا بكر رضي الله عنه.

ثم كانت البيعة العامة من غد، بعد بيعة السقيفة[٣] في المسجد

---

(١) يقول القرآن: ﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون مَن هاجر إليهم ﴾ سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) وكان الأمر كما قال أبو بكر: (إن هذا الأمر إن وليه الأوس نفسته عليهم الخزرج، وإن وليه الخزرج نفسته عليهم الأوس، ولا تدين العرب لغير هذا الحيّ من قريش، نحن الأُمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأُمور).

(٣) وذلك في ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة.

النبوي، وتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال:

(أما بعد: أيها الناس، فإني قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى يرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذُلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قطُّ إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[1].

ولم تكن مبايعة أبي بكر مصادفة من المصادفات التي قد يحالفها التوفيق، ومؤامرة من المؤامرات التي قد تُكلَّل بالنجاح، بل كان ذلك تقدير العزيز العليم، وشاهداً من شواهد لطف الله بهذا الدين الذي أراد إظهاره على كل دين[2]، وجَمْع كلمة المسلمين، ووافق ما اعتاده العرب من حرية الرأي، واختيار الأسنّ الأفضل والمجرِّب المحنَّك للرئاسة القبلية وقيادة الجيش، ودرجت على ذلك أجيالهم[3].

وقد أجاد الكاتب الإسلامي الشهير (في الإنجليزية) السيد أمير علي[4] RIGHT HONOURABLE JUSTICE - SYED AMIR ALI التعبير عن هذه الحقيقة التاريخية، إذ قال:

---

(١) البداية والنهاية، جـ ٥ ص ٢٤٨، قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿ هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودين الحق ليظهرَه على الدين كله ولو كـره المشركـون ﴾، (سورة الصف، آية: ٩).

(٣) يقول العقاد: (لم يكن علي على وفاة الرسول ﷺ قد جاوز ثلاثين إلا بسنوات قلائل، وهي عقبة من العقبات التي لا يسهل تذليلها في أمة ترعاها كالسنّ ومكانة الشيوخ) (العبقريات الإسلامية، للعقاد، ص ٣٤١).
والثابت المرجح أن علياً كان في الثالثة والثلاثين (٣٣) من عمره، وكان أبو بكر له إحدى وستون (٦١) سنة من العمر.

(٤) (١٨٤٩ ـ ١٩٢٨) كان سليل أسرة شيعية من السادات، وردت إلى الهند مع الملك نادر شاه الخراساني، كان من كبار الحقوقيين والمؤلفين في موضوع القانون الإسلامي، وكاتباً إسلامياً =

(العرب لا يتوارثون سيادة قبيلة ورئاستها بطريق الإرث، بل إن ذلك يتوقف على الانتخاب، وهم يلتزمون مبدأ حق الانتخاب ويعملون به، وكل فرد من أفراد القبيلة يتمتع بصوته لدى انتخاب رئيس القبيلة، ويتمُّ الانتخاب فيما بين أعقاب المتوفَّى الذكور على أساس السِنّ والتقدُّم، SENIORITY.

وقد التزم المسلمون هذه المادة القديمة عند انتخاب خليفة الرسول ﷺ، وبما أن حرج الموقف لم يكن يسمح بأي تأخير في انتخاب الخليفة، فقد تمَّ انتخاب أبي بكر (رضي الله عنه) كخليفة الرسول ﷺ من غير تأخير، نظراً إلى سنّه والمكانة التي كان يتمتع بها في مكة، والتي كانت تحسب لها العرب كل حساب.

لقد كان أبو بكر يتميز خصّيصاً بالحكمة والاعتدال، وأقرَّ علي رضي الله عنه بانتخابه خليفة لرسول الله ﷺ، وكذلك أهل بيت النبوّة بإخلاصهم المتوارث ووفائهم وولائهم للإسلام)[1].

وبذلك تفادى المسلمون من الحكم العشائري الوِراثي القائم على تقديس الدم والخضوع الزائد للشرف النسبي. ولو كان اختيار الخليفة في المرّة الأولى من بني هاشم ـ وهم أهلٌ لذلك ومظنَّة من غير ريب ـ لاجتمعت لبني هاشم الحكومة الزمنية مع الرئاسة الدينية الروحية، وكان كهنوت PRIESTHOOD في الإسلام، كما كان أكليروس CLERGY في المسيحيين، وكان له من النتائج الوخيمة والآثار السيئة في أتباع هذا الدين

= بالإنجليزية قديراً، وكان قاضياً في محكمة بنغال العليا، في عام ١٩٠٤ م، وتم اختياره كأول عضو هندي في اللجنة القانونية للمجلس الملكي البريطاني PRIVY COUNCIL. وله كتابان شهيران بالإنجليزية حازا القبول والشُهرة، A SHORT HISTORY OF THE SARACENS and SPIRIT OF ISLAM.

(١) A SHORT HISTORY OF THE SARACENS, P.21.

يقول ابن أبي الحديد (م ٦٥٥ هـ) شارح نهج البلاغة ـ وهو شيعي معتزلي ـ: (اتفق شيوخنا المتقدمون والمتأخرون، والبصريون والبغداديون، على أن بيعة أبي بكر الصدِّيق بيعة صحيحة شرعية، وأنها لم تكن عن نص، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع كونه طريقاً إلى الإمامة)، (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جـ ١ ص ٧).

وفي المجتمع الإسلامي ما لوحظ وشهد به المؤرِّخون الأُمناء للكهنوت المسيحي والمجوسي والبرهمي، من احتكارٍ للقيادة والتوجيه، واستبداد في الحكم والرأي، واستغلال اقتصادي، ونشأت أجيال في الإسلام على مدار التاريخ تدين بكونها فوق مستوى العامة بل فوق مستوى البشر، وتعيش على أموال الناس وما يرضخونه من نذور وهدايا وصدقات، وكان ذلك منافياً للحكمة التي حرَّم رسول الله ﷺ لأجلها قبول الزكاة لبني هاشم، فعن أبي هريرة أنه قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فِيْه، فقال النبي ﷺ: «كخ، كخ» ليطرحها، ثم قال: «أما شعرتَ أنّا لا نأكل الصدقة»[1].

وفي رواية طويلة عن عبد المطَّلب بن ربيعة بن الحارث قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد»[2].

وأعاذ الله الأُسرة الهاشمية وأبناء أهل البيت من أن يكونوا مصداق قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾[3]. ولم تخرج هاتان الرئاستان من بني هاشم إذا نالوهما بالإرث، ولذا قال بعض الصرحاء من قريش ولم يبالغوا: (إن وُلِّي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرها من قريش)[4].

الحكمة في تأخير خلافة سيدنا علي

كان للحركات الثورية والدعوات الإصلاحية ـ كما رأى المطّلعون على تاريخها ـ تجاربُ مريرة في بدايتها ونهايتها، فقد كانت تبتدىء بالدعوة إلى الإصلاح وإزالة المفاسد والضلالات، وتنتهي إلى تأسيس حكومة أو حصول على قوة سياسية وعسكرية في صالح أُسرة الداعي الأول والمنادي بالثورة أو

(١) الجامع الصحيح للبخاري، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ، كتاب الزكاة، والجامع الصحيح لمسلم باب «تحريم الزكاة على آل رسول الله»، وهم بنو هاشم وبنو المطّلب دون غيرهم، كتاب الزكاة باختلاف بعض الكلمات.

(٢) الجامع الصحيح لمسلم كتاب الزكاة باب «ترك استعمال آل النبي على الصدقة».

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٤) العبقريات الإسلامية، ص ٩٣٨.

الانقلاب، فكانت عند الأذكياء وبعيدي النظر حساسية زائدة وتشاؤم في ما يتصل بالدعوات والحركات الدينية.

وقد ظهر ذلك جلياً في حوار هرقل امبراطور المملكة البيزنطية الرومية مع أبي سفيان، الذي جرى معه في شأن النبي ﷺ الذي تلقّى هرقل رسالته التي يدعوه فيها - ﷺ - إلى الإسلام، وقد دلَّ حواره وما أحدث في نفسه من ردّ الفعل والانطباعات وتعليقه على ذلك، على دراسته الواسعة وذكائه، فقد سأل أبا سفيان في جملة ما سأله عنه: (فهل كان من آبائه مَلِكٌ؟) فلما قال أبو سفيان لا، قال: (سألتك هل كان من آبائه من مَلِك فذكرتَ أن لا، فقلت: فلو كان من آبائه مِنْ ملك قلتُ رجل يطلب ملك آبائه)[1].

وكان من تقدير العزيز العليم أنه لم يخلف رسولَ الله ﷺ في ولاية أمر المسلمين ولم يتولَّ خلافته على أثر وفاته أحدٌ من أهل بيته وأبناء الأُسرة الهاشمية مباشرة ومن غير تراخٍ، وخَلَفَه - ﷺ - أبو بكر وهو من بني تَيْم، وخَلَف أبا بكر عمر بن الخطاب وهو من بني عَدِيّ، وخَلَفه عثمان بن عفان وهو من بني أُميّة، ثم آل الأمر إلى علي بن أبي طالب حين لم يكن في المسلمين ولا في أصحاب رسول الله ﷺ أفضل منه، ولا أقدر على حمل أعباء الخلافة وأجدر بها، فزال الالتباس وانقطعت ألسنة الناس، فما بقيت القضيّة قضيّة أُسرية وقضية محسوبية وعصبية، إنما كانت القضية قضية جدارة واستحقاق، وكفاءة وقدرة، لا غبار عليها ولا مجال لطعن طاعن وقدح قادح، وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً.

المحنة الأولى لأبي بكر ومَوقِفُه الصَّارم فيها

وقد ثبت واتفق عليه المحدِّثون وأصحاب السيرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنّا معشر الأنبياء لا نُورث، ما تركنا صدقة»[2]، وروى الإمام أحمد بسنده

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري «باب كيف كان بدء الوحي».
وقد تفطن لهذه النكتة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه إذ قال: (إني والله ما أرى أن يجمع الله فينا - أهل البيت - النبوّة والخلافة) (سير أعلام النبلاء، للذهبي، جـ٣ ص ٢٧٨).

(٢) مسند أحمد بن حنبل جـ٢ ص ٤٦٣، وأخرجه النّسائي (فتح الباري جـ١٢ ص ٨).

عن أبي هريرة يبلغُ به أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومعونة عاملي فهو صدقة»، وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من طرق عن مالك بن أنس بسنده عن أبي هريرة بهذا اللفظ. وروى البخاري عن عروة عن عائشة أن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردنَ أن يبعثنَ عثمان إلى أبي بكر ليسألنه ميراثهنّ، فقالت عائشة: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»؟ وهكذا رواه مسلم.

وهو اللائق برسول الله ﷺ، المطابق لصنيعه طول حياته، فكان يقدِّم أهل بيته وبني هاشم لما فيه خطر ومجازفة، ويؤخرهم عن المغانم، كما فعل بحمزة وعلي وعُبيدة يوم بدر، فقدَّمهم لمبارزة كبار شجعان العرب وأبطالهم، وقد حرّم عليهم قبول الصدقات والزكاة التي كانت ولا تزال من أكبر الموارد في الأُمة الإسلامية، ومَعيناً لا ينفد وكنزاً لا يفنى، ولما أراد أن يحرّم الربا ويهدر دم الجاهلية القديمة بدأ بعمه العباس بن عبد المطلب، وابن أخٍ له من بني هاشم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطَّلب، فقال في خطبته في حجة الوداع:

«وربا الجاهلية موضوع، وأول رِباً أضع رِبانا، ربا العباس بن عبد المطلب، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث»[1].

وجاءت محنة دقيقة تمتحن صرامة أبي بكر، وقوة إصدار الحكم وما يعرفه ويدين به ـ وكلٌّ مكلَّفٌ بما يعلم ويراه صحيحاً ـ في قضية معقّدة، وهي مبدئية وشرعية وسياسية وعاطفية في وقت واحد، فرجَّح الجانب الشرعي المبدئي على الجانب العاطفي والسياسي، وكان دقيقاً كل الدقة في تطبيق ما عرفه من وصية رسول الله ﷺ وتعاليمه وصنيعه وسيرته.

وتفصيل القصة هو ما رواه البخاري بسنده عن عائشة، قالت:

(إن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر رضي الله عنه يلتمسان ميراثهما من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج، باب «حجة النبي ﷺ»، وأبو داود عن جابر بن عبد الله.

رسول الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فَدَك[1]، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نُورث، ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»، وفي رواية أنه قال: سمعت أن النبي لا يورث، ولكني أعول ما كان رسول الله ﷺ يعول، وأُنفق على مَن كان رسول الله ﷺ ينفق عليه)[2].

وفي صحيح البخاري عن عائشة: أن فاطمة بنت النبي ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ ممّا أفاء الله عليه بالمدينة وفَدَك، وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»، وإني والله لا أُغيِّر شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملنَّ فيها بما عمل به رسول الله ﷺ[3].

قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته.

وظل أبو بكر على ما اعتقده ودان به، وعزم على تنفيذ وصية رسول الله ﷺ، وظلت السيدة فاطمة عليها السلام على مطالبتها، وهي إمّا لم يبلغها ما عرفه الصدِّيق، وإما رأت متّسعاً أو مبرراً لخليفة رسول الله ﷺ لتحقيق ماأرادته وإجابة ما طلبته، وكلٌّ مجتهد في ذلك وله العذر والصواب.

وقد جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل أن السيدة فاطمة قالت: فأنت وما سمعت من رسول الله ﷺ أعلم[4].

وعاشت فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ ستة أشهر، وهي واجدة على ذلك مهاجرة لأبي بكر حتى توفيت.

---

(١) فَدَك بالتحريك وآخره كاف، قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله تعالى على رسوله عليه السلام صلحاً، فيها عين فوّارة ونخل، (مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، دار المعرفة، بيروت ١٩٥٤ م.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، جـ ١ ص ١٠.

(٣) حديث طويل رواه البخاري في باب غزوة خيبر. (٤) المسند، جـ ١ ص ٤.

ويقع مثل هذا كثيراً في حياة العشائر والجماعات، ومما تقتضيه الطبيعة البشرية، وما جُبِلت عليه من العاطفية والحساسية والاقتناع بمـا عرفه الإنسان ودان به، ولكن لم يكن اختلافها في هذا الأمر مَوْجِدتها على أبي بكر رضي الله عنه متخطية للحدود الشرعية، مخالفة لما جُبِلت عليه من كرم النفس وعلو النظر والسماحة، فقد روي عن عامر أنه قال: جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى فاطمة وقد اشتدَّ مرضها فاستأذن عليها، فقال لها علي: هذا أبو بكر على الباب يستأذن، فإن شئت أن تأذني له؟ قالت: أو ذاك أحبّ إليك؟ قال: نعم، فدخل فاعتذر إليها وكلّمها فرضيت عنه[١].

ونختم هذا البحث بما قاله الأُستاذ العقاد في «العبقريات الإسلامية»، يقول:

(ليس من العقل أن يقدح قادح في ولاء الصديق للنبي بما حرم فاطمة رضي الله عنها من ميراث أبيها، فلئن حرمها لقد حرم عائشة مثلها، لأن الأنبياء في شرعة محمد لا يورثون. وما أراد أبو بكر أن يضنَّ بميراث محمد على وارثيه، ومنهم ابنته وأحبّ الناس إليه، ولكنه أراد أن يضنَّ بدينه ويضنَّ بوصاياه، وهي أولى أن تصان من المال والبنين)[٢].

ويقــول:

(في مسألة الميراث ما كان له أن يبرم فيها غير ما أبرم، وقد علم أن النبي لا يورَث كما قال عليه السلام، وكان حكم عائشة في هذا كحكم فاطمة رضي الله عنها، وقد حضرته الوفاة وهو يوصي عائشة أن تنزل للمسلمين عمّا وهب لها من ماله، وأنه تَحِلُّ لها بالهبة والميراث)[٣].

ومن الثابت تاريخياً أن أبا بكر دام أيام خلافته يعطي أهل البيت حقّهم في فيىء رسول الله ﷺ في المدينة، ومن أموال فَدَك وخمس خيبر، إلّا أنه

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة للمُحبّ الطَّبَري ص ١٧٦، (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م).

(٢) العبقريات الإسلامية ص ٤٤٦.

(٣) المرجع السابق ص ٤٤٨.

لم ينفّذ فيها أحكام الميراث، عملاً بما سمعه من رسول الله ﷺ، وقد روي عن سيدنا محمد بن علي بن الحسين المشهور بمحمد الباقر وعن زيد بن علي الشهيد أنهما قالا: (إنه لم يكن من أبي بكر - فيما يختص بآبائهم - شيء من الجَوْر أو الشطط، أو ما يشكونه من الحَيْف أو الظلم) - كما جاء ما معناه في شرح «نهج البلاغة» لابن أبي الحديد -[1].

فاطمة الزهراء رضي الله عنها

ويأبى القلم أن يتقدم خطوة قبل أن يسطّر سطوراً عن سيدة نساء أهل الجنة وبَضْعة الرسول ﷺ.

هي فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله على أبيها وعلى آله وسلَّم ورضي عنها، كانت أصغر بنات النبي ﷺ وأحبَّهنَّ إليه، روى الواقدي من طريق أبي جعفر الباقر قال: قال العباس: ولدت فاطمة والكعبة تُبنى والنبي ﷺ ابن خمس وثلاثين سنة، وبهذا جزم المدايني، ونُقل أن مولدها قبل البعثة بقليل نحو سنة أو أكثر، وتزوجها عليٌّ أوائل المحرم سنة اثنتين للهجرة[2]، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا من فاطمة، تزوج علي فاطمة ولها يومئذ ثماني عشرة سنة، قالت عائشة: ما رأيت قطُّ أحداً أفضل من فاطمة غير أبيها، أخرجه الطبراني.

وقال عبد الرحمن بن أبي نُعيم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: (سيدة نساء أهل الجنة فاطمة إلاّ ما كان من مريم بنت عمران)، وفي الصحيحين عن المِسْوَر بن مَخْرَمة سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «فاطمة بَضْعة منّي، يؤذيني ما آذاها، ويريبني ما رابها». وعن عائشة: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيَها مشيُ رسول الله ﷺ. وقال الواقدي: توفيت فاطمة ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة[3].

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١١٣.

(٢) وهو الصحيح كما سبق في الباب الثاني نقلاً من كلام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الهامش، وبدليل ولادة الحسن - رضي الله عنه - في السنة الثالثة من الهجرة.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، جـ ٤ ص ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٠.

قال أبو عمر: ولدت الحسن، والحسين، وأُم كلثوم، وزينب، ولم يتزوج علي عليها غيرها حتى ماتت. وعن عقبة بن يريم عن أبي ثعلبة الخُشَني قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَدِمَ من غَزْو أو سفر بدأ بالمسجد، فصلَّى فيه ركعتين، ثم يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه. وعن عائشة بنت طلحة عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: (ما رأيت أحداً كان أشبهَ كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة)[1].

وكانت رضي الله عنها شديدة الحرص على ما يُرضي رسول الله ﷺ، شديدة الإيثار لما يسرّه ويرغب فيه على ما تقتضيه الأُمومة الحنون، وحبّ الأبناء الطبيعي، نذكر من ذلك القليل من الكثير:

١ ـ عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا خرج كان آخر عهده بفاطمة عليها السلام، فإذا رجع كان أول عهده بفاطمة عليها السلام، فلما رجع من غزوة تبوك وقد اشترت مُقَينعة[2] فصبغتها بزعفران، وألقت على بابها ستراً، أو ألقت في بيتها بساطاً، فلما رأى ذلك النبي ﷺ رجع فأتى المسجد فقعد فيه، فأرسلت إلى بلال، فقالت: اذهب فانظر ما ردَّه عن بابي؟ فأتاه فأخبره، فقال: إني رأيتها صنعت كذا وكذا، فأتاها فأخبرها، فهتكت الستر وكل شيء أحدثته، وألقَتْ ما عليها، ولبست أطمارها، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فجاء حتى دخل عليها، فقال: كذلك كوني فداك أبي وأُمي[3].

٢ ـ عن ابن عمر: أن النبي ﷺ جاء إلى منزل فاطمة عليها السلام فرجع ولم يدخل، وجاء عليٌّ عليه السلام، فذكرت ذلك له، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: إني رأيت على بابها ستراً، ومالي وللدنيا، قال: وكان

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البرّ القرطبي، جـ ٤ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٧.

(٢) تصغير «مقنعة» وهي شبيهة بالملحفة التي تغطي بها المرأة رأسها (تاج العروس مادة «قنع»).

(٣) (تَركَة النبي ﷺ والسُبل التي وجهها فيها) للإمام حماد بن إسحاق بن إسماعيل (١٩٩ ـ ٢٦٧ هـ) تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري (مطبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م) ص ٥٦، ورواه البخاري في صحيحه، وأبو داود في السنن، وساقه ابن شاهين من طريق القلوسي.

الستر موشّياً، قال: فذكر ذلك علي لفاطمة عليها السلام، فقالت: يأمرني بما أحب، فذكر ذلك عليّ لرسول الله ﷺ، فقال: ابعثوا به إلى آل فلان، فإن بهم إليه حاجة[1].

٣ ـ عن ثَوْبان مولى رسول الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده من أهله بفاطمة عليها السلام، وأول مَن يدخل عليها إذا قَدِمَ، فقَدِمَ من غَزَاة، وقد علَّقت مِسْحاً أو ستراً على بابها، وحلَّت الحسن والحسين عليهما السلام قلبين[2] من فضة، فقبض ولم يدخل، فظنت أنما منعه أن يدخل ما رأى، فهتكت الستر، وفككت القلبين عن الصبيين، فبكيا وقطعته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان، فأخذهما منهما فقال: «يا ثوبان اذهب بهذا إلى فلان أو إلى أبي فلان ـ قال: أهل بيت بالمدينة ـ. إن هؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، يا ثوبان اشترِ لفاطمة قلادة من عصب، وسوارين من عاج»[3].

وقد تجلَّى حبها لأبيها ونبيِّها ونبي العالم ﷺ في جملتها البليغة المؤثرة، التي لا توازيها قصيدة رثائية بليغة مرقَّقة، فقد قالت حين دفن النبي ﷺ: (يا أنس، أطابتْ أنفسكم أن تَحْثُوا على رسول الله ﷺ التراب؟!)[4].

توفيت فاطمة رضي الله عنها بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر على الأشهر، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه عَهِدَ إليها أنها أول أهله لحوقاً به، وقال لها مع ذلك: «أما تَرْضَين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة»[5]، ودفنت ليلاً، وذلك ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خَلَون من رمضان سنة إحدى عشرة، وولدت لعلي: حسناً، وحسيناً، ومُحْسناً، وأُم كلثوم، رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) تركة النبي ﷺ، ص ٥٧، وأخرجه أحمد من طريق فضيل بن غزوان.

(٢) القلب: السوار، كما في لسان العرب لابن منظور.

(٣) تركة النبي ﷺ، ص ٥٧ ـ ٥٨، وأخرجه أبو داود في السنن، وأحمد في المسند، وابن ماجه في التفسير.

(٤) صحيح البخاري: باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٥) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٣٢.

مبايعة سيدنا علي رضي الله عنه

واختلفت الأخبار في مبايعة علي متى كانت؟ فقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده عن أبي سعيد الخدري، أن أبا بكر صعد المنبر، فنظر في وجوه القوم فلم يرَ علياً، فدعا بعلي بن أبي طالب، فجاء، فقال: يا ابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنه على ابنته، أردتَ أن تشقَّ عصا المسلمين؟ قال: لا تَثْرِيبَ يا خليفة رسول الله، فبايعه، هذا أو معناه[1].

قال ابن كثير: وفيه فائدة جليلة، وهي مبايعة علي بن أبي طالب، إما في أول يوم، أو في اليوم الثاني من الوفاة، وهذا حقٌّ، فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصدّيق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه[2].

والمشهور أن علياً عليه السلام رأى أن يراعي خاطر فاطمة رضي الله عنها بعض الشيء، فلم يبايع أبا بكر، فلما ماتت رضي الله عنها بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ، بايعه على ملأ من الناس، ويرى ابن كثير وكثير من أهل العلم أن ذلك كان تجديداً للبيعة الأولى، وجاءت في ذلك بعض روايات في الصحيحين وغيرهما[3].

محنة لعليٍّ وثباته فيها

وجاءت محنة تمتحن نُصْح علي للإسلام والمسلمين، وإخلاصه في بَيْعة أبي بكر، وتجرّده من الأنانية والعصبية القبلية الجاهلية، فأخرج ابن عساكر عن سُوَيد بن غَفَلة قال: دخل أبو سفيان على علي والعباس رضي الله عنهم، فقال: يا علي وأنا يا عباس، ما بال هذا الأمر في أذلّ قبيلة من قريش وأقلّها؟ والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فقال له عليّ: لا والله ما أُريد أن تملأها عليه خيلاً ورجالاً، ولولا أن رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خلّيناه وإياه،

(١) البداية والنهاية جـ ٥ ص ٢٤٩ مختصراً.
(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٤٩.
(٣) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٤٦.

يا أبا سفيان، إن المؤمنين قوم نَصَحة، بعضهم لبعض متوادّون، وإن بعدت ديارهم وأبدانهم، وإن المنافقين قوم غَشَشَة بعضهم لبعض[1].

وجاء في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، قال:

(لما طلب أبو سفيان من علي أن يسمح له بالبَيْعة له، قال علي: إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه، وقد عهد إليَّ رسول الله ﷺ عهداً فأنا عليه، فتركه أبو سفيان وعدل إلى العباس بن عبد المطلب في منزله، فقال: يا أبا الفَضْل أنت أحقّ بميراث ابن أخيك، امدد يدك لأُبايعك، فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتي إياك، فضحك العباس وقال: يا أبا سفيان يدفعها عليٌّ ويطلبها العباس؟ فرجع أبو سفيان خائباً)[2].

وفيه أيضاً: لما قال الفضل بن عباس: يا بني تَيْم إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوّة ونحن أهلها دونكم، وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعراً، قال الزبير: فبعث إليه عليٌّ فنهاه وأمره أن لا يعود، وقال: سلامة الدين أحبّ إلينا من غيره[3].

إخلاص سيدنا عليّ لأبي بكر وتعاونه معه

وظلَّ عليٌّ رضي الله عنه ـ وهو ما يتوقع ويؤكد به من شيمته وكرم معدنه وإخلاصه ـ متعاوناً مع أبي بكر في خلافته، عَيْبَةَ نصح له، مرجِّحاً لما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين على أيّ شيء آخر.

ومن الدلائل الساطعة على إخلاصه لأبي بكر ونصحه للإسلام والمسلمين وحرصه على الاحتفاظ ببقاء الخلافة واجتماع شمل المسلمين، ما جاء من موقفه من توجُّه أبي بكر رضي الله عنه بنفسه إلى ذي القصَّة[4]،

(١) كنز العمال جـ٣ ص ١٤١.
(٢) ابن أبي الحديد جـ٦ ص ١٨.
(٣) المرجع السابق جـ٦ ص ٢١.
(٤) وهي من المدينة على مرحلة.

وعزمه على محاربة المرتدّين، وقيادته للتحرُّكات العسكرية ضدّهم بنفسه، وما كان في ذلك من مخاطرة وخطر على الوجود الإسلامي.

روى ابن كثير قال: قد روى الدارقطني عن سعيد بن المسيّب عن ابن عمر قال: لما برز أبو بكر إلى ذي القصّة، واستوى على راحلته أخذ عليّ بن أبي طالب بزمامها، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أُحُد: «لمّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فُجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً» فرجع، وقد رواه زكريا الساجي والزهري عن عائشة[1].

فلو كان عليٌّ رضي الله عنه ـ أعاذه الله من ذلك ـ لم ينشرح صدره لأبي بكر وقد بايعه على رغم نفسه منه، فقد كانت هذه فرصة ذهبية ينتهزها عليّ فيترك أبا بكر وشأنه، لعلّه يحدث به حَدَث فيستريح منه ويصفو الجو له، وإذا كان فوق ذلك ـ حاشاه عنه ـ من كراهته له وحرصه على التخلّص منه، أغرى به أحداً يغتاله، كما يفعله الرجال السياسيون بمنافسيهم وأعدائهم.

وبصرف النظر عن تعاون سيدنا عليّ مع خليفة رسول الله ووليّ أمر المسلمين، في مصلحة الإسلام والمسلمين وفي الأمور الإدارية، كانا متوادَّيْن متحابَّيْن كأعضاء أسرة واحدة يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿ رحماء بينهم ﴾، مشاركين في السرّاء والضرّاء، والشدة والرخاء. يلقي على ذلك بعض الضوء ما يحكيه أحد كبار أعضاء الأسرة الهاشمية العلوية، سيدنا محمد ابن علي بن الحسين المشهور بمحمد الباقر، فقد روى عنه كثير النوّاء أنه قال:

(أخذت أبا بكر الخاصرة فجعل عليّ كرّم الله وجهه يسخن يده (بالنار) فيكوي بها خاصرة أبي بكر رضي الله عنه)[2].

وصدق الله العظيم:

---

(١) البداية والنهاية جـ٦ ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) الرياض النضرة: للمحبّ الطبري، ج ١، الدرّ المنثور للسيوطي جـ ٤ ص ١٠١.

﴿ محمـدٌ رسولُ الله، والـذين معه، أشـدّاءُ على الكفار، رُحَمـاءُ بينهم ﴾[1].

صلة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه بأهل البيت الوُدّية والتقديرية

وقد كانت صلة سيدنا أبي بكر الصدِّيق خليفة المسلمين بأعضاء أهل بيت الرسول ﷺ ومع السّيدين: الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ، صلة ودّية تقديرية تليق به وبهم.

روى البخاري عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: صلَّى أبو بكر العصر ثم خرج يمشي، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه وقال: بأبي، شبيه بالنبي لا شبيه بعلي. وعليٌّ يضحك[2].

وقد كانت هذه المودّة والثقة متبادلتين بين أبي بكر وعلي، فقد سمَّى عليٌّ أحد أولاده بأبي بكر[3].

وقد احتضن سيدنا عليٌّ ابنَ أبي بكر محمداً، وكفله بالرعاية[4] ورشَّحه للولاية، حتى حُسِب عليه، وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله.

نظرة في حياة الصدِّيق رضي الله عنه كخليفة

وقبل أن نختم هذا الفصل بوفاة أبي بكر رضي الله عنه وبما قاله فيه سيدنا علي رضي الله عنه وكرّم الله وجهه، نلقي نظرة في خلافته، وبما كان يمتاز به من زهد وتقشُّف ـ فضلاً عن سذاجة وبساطة ـ وبترسُّم خُطا الرسول ﷺ وأثره في هذه الدنيا ونعيمها.

يقول الدكتور فيليب حِتِّي DR. PHILIP HITTI في كتابه الشهير «مختصر تاريخ العرب» A SHORT HISTORY OF THE ARABS:

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ.

(٣) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٣٢.

(٤) تاريخ الخميس للشيخ حسين الديار بكري جـ ٢ ص ٢٦، (مطبعة عثمان عبد الرزاق، الطبعة الأولى ١٣٠٢ هـ).

(عاش أبو بكر، قاهر المرتدّين وموحِّد الجزيرة تحت راية الإسلام، حياة ساذجة بسيطة، ملؤها الوقار، وفي الستة الأشهر الأولى من خلافته القصيرة، كان يغدو كل يوم من السُّنْح حيث قطن وزوجته حبيبة في بيت وضيع إلى عاصمة المدينة، ولم يكن يتقاضى راتباً لأنه لم يكن للدولة إذ ذاك دَخْل يستحق الذكر، وكان يدير جميع شؤون الدولة في صحن المسجد النبوي)[1].

ويقول سر وليم ميور SIR WILLIAM MUIR الذي عُرِفَ بالتَّحامُل على الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه «وقائع الخلافة الأولى»:

(لقد كانت سذاجة مجلس أبي بكر مثلها في حياة محمد ﷺ، لم يكن عنده خدم ولا حرس، ولا مؤشرات تشير إلى أُبّهة الحكم والخلافة، كان متعوِّداً على بذل مجهودات واسعة في شؤون الخلافة، وهناك أحداث كثيرة تدلُّ على تعمقه في جزئيات الأُمور ودقائقها، كان يتجول الليالي للعثور على المظلومين والفقراء، وكان أرفع من أيّ محاباة أو دافع انتقام في تعيين العمال وكبار الحكام في الخلافة، وكان يتجلّى التدبُّر العميق في تصرفاته وأحكامه)[2].

جمع القرآن

ومن مآثر سيدنا أبي بكر الباقية، وممَّا أجرى الله على يديه من الخير في بقاء الإسلام على أصله، كما كان في حروب الردّة، هو تجرُّده لجمع القرآن وكتابته بجميع عزمه بعدما مات عدد كبير من حُفَّاظ القرآن في حروب الردّة[3].

وخيف على مَن بقي منهم أن تأتي عليهم حروب فارس والروم، فما

(١) العرب تاريخ موجز للدكتور فيليب حتّي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٦ م، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) ANNALS OF THE EARLY CALIPHATE, P. 123.

(٣) قد استشهد في غزوة أهل اليمامة سبعون قارئاً من الصحابة، ورُوي أكثر من ذلك، فهال ذلك عمر بن الخطاب، فأشار على أبي بكر بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع، فإن القتل قد استحرَّ (اشتد) يوم اليمامة بالقرّاء، ويخاف أن يستحرّ في ما بعدها من غزوات، وكبر على أبي بكر أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ، ثم شرح الله صدر أبي بكر لذلك.

انقضت خلافته ـ على القول الأشهر ـ إلاّ والقرآن مجموع مفروغ من كتابته في المصاحف كما نقرؤه الآن.

ثناء علي على أبي بكر بعد وفاته

ونختم هذا الفصل بكلمة سيدنا علي وما أبداه من انطباعات، وتفجّع على وفاة أبي بكر(١).

يروى أنه لما توفي أبو بكر رضي الله عنه استرجع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجاء مسرعاً باكياً، وقال:

(رحمك الله أبا بكر، كنت ـ والله ـ أول القوم إسلاماً، وأكملهم إيماناً، وأشدّهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأحوطهم على رسول الله ﷺ، وأشبههم به هدياً وخُلُقاً وسَمْتاً وفضلاً، وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده، فجزاك الله عن الإسلام خيراً.

صدّقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس، فسمّاك الله تعالى في كتابه صدِّيقاً، فقال: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدَّق به، أولئك هم المتقون ﴾ وآسيتَه حين تخلّفوا، وقُمتَ معه حين قعدوا، وصحبته في الشدة حين تفرقوا، أكرم الصحبة ثاني اثنين، وصاحبه في الغار، ورفيقه في الهجرة، والمنزّل عليه السكينة.

وخَلَفتَه في أُمته بأحسن الخلافة، فقويت حين ضعف أصحابك، وبرزت حين استكانوا، وقمت بالأمر حين فشلوا، ومضيت بقوة إذ وقفوا، كنت أطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً، وأشجعهم قلباً، وأحسنهم عملاً، كنت كما قال رسول الله ﷺ، ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر ربك، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، محبوباً إلى السماوات والأرض، فجزاك الله عنّا وعن الإسلام خيراً)(٢).

---

(١) وقد روى المحب الطبري في كتابه «الرياض النضرة» خطبة طويلة على أثر وفاة أبي بكر، وقد يشك القارىء في ضبطها وروايتها بنصّها لطولها وارتجالها، ونكتفي بما جاء في كتاب «الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة» لمحمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني الشهير بالبرّي.

(٢) الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، جـ ٢ ص ١٢٦.



الفصل الرابع

سيدنا علي عليه السلام

في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنهما

استخلاف أبي بكر لعمر وأثره وعائدته في المرحلة الانتقالية الدقيقة للأمة الإسلامية العربية ـ احتفاظه بتقشف العرب الفاتحين وما يمتازون به من فروسية وبساطة ـ اتساع الدولة الإسلامية في عهد عمر ـ تعاون علي مع عمر رضي الله عنهما ـ دليل ساطع على إخلاص علي لعمر ولمصلحة الإسلام والمسلمين ـ رحلة سيدنا عمر إلى بيت المقدس ـ موقف سيدنا عمر من آل بيت الرسول ﷺ ـ مبدأ التقويم الإسلامي الهجري وصاحب الفضل في تقريره ـ شهادة سيدنا عمر رضي الله عنه ـ تفجُّع علي على عمر وإشادته به .



الفصل الرابع

سيدنا علي

في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنهما

استخلاف أبي بكر لعمر، وأثره وعائدته في المرحلة الانتقالية الدقيقة للأُمة الإسلامية العربية

مات أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه[1]، لما يعرفه من صرامته وقوته على الاضطلاع بمهمات الخلافة ومسؤولياتها، في فترة تاريخية من أهم فترات التاريخ دقة وتعقداً وتأثيراً في مصير الدين الجديد والأُمة الوليدة، في فجر الفتوح العظيمة التي عرفها تاريخ أُمة من الأُمم وديانة من الديانات.

وقد بدأت طلائع خضوع الامبراطوريتين الكُبرتَيْن ـ الرومية البيزنطية والفارسية الساسانية ـ للحُكم الإسلامي، وتدفّق ثرواتهما وكنوزهما وأسباب رخاء مجتمعيهما الباذخين المتطرّفين، إلى أُمة كانت تعيش حياة صحراوية منذ قرون، حياة بيوت الوبر والمَدَر، لا عهد لها بأسباب المدنية والترف والأناقة والتطرف، حتى لما رأوا الكافور في العراق حسبوه مِلْحاً، وربما استعمله بعضهم في العجين[2].

وقد بدا ما ستواجهه هذه الأُمة الفاتحة من مشكلة الجمع بين الحياة الدينية المثالية، والفروسية العربية، والتمسّك بالمُثُل والقيم التي جاء بها

(١) وكان سيدنا عمر له من العمر اثنتان وخمسون وستة أشهر، وسيدنا علي بن أبي طالب في الخامسة والثلاثين من عمره.

(٢) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٦٧.

الإسلام وطبَّقها الرسول ﷺ، وبين إدارة هذه البلاد المفتوحة الواسعة، وقيادة الشعوب المتمدنة التي بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والثقافة.

في ضوء كل ذلك كان اختيار عمر اختياراً مُوفَّقاً ملهماً لا يأتي إلا عن توفيق الله تعالى ولطفه بهذا الدين، وقضائه بإظهاره على الدين كله، وغزوه للعالم الواسع والمجتمعات المريضة المتداعية، والمملكات التي ملكت زمام البشرية وتحكمت في مصائرها واتجاهاتها وميولها، وكان عمر هو الكفؤ الجدير، القوي الأمين في تحقيق غايات الإسلام ومهمَّات الخلافة النبوية الراشدة التي لم يسبق لها مثيل.

وكانت لسيدنا عمر هيمنة على النفوس والقلوب، ومهابة تكبح من جماح النفوس وتضبط من نزواتها، وأصحُّ دليل على ذلك عزله لسيّدنا خالد بن الوليد ـ الذي لقَّبه النبيّ ﷺ بسيف الله ـ في أوج شهرته، وقد اقترنت به تجارب الانتصار في كل حرب، وأحاطت به هالات الإكبار والإعجاب، وقد أنفذ أمر عزله يوم كان الناس في أشدّ الحاجة إليه، ووصل أمر العزل والناس مصافُّون جيوش الروم يوم اليرموك، وأمَّر على الجيوش أبا عبيدة، فقال خالد: سمعاً وطاعةً لأمير المؤمنين[1].

ولما نَبَّه أحد الجنود على وقوع الفتنة بهذا التغيير، قال خالد: (لا مجال لفتنة ما دام عمر)[2].

وهذا إن دلَّ على خضوع خالد لأمر الخليفة ـ وهو القائد المنصور

---

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص ١٨ ـ ١٩. وذكر ابن إسحاق مجيء الإمارة لأبي عبيدة في حِصار دمشق، وأيّهما كان فلا شك أنه موقف حرج.

(٢) راجع كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ص ٨٧، وتاريخ الطبري ص ٢٥٢. ويجوز أن يكون عزل خالد لبعض تصرّفاته التي لم يرتضها عمر، ولكلّ مستوىً واجتهاد، وقد روي أن عمر كتب بعد ذلك إلى الأمصار: (إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فُتنوا به، فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة ـ أي عرضة لها ـ). (تاريخ الطبري ص ٢٥٢٨). ويقرأ التحليل التفصيلي لعزل خالد في كتاب «خالد بن الوليد» للأستاذ صادق عرجون، (الدار السعودية، الطبعة الثالثة، ١٩٨١ م).

المُحبَّب ـ وتنازله عن القيادة في تواضع وإيثار قلّما يوجد له نظير في تاريخ القيادات العسكرية والإمارات الحربية، يدل على سطوة سيدنا عمر وتملّكه لزمام الأمور.

وكذلك ما وقع لابن سيدنا عمروبن العاص فاتح مصر وواليها، وقد أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل مرة، فأقبلت فرس مصري، فقام محمد بن عمرو بن العاص، وقال: فرسي ورب الكعبة، وقال المصري: فرسي ورب الكعبة، فقام إليه محمد يضربه بالسوط، ويقول: خُذها وأنا ابن الأكرمين، وشكا ذلك المصري إلى عمر، فكتب عمر إلى عمرو يستدعيه وابنه محمداً، فلما حضرا قال للمصري: دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين، وقال: (يا عمرو، متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً)[1]؟

احتفاظه بتقشُّف العرب الفاتحين وما يمتازون به من فروسية وبساطة

وكانت الأُمة الإسلامية العربية تمرُّ بمرحلة انتقالية من أدقّ المراحل الانتقالية التي تمرّ بها الأُمم في تاريخها الطويل، فكان المسلمون يخرجون من صحراء العرب المجدبة وحياة الخيام ورعي الإبل وأكل لحومها، إلى مدنيتين قد وصلتا إلى قمة البذخ والأناقة والتطرّف، فكان العرب يواجهون كل هذا من غير تجربة سابقة، فكان من الطبيعي أن يخضعوا لها بعض الخضوع، ويقتبسوا منها التوسّع في المعيشة والتأنّق في المظاهر والشعارات.

ولكن عمر كان لهم المثال والنموذج في البساطة والتقشّف، وكانت له حِسبة دقيقة وعين ساهرة على ما يقع من التغيّر في حياتهم، وهم في فيضان من الفتوح والغنائم، فكان يحاسبهم على ذلك محاسبة دقيقة.

جاء في كتاب «البداية والنهاية» في حكاية رحلته إلى بيت المقدس:

كان من تلقَّاه في بيت المقدس من الصحابة عليهم يَلامِقُ[2] الديباج،

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٨٦، (المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٣١ هـ).
(٢) اليَلْمَق: القباء.

فسار إليهم عمر ليحصبهم، فاعتذروا إليه بأنَّ عليهم السلاح، وأنهم يحتاجون إليه في حروبهم فسكت عنهم[1].

وعن طارق بن شهاب قال:

لما قَدِمَ عمر الشام عرضتْ له مَخاضة، فنزل عن بعيره ونزع مُوقَيْه[2] فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعتَ اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكَّ في صدره، وقال: (أوَ لَو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقلّ الناس، فأعزّكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العِزّ بغيره يذلّكم الله)[3].

وقد كتب إلى بعض عمّاله العرب وهم في بلاد العجم: (إيّاكم والتنعُّم وزيّ العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمّام العرب، وتَمَعْدَدوا[4] واخشوشنوا[5] واخشوشبوا[6] واخلولقوا[7]، وأعطوا الركب أسنتها، وانزُوا نَزْواً، وارموا الأغراض)[8].

وممّا أثر عنه أنه قال ـ وهو يدل دلالة واضحة على سياسته الصارمة الحكيمة وحسبته الخلقية الدقيقة ـ:

(إن الإسلام قد بزل[9]، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة، ألا فأما وابن الخطاب حيٌّ فلا، إني قائم دون شِعب الحرَّة، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار).

---

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٥٦.
(٢) الموق: خفّ غليظ يلبس فوق خفّ أدقّ منه، جمعه أمواق.
(٣) ابن كثير جـ ٧ ص ٦٠.
(٤) تمعدد الغلام: شبّ وغلظ، وقيل معناه تشبهوا بعيش معدٍّ بن عدنان، وكان ذا غلظ وتقشف.
(٥) تخشنوا في المطعم والملبس.
(٦) اخشوشب: صار صلباً كالخشب في أحواله وصبره على الجهد.
(٧) تبذّلوا في الملابس.
(٨) رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي.
(٩) بزل: طلع نابه بدخوله في السنة التاسعة.

وكان من حكمته السياسية، ومعرفته الدقيقة لطبائع الناس ونفسيتهم، أنه حصر كبار الصحابة في المدينة، وقال: (أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد). وكان يعتقد أنه إذا كان التساهل في هذا الشأن نجمت الفتنة في البلاد المفتوحة والتفّ الناس حول الشخصيات المرموقة، وثارت حولها الشبهات، وكثرت القيادات والرايات، وكان ذلك من أسباب الفوضى.

وقد أجاد الكاتب الشيعي الحقوقي الكبير السيد أمير علي ـ أقدر كاتب عن الإسلام في اللغة الإنجليزية ـ إذ قال وهو يتحدث عن عمر رضي الله عنه:

(لقد انقضى عهد خلافة أبي بكر رضي الله عنه القصير في السعي لاستتباب الأمن بين القبائل الصحراوية، ولم تسنح له فرصة لتنظيم جديد لشؤون الولاية الإسلامية.

ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان رجلاً عظيماً حقاً، لما تولى الخلافة تتابعت مجهوداته الضخمة حينذاك في منح السعادة للشعوب المفتوحة، الأمر الذي يعتبر الميزة الخاصة للدول الإسلامية البدائية)[1].

ويقول في مناسبة أخرى عن عمر رضي الله تعالى عنه:

(كانت خلافة عمر رضي الله عنه ذات قيمة عظيمة وغناء كبير للإسلام، وإنه كان من الناحية الخلقية رجلاً ذا سيرة وطبيعة قويتين، أما في شأن العدل فكان ذا مبدأ صلب وشعور مرهف، يمتاز بنضج السيرة وقوة العمل)[2].

(إنه كان شديداً ولكن عادلاً، بعيد النظر، واسع الاختبار بطبيعة العرب وسيرتهم، وكان أجدر رجل لقيادة أمة تعوّدت حياة الفوضى، وقد استطاع بما كان يملكه من قدرة على عقاب المجرمين والمنحرفين، التغلّب على الميول الطبيعية التي تميّزت بها القبائل المتنقّلة وأفرادها العائشون في شبه الوحشية،

---

(١) THE SPIRIT OF ISLAM, op cit p. 278.

(٢) A SHORT HISTORY OF THE SARACENS, op cit p. 27.

وحماهم من التدهور الخلقي حينما كانوا يواجهون أسباب الترف والبذخ في المدن الراقية، ووسائل التنعّم والثراء في الدول المفتوحة، إنه كان في متناول يد أدنى فرد من أفراد رعيته، كان يتجول في جوف الليالي لتفقّد أحوال الناس من غير حارس وشرطي، هكذا كان يعيش أقوى حاكم في عهده)[١].

ويقول سر وليم ميور Sir William Muir:

(لقد كان عمر أعظم رجل بعد رسول الله - ﷺ - في المملكة الإسلامية، فكان من ثمار ذكائه واستقامته أن خضعت في خلال هذه السنوات العشر، كلٌّ من مناطق الشام ومصر وفارس للنفوذ الإسلامي، ولا تزال منذ ذلك الوقت ضمن الأقطار الإسلامية.

كان بالرغم مما كان حاكماً عظيماً لمملكة عظيمة، لم تعوزه أبداً الفراسة والمتانة، ولا الرويّة العادلة في الأمور والقضايا، إنه لم يرضَ أن يلقِّب نفسه بألقاب عظيمة، سوى ذلك اللقب العادي الساذج الذي يُدعى به، وهو «رئيس العرب»[٢].

كان الناس يتوافدون إليه من ولايات بعيدة، ويسألون عن عمر الحاكم والخليفة في فناء المسجد النبوي وأنحائه، ثم يتساءلون عمّا إذا كان أمير المؤمنين موجوداً في المسجد وهو جالس أمامهم في ملابسه العادية)[٣].

اتساع الدولة الإسلامية في عهد عمر

لا يسع المؤلف - ولو في إجمال واختصار - أن يستعرض استعراضاً تاريخياً للفتوح العظيمة التي تمت في عهده في الامبراطوريتين العظيمتين اللتين توزّعتا العالم المتمدّن المعمور واحتكرتا الإدارة السياسية وتوجيه المدنية والمجتمع، وما وصلت إليه الدولة الإسلامية، (وبالأصح الخلافة النبويّة

---

(١) A SHORT HISTORY OF THE SARACENS, op cit p. 34 - 44.

(٢) الأصحّ «أمير المؤمنين» أو «الخليفة» (المؤلف).

(٣) ANNALS OF THE EARLY CALIPHATE, op cit p. 283.

الراشدة) من إخضاع ولايات وعواصم كبيرة ومدن شهيرة استعصت على الفاتحين القدامى، وتمصير مدن جديدة، فإن موضع التفصيل في ذلك هو التاريخ الإسلامي العام، والكتب التي وضعت في سيرة سيدنا عمر الفاروق والخلفاء الراشدين[1].

تعاونُ عليّ مع عمر رضي الله عنهما

ولكن نشير في اختصار إلى ما كان ما بين سيدنا عمر وسيدنا علي من ثقة متبادلة وتقدير مشترك، وتعاون على البرّ والتقوى، وتسهيل مهمة الخلافة، والتناصح وتبادل الرأي، ونذكر من ذلك القليل اليسير:

قال نافع العيثي: دخلت حيرة الصدقة[2] مع عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب، قال: فجلس عثمان في الظل يكتب، وقام عليٌّ على رأسه يملي عليه ما يقوله عمر، وعمر قائم في الشمس في يوم شديد الحرّ، عليه بُردان أسودان تزيّا بأحدهما ولفّ الآخر على رأسه، يعدّ إبل الصدقة، يكتب ألوانها وأسنانها، فقال علي لعثمان: في كتاب الله: ﴿ يا أبت استأجره، إنَّ خيرَ مَن استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾ ثم أشار بيده إلى عمر وقال: هذا القوي الأمين[3].

وكان علي لسيدنا عمر ناصحاً أميناً، وقاضياً في المعضلات حكيماً، يفضُّ المشكلات ويزيح الشبهات، حتى أثر عن سيدنا عمر أنه قال: لولا عليّ لهلك عمر[4]، واشتهر في التاريخ والأدب وذَهَب مثلاً: «قضيَّةٌ ولا أبا حسنٍ لها»، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أقضاهم عليّ».

وقد استخلفه عمر عند رحيله إلى القدس.

---

(١) ليراجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧، والكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٣، وفتوح البلدان للبلاذري، وعمر بن الخطاب ترتيب الأستاذ علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، ومن أقوى ما ألّف في هذا الموضوع كتاب «الفاروق» في الأردية للعلاّمة شبلي النعماني (م ١٣٣٢ هـ).

(٢) الحيرة: الحظيرة.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٣ ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٤) ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٢٠١٥.

وقد زوّجه عليٌّ بنته أُم كلثوم، وهو دليل على إكرامه له وارتباطه به[1].

دليل ساطع على إخلاص علي لعمر ولمصلحة الإسلام والمسلمين

ومن أقوى الدلائل وأوضحها على إخلاص سيدنا علي لسيدنا عمر بن الخطاب، وحُسْن الطويّـة له، وصدق النصيحة للإسلام والمسلمين، ما أثر عنه وتحقَّق في وقعة نهاوند[2] الحاسمة، والموقف الحاسم الذي وقفه في هذه المناسبة. وإلى القارىء تفصيل ذلك.

جاءت وقعة نهاوند[3]، وكان الذي هيَّج أمر نهاوند أن المسلمين لما خلّصوا جند العلاء من بلاد فارس، وفتحوا الأهواز، كاتب الفرس ملكهم يزدجرد، وهو بمرو، فحرّكوه، وكاتب الملوك بين الباب والسند، وخراسان وحلوان، فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند، ونفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد، فاجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ألفاً ومائة ألف مقاتل، واستخدم ملك الفرس كل ما يُثير في الذهن الحماس الديني والحمية القومية السلاليـة والحافز على الدفاع عن المملكة الساسانية الكيانية العريقة في القِدَم، وكان معه العلم الإيراني المنمّق المجوهر الذي كان يسمى «دُرفش كاوياني» والذي كان يتفاءل به الفرس وينظرون إليه كآية للظفر والانتصار، والنار المقدسة التي كان يعبدها الفرس، وولى المردان شاه بن هرمز قيادة الجيوش ووجهه إلى نهاوند.

وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ـ وهو قائد جيش المسلمين ـ كتب إلى عمر بالخبر، ثم شافهه به لما قَدِمَ عليه، وقال له: إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح، وأن يبدؤهم بالشدّة ليكون أهيب لهم على عدوهم.

فجمع عمر الناس واستشارهم وقال لهم: هذا يوم له ما بعد، وقد

---

(١) مجالس المؤمنين للقاضي نور الله الشوستري، والمسالك شرح الشرائع لأبي القاسم القُمّي، (وهمـــا عالمان شيعيان).

(٢) نهاوند: مدينة في بلاد الجبال جنوب همذان.

(٣) قيل سنة ثمان عشرة، وقيل سنة تسع عشرة.

هممت أن أسير في مَن قِبَلي ومَن قدرت عليه، فأنزل منزلاً وسطاً بين هذين المِصْرين، ثم أستنفرهم وأكون لهم رِدْءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب، فإن فتح الله عليهم صببتُهم في بلدانهم.

فقال طلحة بن عبيد الله: أنت وشأنك ورأيك، إليك هذا الأمر، فمُرْنا نُطِع، وادعنا نجب، وعاد عمر، فقام عثمان فقال: رأيي يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين.

وعاد عمر، فقام إليه عليّ بن أبي طالب فخالف رأيهما، وأشار على عمر بالمقام وعدم مغادرة المدينة، ووكّل الأمر إلى مَن ينوب، والكتابة إلى أهل البصرة، وجيش المسلمين إلى العراق، وإقرار الأمراء في أمصارهم، وخوَّف من أن يحدث بمَن يتولى أمر المسلمين حدث فيضطرب حبل الإسلام والمسلمين، بحيث لا يتدارك ولا تقوم له قائمة، ولا يجتمع له شمل بعد ذلك.

فقال عمر: هذا هو الرأي، وعمل به، وسألهم مَن يشير عليه برجل يوليه ذلك الثغر، وليكن عراقياً، فقالوا: أنت أعلم بجندك، فأولاه النعمان بن المقرِّن المزني، فقالوا: هو لها[1].

وقد جاء ما أشار به سيدنا علي بن أبي طالب وحديثه واضحاً مفصّلاً قوياً في نهج البلاغة (مجموع خطب أمير المؤمنين وكتبه)[2] فقال لما استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه:

(إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعدّه وأمدّه، حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع،

---

(١) ملخصاً من كتب التاريخ.

(٢) وهو المتلقّى عند الشيعة بالقبول والعناية، الصالح للاحتجاج بصفة عامة.

ونحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكان القيِّم بالأمر مكان النظام بالخرز، يجمعه ويضمّه، فإن انقطع النظام تفرّق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم، وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكنْ قطباً، واستدر الرحى بالعرب، وأصْلِهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك.

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك، وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من مصير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنّا نقاتل بالنصر والمعونة)[1].

* * *

وكذلك وقع حين شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم قبل معركة اليرموك، التي كانت كبرى المعارك في الشام، والتي كان يتوقف عليها مصير المسلمين في فتوح الشام، وقد أرسل أبو عبيدة رسولاً إلى عمر يبلِّغه أن الروم تدفَّق سَيلهم من البر والبحر، فجمع عمر المهاجرين والأنصار، وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فلم يملك الصحابة نفوسهم وعيونهم وبكَوا، ونادوا في حماس: ننشد الله أمير المؤمنين أن يَسمح لنا بالخروج إلى الشام حتى نبذل لإخواننا مهجنا وأرواحنا، وما زال حماس المهاجرين والأنصار في ازدياد، حتى اقترح عبد الرحمن بن عوف أن يقود أمير المؤمنين الجيش لحماية المجاهدين في الشام ويكون ردءاً لهم ومدداً.

وخالف ذلك سيدنا عليّ بن أبي طالب وقال:

---

(١) نهج البلاغة طبع دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(قد توكل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحَوْزة وستر العورة، والـذي نصرهم وهم قليـل لا ينتصرون، ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون، حيّ لا يموت.

إنـك متى تَسِر إلى هـذا العدد بنفسـك فتَلْقَهـم فتنكب، لا تكن للمسلمين كانفـةٌ[1]، دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً مِحْرَباً، واحفز[2] معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأُخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين)[3].

ومن الواضح أن علياً لو كان يضمر سوءاً لعمر أو تِرَة، وكان يعتبره المغتصب للخلافة، يتربص به الدوائر، ويتحيّن الفرص للتخلّص منه حتى يصفو له الجو ويُبايع له بالخلافة. كانت هذه الفرصة سانحة للتخلّص منه من غير أن تقع عليه التَبِعة، فيحدث بعمر حدث، أو يوعز عليّ باغتياله، ولكنه تسامَى عن كل ذلك وبذل نصيحة له وللمسلمين، وكانت إشارة حكيمة سديدة وتوجيهاً مخلصاً لا يصدر إلا عن مَن صفا قلبه، وسَمَتْ همّته، وبَعُد نظره، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين أفضل ما يجزي عباده الأولياء المخلصين، (والشيء من مَعْدِنه لا يُستغرب).

وبالعكس لما طالب المسيحيون أن يأتي عمر إلى القدس، ويكتب صك الصلح بيده، فيسلموا إليه مفاتيح المسجد الأقصى المبارك، وكتب بذلك أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين أن فتح بيت المقدس متوقف على قدومه، فجمع كبار الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأُنوفهم، ولكن عليّاً أشار عليه بالتوجّه إلى القدس، (لما في ذلك من شرف تاريخي خالد لا يتأتّى لكل واحد وفي كل حين)، ولأن فيه تخفيفاً على المسلمين، فأعجب عمرَ رأيُ علي، واستعدّ

---

(١) كانفة: عاصمة يلجؤون إليها، من (كَنَفه) إذا صانه وستره.

(٢) الحفز: هو الدفع والسوق الشديد.

(٣) نهج البلاغة ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

للرحلة، واستخلف علياً في أُمور الخلافة، وتوجه في رجب سنة ١٦ هـ إلى الشام[١].

رحلة سيدنا عمر إلى بيت المقدس

ولعلّ القارىء يحبّ أن يعرف كيف سافر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي يهابه ملك الروم وملك فارس، والمناسبة تستدعي أُبّهة، وما يملأ القلوب مهابة وإجلالاً لخليفة المسلمين، وإلى القارىء وصف هذه الرحلة:

(قَدِمَ الجابية[٢] على جمل أَوْرَق[٣]، تلوح صَلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، رجلاه بين شعبتي رَحْله بلا رِكاب، وِطاؤه كساء أنبجاني ذو صوف، وهو ركابه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حَقيبته نَمِرة أو شملة محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس، قد رسم وتخرق جنبه)[٤].

قال: ادعو لي رأس القوم فدعوا له الجلومس، فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه، وأعيروا لي ثوباً أو قميصاً، فأُتي بقميص كتان، فقال: ما هذا؟ قالوا: كتان، قال: وما الكتان؟ فأخبروه، فنزع قميصه فغسل ورقع وأُتي به، فنزع قميصهم، ولبس قميصه، فقال له الجلومس: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت بِرْذَوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم، فقال: نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، فلا نطلب بغير الله بديلاً، فأُتي ببِرْذَون، فطرح عليه قطيفته بلا سرج ولا رَحْل فركبه بها، فقال: احْبِسوا، احْبِسوا، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا، فأُتي بجمله فركبه[٥].

---

(١) اقرأ القصة مفصلة في الكامل لابن الأثير جـ٣ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٢، وتاريخ الطبري ص ٢٤٠٢، واليعقوبي ص ١٦٧، والبداية والنهاية جـ٧ ص ٥٥.

(٢) موضع بالشام في الجنوب من دمشق.

(٣) الذي لونه لون الرماد.

(٤) ملتقط من سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

(٥) البداية والنهاية جـ٧ ص ٥٩ ـ ٦٠.

ونبذة عن رحلته الثانية إلى الشام في عام ١٨ هـ، وقد رواها الطبري، قال:

(خرج عمر وخلّف عليّاً على المدينة، وخرج معه بالصحابة رضي الله عنهم وأغذّوا السير، واتخذ أيْلة (على ساحل البحر الأحمر) طريقاً، حتى إذا دنا منها تنحّى عن الطريق، واتبعه غلامه، فنزل فبالَ، ثم عاد فركب بعير غلامه، وعلى رَحْله فرو مقلوب، وأعطى غلامه مركبه، فلما تلقّاه أوائل الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم (يعني نفسه)، فذهبوا إلى أمامهم، فجاوزوه، حتى انتهى هو إلى أيلة، فنزلها، وقيل للمُتلقِّيْـن: قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها، فرجعوا إليه)[١].

موقف سيدنا عمر بن الخطاب من آل بيت الرسول ﷺ

كان سيدنا عمر على سطوته وعدله بين الناس، واشتغالـه الدائب بمهمات الخلافة والعكوف عليها، شديد الإكرام لآل بيت الـرسول ﷺ، وإيثارهم على أبنائه وأسرته، نذكر من ذلك القليل اليسير:

جاء فيما رواه الحسين بن علي رضي الله عنه: أن عمر قال لي ذات يوم: أيْ بني لو جعلت تأتينا وتغشانا؟ فجئت يوماً وهو خالٍ بمعاوية، وابن عمر بالباب لم يؤذن له، فرجعت فلقيني بعد، فقال: يا بُنيَّ لم أرَكَ أتيتنا؟ قلت: جئت وأنت خالٍ بمعاوية، فرأيت ابن عمر رجع، فرجعت، فقال: أنت أحقُّ بالإذن من عبد الله بن عمر، إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى: الله، ثم أنتم، ووضع يده على رأسه[٢].

وروى ابن سعد عن جعفر الصادق بن محمد الباقر عن أبيه علي بن الحسين، قال:

قَدِمَ على عمر حُلل من اليمن، فكسا الناس فراحوا في الحلل، وهو

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) كنز العمال جـ ٧ ص ١٠٥، الإصابة جـ ١ ص ١٣٣.

بين القبر والمنبر جالس، والناس يأتونه فيسلِّمون عليه ويدعون له، فخرج الحسن والحسين من بيت أُمهما فاطمة رضي الله عنها يتخطّيان الناس، وليس عليهما من تلك الحُلل شيء، وعمر قاطب صارٌّ بين عينيه، ثم قال: والله ما هنأ لي ما كسوتكم، قالوا: يا أمير المؤمنين، كسوتَ رعيتك فأحسنت، قال: من أجل الغلامين يتخطيان الناس وليس عليهما من شيء، كبرتْ عنهما وصغرا عنها، ثم كتب إلى اليمن أن ابعث بحلّتَين لحسن وحسين وعجِّل، فبعث إليه بحلَّتين فكساهما[1].

وعن أبي جعفر أنه لما أراد أن يفرض للناس بعدما فتح الله عليه، جمع ناساً من أصحاب النبي ﷺ، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابدأ بنفسك، فقال: لا والله، بالأقرب من رسول الله ﷺ، ومن بني هاشم رَهْط رسول الله ﷺ، وفرض للعباس، ثم لعلي، حتى والى بين خمس قبائل، حتى انتهى إلى بني عَديّ بن كعب، فكتب مَن شهد بدراً من بني هاشم، ثم مَن شهد بدراً من بني أُمية بن عبد شمس، ثم الأقرب فالأقرب، ففرض الأعطيات لهم، وفرض للحسن والحسين لمكانهما من رسول الله ﷺ[2].

وقد جاء في الطبقات لابن سعد (ورواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه) أن عمر بن الخطاب لما دوّن الديوان فرض العطاء للحسن والحسين بفريضة أبيهما مع أهل بدر، لقرابتهما من رسول الله ﷺ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم[3].

يقول العلاّمة شبلي النعماني في كتاب «الفاروق» حول عنوان «رعاية الحقوق والآداب بين الآل والأصحاب»:

(إن عمر رضي الله عنه لم يكن يبتُّ برأي في مهمات الأُمور قبل أن يستشير عليّاً رضي الله عنه، الذي كان يشير عليه بغاية من النُصح ودافع من

---

(١) الإصابة جـ ١ ص ١٠٦.

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٢٤، ٢٥ (المطبعة الميرية مصر ١٣٠٢ هـ الطبعة الأولى).

(٣) الطبقات الكبرىٰ (قسم المخطوط) لابن سعد، وابن عساكر في التاريخ.

الإخلاص، ولما سافر إلى بيت المقدس استخلفه في جميع شؤون الخلافة على المدينة، وقد تمثل مدى الانسجام والتضامن بينهما حينما زوّجه علي رضي الله عنه من السيدة أُم كلثوم التي كانت بنت فاطمة رضي الله عنها[1]، وسمَّى أحد أولاده عمر، كما سمّى أحدهم أبا بكر، وسمّى الثالث عثمان[2]، ولا يسمّي الإنسان أبناءه إلا بأحبِّ الأسماء وبمَن يرى فيهم القدوة والمثالية).

مبدأ التقويم الإسلامي الهجري وصاحب الفضل في تقريره

ومن مآثر سيدنا علي الخالدة الباقية إلى بقاء الإسلام والأُمة الإسلامية، وتذكاره الجميل الخالد، أن الناس اختلفوا في عهد سيدنا عمر في تاريخ الحوادث، فأراد بعضهم أن يؤرِّخوا كما تؤرّخ الفرس بملوكهم، أو يؤرّخوا بتاريخ الروم، وقال قائلون أرّخـوا بمولد رسول الله ﷺ، وقال آخرون من مبعثه عليه السلام، وأشار علي بن أبي طالب أن يؤرّخ بهجرته من مكـة إلى المـدينة، فـاستحسن ذلك عمـر والصحابـة، وأمـر أن يؤرّخ من هجـرة رسول الله ﷺ[3].

وهكذا رُبط التقويم بحادثة لها معناها وأبعادُها ورسالتُها، ولم يربط بشخصية - حتى بشخصية النبي ﷺ التي هي أجلّ الشخصيات البشرية وأحبّها إلى الله والمسلمين - ولم يربط بالفتوح والانتصارات، والحروب والغزوات، فكان لارتباطه بالهجرة معنى عميق وحكمة بالغة، لأنه بذلك غلب على هذا التقويم طابع الدعوة والرسالة بشكل دائم وواضح، وبذلك يعرف المسلمون ومَن يفكـر في سرّ هذا التعيين أن نقطة الانطلاق واستهلال المجد والازدهار هو العقيدة والإيمان، وتفضيلهما على المألوفات والأهل والأوطان، وفيه تفاؤل وتبشير، فقد كانت بداية عهد جديد في التاريخ البشري والمسيرة الإنسانية،

---

(١) جاء بحث مستفيض في هذا الزواج ودلائله، والنقاش التاريخي والعلمي والكلامي حول هذا الموضوع، في كتاب الأمير محسن الملك الشهير بـ «آيات بيِّنات» جـ ١ ص ١٢٧ - ١٦٤، طبع مرزابور عام ١٨٧٠ م.

(٢) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٣) المرجع السابق جـ ٧ ص ٧٤.

وحافز قوي على التمسك بالعقيدة والمبدأ، والمغامرة والاقتحام، وإيثار الجانب العقدي والمبدئي على الجانب الطبعي والعُرفي[1].

شهادة سيدنا عمر رضي الله عنه

كان عمر رضي الله عنه لا يأذن لصبي ذمّي قد احتلم أن يدخل المدينة، حتى كتب إليه المغيرة بن شُعبة، وهو على الكوفة، يستأذنه في غلام صَنَع[2] يُدعى أبا لؤلؤة واسمه فيروز، وكان فارسياً مجوسياً، وقيل نصرانياً، أصله من «نهاوند»، أسرته الروم وأسره المسلمون من الروم. ولما قَدِمَ سَبْي نهاوند إلى المدينة سنة ٢١ للهجرة كان أبو لؤلؤة لا يلقى منه صغيراً إلا مسح رأسه وبكى، وقال له: أكل عمر كبدي.

وكان المغيرة يستغلّه ـ وهو حدّاد ونقّاش ونجّار ـ كل يوم أربعة دراهم، لأنه كان يصنع الرحى، فجاء الغلام إلى عمر يشتكي إليه ويقول: إن المغيرة قد أثقل عليّ فكلِّمه لي ليخفّف عنّي، قال له عمر: ما تحسن من الأعمال؟ فذكرها له، فقال له عمر: ما خراجك بكثير، فاتقِ الله وأحسِن إلى مولاك، ومن نيّة عمر أن يلقى المغيرة فيكلِّمه يخفِّف عنه، فانصرف العبد مغضباً، واصطنع خنجراً له رأسان وسمّه، ثم أتى به الهرمزان وهو من أُمراء فارس قديماً، فقال: كيف ترى هذا؟ قال: أرى أنك لا تضرب بهذا أحداً إلا قتلته، فكانت مؤامرة مجوسية فيها غضب شخصي، وتِرَة شعبية إقليمية.

قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق غداة مقتل عمر: رأيت عشية أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة، وهم يتناجَون، فلما ثاروا سقط منهم الخنجر الذي ضرب به عمر. لذلك رجَّح كثير من الباحثين أن قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عن تدبير سابق وائتمار مدبر، اشترك فيه العجم واليهود،

---

(١) راجع للتفصيل رسالة المؤلف: «القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع» طبع المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكهنؤ ص ٧ ـ ١٠.

(٢) رجل صنع اليدين: حاذق في الصنعة، ماهر في عمل اليدين، ورجل صنيع اليدين أي حاذق ماهر في عمل اليدين.

ولم يكن ذلك بِدْعاً من الشعوب المفتوحة الموتورة، وأهل البلاد التي فقدت حريتها وسلطتها التي كانت تستغلّها في تحقيق مآربها الشخصية والأسرية.

وقام عمر بعد ذلك بقريب يصلي بالناس صلاة الفجر، فما هو إلا أن كبَّر حتى سمعه الناس يقول: قتلني أو أكلني الكلب، وقد طعنه أبو لؤلؤة ووجأه في كتفه وخاصرته، قيل ضربه ست ضربات، وطار العلج[1] بسكين ذات طرفين لا يمرّ على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فلما رأى ذلك عبد الرحمن بن عوف طرح عليه برنساً له ليأخذه، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وخرَّ عمر وهو يقول: ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾[2].

وسأل عمر مَن طعنه، فقيل غلام المغيرة بن شعبة، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي مَن يحاجّني عند الله بسجدة سجدها قطُّ، ما كانت العرب لتقتلني[3].

وقال لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أُم المؤمنين، فقل: يقرأ عمر عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فمضى، فسلَّم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فسلَّم عليها، وقال: يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، قالت: كنت أُريده لنفسي، ولأوثرنَّه به اليوم على نفسي، ورجع عبد الله بن عمر، وقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليّ من ذلك المضجع، انظر، فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري، ثم قف بي على الباب، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردّتني فرُدَّني إلى مقابر المسلمين، فإني أخشى أن يكون إذنها عليّ لمكان

(١) الرجل الضخم القوي من كفار العجم.
(٢) ابن سعد جـ ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣، وكتب أُخرى من التاريخ.
(٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٧.

السلطان، فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ، فأذنت له، فدفن رضي الله عنه حيث أكرمه الله مع النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه[1].

يقول الكاتب الفاضل السيد أمير علي معلّقاً على وفاة عمر في كتابه المشهور «تاريخ العرب»:

(كانت وفاة عمر خسارة فادحة وحادثاً كبيراً للإسلام)[2].

وكانت وفاته رضي الله عنه في ٢٦ من ذي الحجة سنة ٢٣ هجرية، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

تفجّع علي على عمر وإشادته به

عن أبي جحيفة قال: كنت عند عمر، وهو مسجّىً بثوبه قد قضى نحبه، فجاء علي فكشف الثوب عن وجهه، ثم قال: (رحمة الله عليك يا أبا حفص، فوالله ما بقي بعد رسول الله ﷺ أحد أحبّ إليّ أن ألقى الله بصحيفته منك)[3].

وكان علي رضي الله عنه يبكي عند موت عمر رضي الله عنه، فقيل له في ذلك، فقال: (أبكي على موت عمر، إن موت عمر ثُلْمة في الإسلام لا تُرتق إلى يوم القيامة)[4].

---

(١) ابن سعد جـ ١ ص ٢٤٤.

(٢) A SHORT HISTORY OF THE SARACENS, p. 43 - 44.

قال المعلم بطرس البستاني ـ وهو مسيحي ـ: (قيل ليس هذا السبب في قتله عمر، بل إن القوم من غير المسلمين دسّوه إلى قتله ظناً بأنه بموته تضعف قوة الإسلام، وتسقط مملكته) (دائرة المعارف جـ٢ ص ٣٣٠) (ترجمة أبي لؤلؤة).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) الفتوحات الإسلامية جـ٢ ص ٤٢٩، للسيد أحمد زيني دحلان (المطبعة الميرية، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٣١١ هـ).

الفصل الخامس

سيّدُنا عليّ عليه السلام

في خلافة سيّدنا عثمان رضي الله عنهما

مبايعة عثمان رضي الله عنه - مكانة سيدنا عثمان الدينية والاجتماعية - الفتوح في زمن عثمان واتساع الدولة الإسلامية - مأثرة عثمان العظيمة الخالدة - محنة سيدنا عثمان في الخلافة - الفتنة تبلغ ذروتها - حصر أمير المؤمنين عثمان، وشهادته رضي الله عنه، ودور سيدنا علي الرائع في حمايته - أثر العقيدة في عثمان وسيرته وعلو مكانته في الإسلام.



الفَصْلُ الخَامِسُ

سَيِّدُنَا عَلِيٌّ

في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنهما

مبايعة عثمان رضي الله عنه

كان عمر رضي الله عنه حين حضرته الوفاة ـ وقد مضت قصة مقتله تفصيلاً ـ قد جعل الأمر بعده شورى بين ستة نفر، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرحمن بن عوف[1] رضي الله عنهم، وتحرّج أن يجعل لواحد من هؤلاء على التعيين، وقال: لا أتحمل الأمر حيّاً وميتاً، إن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خير هؤلاء كما جمعكم على خيركم بعد نبيّكم ﷺ.

ومن تمام ورعه لم يذكر في الشورى سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، لأنه ابن عمّه، فقد خشي أن يراعَى فيولَّى لكونه ابن عمّه، ولذلك تركه وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة. وقال لأهل الشورى: يحضركم عبد الله (يعني ابنه) وليس إليه من الأمر شيء، وأوصى أن يصلي بالناس صهيب بن سنان الرومي ثلاثة أيام حتى تنقضي الشورى، وأن يجتمع أهل الشورى، ويوكل به أُناس حتى ينبرم الأمر، وقال: ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلي أحداً.

فلما فُرِغ من شأن عمر، جمعهم المقداد بن الأسود في بيت، وكثر القول وعلَت الأصوات، ثم صار الأمر إلى أن فَوّض ثلاثة منهم ما لهم من ذلك إلى ثلاثة، ففوّض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علي، وفوّض سعد

---

(١) والستة كلهم من العشرة المُبشَّرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة.

ما له من ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، وترك طلحة حقه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال عبد الرحمن لعليّ وعثمان: أيّكما يبرأ من هذا الأمر فنفوِّض الأمر إليه، والله عليه والإسلام ليولينَّ أفضل الرجلين الباقيين، فأسكت الشيخان علي وعثمان، فقال عبد الرحمن: إني أترك حقي من ذلك، والله عليّ والإسلام أن أجتهد، فأُولّي أولاكما بالحق، فقالا: نعم، ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل، وأخذ عليه العهد والميثاق، لئن ولّاه ليعدلنَّ، وإن وُلِّيَ عليه ليسمعنَّ وليطيعنَّ، فقال كلٌّ منهما: نعم.

ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم، جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى ومجتمعين، سِرّاً وجهراً، حتى خلص إلى النساء المخدَّرات في حجابهنّ، وحتى سأل الولدان في المكاتيب، وحتى سأل مَن يَرِدُ من الركبان والأعراب إلى المدينة، في مدة ثلاثة أيام ولياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفّان، لا يغتمض بكثير نوم، إلا صلاة ودعاءاً واستخارة، وسؤالاً من ذوي الرأي عنهم.

ثم دخل في اليوم الرابع من موت عمر إلى البيت الذي اجتمع فيه أهل الشورى أول يوم، ودعا بعليّ وعثمان، فلما حضرا أقبل عليهما، وقال: إني قد سألت الناس عنكما، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً، ثم أخذ العهد من كلٍّ منهما أيضاً، لئن ولّاه ليعدلنَّ، وإن وُلِّي عليه ليسمعنَّ وليطيعنَّ، ثم خرج بهما إلى المسجد، وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عمَّمه رسول الله ﷺ بها، وتقلّد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس الصلاة جامعة، فامتلأ المسجد حتى غصَّ بالناس وتراصّ الناس حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس إلا في أُخريات الناس، وكان رجلاً حييّاً رضي الله عنه، ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ، فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا دعاءاً طويلاً لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال:

(أيها الناس، إني سألتكم سِرّاً وجهراً بأمانيكم، فلم أجدكم تعدلون

بأحد هذين الرجلين، إما عليّ وإما عثمان، فقُم إليّ يا عليّ، فقام إليه، فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيِّه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللَّهمّ لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، فقال: فأرسل يده، وقال: قم إليَّ يا عثمان، فأخذه بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيِّه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللَّهمّ نعم[1]، قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويدُه في يد عثمان، فقال: اللَّهمّ اسمع واشهد، اللَّهمّ اسمع واشهد، اللَّهمّ اسمع واشهد، اللَّهمّ إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعدَ النبيّ ﷺ، وأجلس عثمان تحت على الدرجة الثانية، وجاء إليه الناس يبايعونه، وبايعه عليّ بن أبي طالب أولاً، ويقال آخراً[2].

مكانة سيدنا عثمان الدينية والاجتماعية

وقد كان ذلك منسجماً مع ما كان لسيدنا عثمان بن عفان من السنّ والفضائل، وما كان يتمتع به من مكانة عُرفية واجتماعية في المجتمع الإسلامي العربي. فقد وُلِدَ في السنة السادسة من عام الفيل، وهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو خمس سنين، وأسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، وتزوَّج رقية ابنة رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة، واشتد أذى قريش فاستأذن النبي ﷺ في أن يهاجر بها، فأذن له فهاجر بها إلى الحبشة، وفي

(١) كان الناس قد وقر في قلوبهم حبّ المنهج الذي سار عليه أبو بكر وعمر في خلافتهما، والثقة بأنه هو أسلوب الحكم الذي يتفق مع خلافة النبوّة، وفيه الأمان من كل خطر وتعسّف وجَور، لذلك لما قبل عثمان أنه مبايع على كتاب الله وسنّة نبيِّه وفعل أبي بكر وعمر، اطمأنَّ به عبد الرحمن بن عوف والحاضرون، وكان لعليّ الحق ـ وهو العالم بكتاب الله وسُنّة نبيّه وله حق الاجتهاد ـ أن يقول ما قال، ولكنه لم يكن ذلك كافياً لإدخال الطمأنينة على نفوس الناس في ضوء تجاربهم في عهد الخليفتين الأولين، لذلك فضّلوا عثمان الذي قيَّد نفسه بالكتاب والسنّة، وفعل أبي بكر وعمر.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ١٤٤ ـ ١٤٧، وقد آثرنا هذه الرواية لأنها أجمع الروايات، وهي مؤسسة على ما جاء في الصحاح والأخبار الموثوق بها.

شأنهما يقول رسول الله ﷺ: «إنهما لأوّلُ مَن هاجر إلى الله عزّ وجل، وآل إبراهيم ولوط عليهم السلام». ثم عاد من الحبشة مهاجراً إلى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إليها، ولما ماتت السيّدة رقيَّة، زوَّجَ رسول الله ﷺ ابنته أُم كلثوم لعثمان، وهذه خَصيصة لم تكن لغير عثمان، من أجلها كان يُلقَّب بذي النورين.

وكان يتمتع باحترام قريش له، فقال عمر عندما أراد رسول الله ﷺ أن يرسله سفيراً إلى قريش في صلح الحديبية: (أدلُّك على رجل أعزّ بها مني، عثمان بن عفان)، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، وانطلق عثمان حتى جاء مكة، وأتى أبا سفيان وعظماء قريش، وبلَّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسل به، وقالوا حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ[1]، وقال عثمان حين رجع ـ وقال له المسلمون اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف من البيت؟ ـ: بئسما ظننتم بي والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحُديبية ما طُفتُ بها حتى يطوف رسول الله ﷺ، ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت[2].

وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتِل، فدعا إلى البيعة، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه أن لا يفرّوا، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: هذه عن عثمان، فكانت بيعة الرضوان[3].

وكان عثمان ذا مكانة عند عمر، فكانوا إذا أرادوا أن يسألوا عمر عن شيء رمَوه بعثمان، وبعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان يسمى الرديف (والرديف بلسان العرب هو الذي يكون بعد الرجل، والعرب تقول ذلك للرجل الذي يرجونه بعد رئيس)، وكانوا إذا لم يقدر هذان على علم شيء

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣١٥.
(٢) زاد المعاد جـ ١ ص ٣٨٢.
(٣) المرجع السابق.

ثلّثوا بالعباس[1]، وعثمان هو الذي جهّز جيش العسرة في وقعة تبوك، واشترى بئر رومـة ووقفها على المسلمين.

أخرج الترمذي عن عبد الرحمن بن خبّاب، قال:

شهدت النبي ﷺ وهو يحثُّ على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضَّ على الجيش، فقال عثمان: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضَّ على الجيش فقال عثمان: يا رسول الله عليَّ ثلاث مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فنزل رسول الله ﷺ وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه شيء».

وأخرج الترمذي عن أنس، والحاكم وصحَّحه عن عبد الرحمن بن سَمُرة، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهَّز جيش العسرة، فنثرها في حِجْره، فجعل رسول الله ﷺ يقلِّبها ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين.

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة قال: اشترى عثمان الجنة من النبي ﷺ مرتين، حيث اشترى بئر رومة، وحيث جهَّز جيش العسرة.

واشترى عثمان بئر رومة[2] بعشرين ألف درهم فجعلها للمسلمين، وكانت رَكِية ليهودي، حين قال رسول الله ﷺ: «مَن يشتري بئر رومة فيجعلها

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٨٣.

(٢) تقـع هذه البئر في عرصة العقيق الكبرى بقرب مجتمع الأسيال (زغابة) بشمالي غربي المدينة، وكانت البئر غزيرة الماء، وماؤها عذب صاف خفيف للغاية، ولعذوبة ماء بئر رومة وغزارته رغَّب النبي ﷺ أصحابه في شرائها وجعلها وقفاً على المسلمين، فأجاب هذه الرغبة عثمان بن عفان واشتراها بعد اللتيّا واللتي من صاحبها اليهودي، الحريص على الربح الوفير واستغلال الفرصة السانحة بمبلغ (٢٠٠٠٠) درهم، ونفَّذ فيها رغبة الرسول ﷺ، وجعلها وقفاً للمسلمين. (آثار المدينة المنورة لعبد القدوس الأنصاري ص ٢٤٥، المكتبة السلفية، المدينة المنورة).

للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة»[1]، وكان المسلمون في أشدّ الحاجة إلى ماء عذب كثير.

وُلِّي عثمان الخلافة وعمره ٦٨ عاماً ميلادياً و٧٠ عاماً هجرياً.

الفتوح في زمن عثمان واتساع الدولة الإسلامية

بلغت الفتوح الإسلامية في عهد عثمان أوجها وذروتها، للعوامل التي أنشأها الإسلام في صدور المسلمين، من حبِّ الجهاد في سبيل الله، والحنين إلى الشهادة والجنة، والاستهانة بالحياة ولذاتها، والشجاعة الخارقة للعادة، وعدم الاحتفال بكثرة العدد والعُدَّة، ومشاهدة نصر الله لهم، فاتَّجَهَ تيّار الفتوح سريعاً دافقاً في مملكة فارس والروم وفي شمال إفريقية، لا يعوقه شيء، وتناثرت وانهارت أمامه بلاد وأمصار، كما ينفرط العقد فتتناثر حبَّاته.

ولعله كان من الحكمة الإلّهية وما أراده الله للمسلمين من الخير أن يخلف عمر عثمان حتى تكمل الفتوح التي بدأت في عهد خلافة سيدنا عمر، وتتّسق وتتوسع، لأن أكثر العمال على البلاد المفتوحة الجديدة وأكثر قادة الجيوش الفاتحين كانوا على صلة قريبة قوية بسيدنا عثمان، مثل معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة، وكان ذلك سبباً لدخول الملايين من البشر في الإسلام، وهو خير كبير.

فتح في عهد عثمان أَذْرَبِيْجان وطبرستان، وفي عهده أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخَزَر، وهي بلدان واسعة على شاطىء بحر الخزر (بحر قزوين) Caspian Sea وفيها بلاد الديلم والجبل حتى وصل بلنجر وقهستان إلى نيسابور، وطغارستان إلى مرو الروذ إلى بلخ وخوارزم، وأرمينية إلى تاليقلا، واستمرت الفتوح حتى وصلت إلى تفليس، وفي زمنه فتح معاوية جزيرة قبرص Cyprus وفتحت السواحل الشمالية للقارة الإفريقية من طرابلس إلى طنجة.

---

(١) الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة جـ ٢ ص ١٧٣.

وفي عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم، وبما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من المراكب، ولم يكن من ذلك بُدٌّ لحماية الثغور الإسلامية التي كان يشنّ الروم عليها الإغارة من وقت لآخر[1].

إن جنود الإسلام كانت في زمن عمر قد فتحت المملكة الفارسية جميعاً، وبلاد سورية كذلك، ومصر، غير أن بعض ما فتح، لم يكن الأمر فيه موطداً توطيداً تاماً، بل كان أهله يجيبون كل داعٍ إلى شقِّ العصا وخلع اليد من الطاعة، فكانت الجنود الإسلامية تقوم بردِّهم إلى الطاعة في زمن عثمان، وتثبيت حكم الإسلام فيها، ولهذا يكون إرجاع تلك البلاد إلى الطاعة فتحاً على التحقيق، وللمسلمين في عهد عثمان فتوح لم تطأها أقدام جنود الإسلام من قبل[2].

وفي عهد عثمان سخّر المسلمون بلخ وهرات وكابل وبدخشان، وكانت الثورة في جنوب إيران وسيلة لتسخير كرمان وسجستان، واعتنت الدولة الفاتحة بوسائل الترفيه في هذه البلاد، فحُفرت ترع وأنهار، وأُنشئت شوارع، وغُرست الأشجار المثمرة، وأُمِّنت التجارة بإنشاء مصلحة الحرس والشرطة، وحملت هجمات الروم على التقدّم إلى آسيا الصغرى، والبحر الأسود، وفتحت طرابلس الغرب، وبرقة في قارة إفريقية، وفتحت جزيرة قبرص Cyprus في البحر الأبيض المتوسط، وأباد المسلمون الأسطول البحري الذي أنشأه الروم لفتح مصر على شواطىء الإسكندرية[3].

مأثرة عثمان العظيمة الخالدة

ومن أجلّ مآثر سيدنا عثمان أنه جمع العالم الإسلامي كله على مصحف واحد، وقراءة واحدة. إنَّ أمره بكتابة نسخ المصحف وتوزيعها في جميع

(١) ملخصاً من تاريخ الأُمم الإسلامية للشيخ محمد خضري بك جـ٢ ص٢٧ - ٣٠، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦٩.

(٢) الخلفاء الراشدون للشيخ عبد الوهاب النجار ص ٢٧٠.

(٣) تاريخ العرب للسيد أمير علي A SHORT HISTORY OF THE SARACENS ص ٤٣ - ٤٤.

الأقطار الإسلامية وتوحيدها على قراءة واحدة لأعظم مأثرة لخلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه.

يقول الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (م سنة ٧٩٤ هـ):

(كان الناس متروكين على قراءة ما يحفظون من قراءاتهم المختلفة حتى خِيفَ الفساد، فجُمِعوا على القراءة التي نحن عليها، والمشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان رضي الله عنه، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة لوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين مَن شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات والقرآن، وأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أُنزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصدِّيق، وروي عن علي أنه قال: (رحم الله أبا بكر هو أول مَن جمع بين اللوحين)، ولم يحتج الصحابة في أيام أبي بكر وعمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان، ولقد وُفِّق لأمر عظيم، ورفع الاختلاف، وجمع الكلمة، وأراح الأمة)[١].

وقال علي رضي الله عنه: (لو ولِّيت ما وُلِّـي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل)[٢].

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير عن سُوَيد بن غَفَلَة قال: قال علي: (أيها الناس، إياكم والغلو في عثمان، تقولون حرق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ، ولو ولِّيت مثل ما ولّي لفعلت مثل الذي فعل)[٣].

---

(١) البرهان ص ٢٣٩، طبع دار إحياء الكتب العربية.
(٢) أيضاً ص ٢٤٠.
(٣) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢١٨.

ومن مآثره رضي الله عنه هي زيادته في المسجد النبوي، فقد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللَّبِن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللَّبِن والجريد، وأعاد عمده خشباً، ثم غيَّره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة[1]، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج[2].

محنة سيدنا عثمان في الخلافة

ولا بدَّ لهذه الانتصارات الواسعة والفتوح العظيمة، وما تجرّه من رخاء وثراء وتجارب جديدة لوسائل الترفيه والتوسّع في المعيشة والمدنية، من نتائج نفسية وخلقية، وهي ضريبة طبيعية لا بدَّ من دفعها ومواجهتها في حياة الأمم والشعوب، وتاريخ المجتمعات والدول، فما إن تولَّى عثمان الخلافة حتى بدأ الانقلاب في المجتمع الإسلامي، فبدأ المجتمع الإسلامي الخضم يتحول من اتجاهه الأول، ذلك الاتجاه الذي ربَّى عليه النبي ﷺ أصحابه، ونشأ عليه تلاميذه، وقد كان المظهر الأعلى لتلك التربية الفاضلة وزن الدنيا وزخارفها بميزان ما ينفع في الآخرة، فلم تعلق بقلوبهم علوقاً يدفع إلى التنافس فيها.

وقد استشرى هذا التحوّل عن السمت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه لاتّساع الفتوحات ووفور الخيرات وكثرة الغنائم، وإدرار الأموال، وذلك ما تقتضيه طبيعة الأشياء ومنطق الواقع إذا لم يوجد مَن يكبح جماحها، ويعدّل من شِرّتها وغلوائها، كما فعل عمر رضي الله عنه.

وكانت عناصر المجتمع الإسلامي على عهد عثمان هي النافذة العظمى التي اندفعت منها تيارات الأهداف العاصفة، ولم يكن عثمان قد حاد عن الحق في سيرته، ولا فارق الجادة في خلافته، ولا خالف قواعد العدل في

---

(١) الجصّ.
(٢) البرهان ص ٥٠١، وللتفصيل يرجع إلى كتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسَّمهودي (م ٩١١ هـ) (دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١ م).

سياسته، ولكن النفوس البشرية إذا أبطرتها نِعَم الحياة ولم يهذبها الإنسان، وانزلقت إلى مخاطر الثورة، عميت فلا تبصر، وضلَّت فلا تعقل[1].

وقد أجاد الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد إذ قال:

(المشكلة الكبرى كما سوف تتراءى لنا أنه ـ عثمان ـ لم يعمل في خلافته عملاً قطُّ على غير سابقة تشبهه في كل شيء إلا في ظروفه وملابساته، فقد تغيرت كل الظروف والملابسات، وهي هي بيت القصيد في كل استعداد لها بالقدوة والسابقة، كانت تربيته السياسية عدّة له وأيّ عدّة، وكانت مع هذا هي مشكلة المشكلات بين استعداد بها والتصرف فيها، وفاقاً لما اختلفت من ظروفها وملابساتها)[2].

ويقـــول:

(منذ أسلم عثمان إلى أن تولى الخلافة، تغير المجتمع العربي في نطاق واسع، وأصبحت الصبغة الإسلامية نوعاً من الصبغة العالمية، يكاد أن يقرِّب بين أساليب المعيشة في جميع أُمم الحضارة الشرقية والغربية)[3].

ومن هنا بدأت المحاسبة الدقيقة للخليفة عثمان بن عفان من الناقمين عليه، يقول العقاد:

(لقد كان الناس رعية (ومملكة) يتصرفون في معاشهم ومطالبهم، كما يتصرف رعايا المَمالك، ويسومون وليّ أمرهم أن يسوسهم سياسة الخلافة، وينتظرون من الخليفة الثالث أن لا يجري في أمر من الأُمور على منهج ينحرف قيد شعرة عن منهج الخليفتين الأول والثاني، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن منهج رعايا الخليفتين أبعد انحراف.

---

(١) ملخصاً ومقتبساً من كتاب «عثمان بن عفان» للأُستاذ صادق إبراهيم عرجون ص٩٣، (الدار السعودية، الطبعة الثانية ١٩٨١ م).

(٢) العبقريات الإسلامية ص ٧٦١.

(٣) المرجع السابق ص ٧٧٠.

ومما لا جدال فيه أن عثمان لم يكن بقوة أبي بكر وعمر، ولكن عمر نفسه على قوته ومهابته قد أحسَّ في أُخريات أيامه وطأة الاختلاف بين العهود، فكان يقول في دعائه: «اللّهمّ كبرت سنّي، وضعفت قوّتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني غير مضيّع ولا مفرط»[1].

وكان عثمان بنفسه يشعر بهذا التفاوت العظيم بين العصرين، ويتخوّف من استفحال هذا الداء ويخوّف منه، فكان يقول لمحدّثيه كما يقول في خطبه: (إن ما ابتلي به هذه الأُمة قدر واقع لا يُدفع، وإنما فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذي لا تجدي فيه الحيلة والمحاولة)[2].

ويقول الأُستاذ العقاد:

(إنما المحنة كلها أنه زمن كان يحتاج حيناً إلى ثقة الخلافة فلا يجدها، ويحتاج حيناً آخر، وفي حين نفسه، إلى سلطة الملك فلا يجدها، ولن يسلم حكم يحتاج إلى سند الثقة في موضعه، وإلى سند السلطة في موضعه، فلا يجد هذا ولا ذاك)[3].

ومع ذلك يقول العقاد:

(إن علاج عثمان لمشكلة الدولة (الخارجية) الذي فاجأته بعد ولايته، قد كان أحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الآونة: عزم وسداد، وسرعة مع الحيطة والأناة، والرفق في سياسة الأولياء والخصوم)[4].

وكانت أول نقمة على عثمان رضي الله عنه هي اختياره لعُمّال ليست لهم سوابق إسلامية، أو مكانة دينية رفيعة في المجتمع، أو صدرت منهم تصرفات كانت موضع نقد واستياء عند مَن ينظرون إلى الولاة بنظرة كانوا ينظرون

---

(١) العبقريات الإسلامية ٧١٧.
(٢) المرجع السابق ٧٩٩.
(٣) المرجع السابق ص ٨٢٦.
(٤) المرجع السابق ص ٨٠٤.

بها إلى عمال رسول الله ﷺ وسيدنا أبي بكر وعمر، فكثرت القالة فيهم والأحدوثة عنهم، وللخليفة والأمير اعتبارات إدارية وسياسية، يأخذ بها في اختيار الأمراء، ولا يستطيع أن يُقنع بها كل واحد، وأن يرجّح في اختيارهم الجانب الديني والخلقي دائماً.

يقول الأستاذ كرد علي في محاضراته الموسومة «بالإدارة الإسلامية»، نقلاً عن تاريخ الطبري:

(إن ثلاثة أرباع عُمّال النبي ﷺ من بني أميّة، لأنه إنما طلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها، وفي ذلك أعظم دليل على أن قيادة الجيوش وولاية السياسة وإدارة الحُكم، إنما هي شأن الإمام الأعظم، لا ينظر فيها إلى ثراء أو شرف قبيلة، أو قِدَم صحبة، أو كبر سنّ، بل ينظر فيها إلى العلم والكفاية، والقدرة على تدبير ما وُسّد إلى شخص وسياسته سياسة حكيمة راشدة)[1].

ويقول ابن أبي الحديد حاكياً عن قاضي القضاة عبد الجبّار، وهو يدافع عن عثمان في اختيار الولاة والعُمّال:

(لا يمكن أن يدَّعى أنه حين استعملهم علم من أحوالهم خلاف الستر والصلاح، لأن الذي ثبت عنهم من الأمور القبيحة حدثت من بعد، ولا تمنع كونهم في الأول مستورين في الحقيقة، أو مستورين عنده)[2].

ويقول الأستاذ كُرد علي:

(أفليس من الحكمة السياسية أن يعتمد عثمان على عَصَبَته وقومه، وهم موضع ثقته، وأحرص الناس على إنجاحه، وبلوغه مقاصده)[3].

---

(١) الإدارة الإسلامية ص ١٠٢..

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جـ٣ ص ١٢ (ذكر المطاعن التي طعن بها على عثمان رضي الله عنه والردّ عليها).

(٣) محاضرات الأستاذ كرد علي الموسومة «بالإدارة الإسلامية» ص ١٠٣.

ورغماً عن كل ما يمكن أن يقال في الاعتذار لعثمان في اختيار الولاة والأمراء وإقرارهم، والدفاع عنه، فإنا لا نراه معصوماً عن الخطأ، بل نراه مجتهداً قد يصيب وقد يخطىء، ولا نزكّي على الله أحداً، ولا نبرىء مروان بن الحكم، والوليد بن عقبة، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح في سلوكهم وفي استغلال قرابتهم وما لهم من مكانة عنده، أو كفاية وقدرة إدارة للأمور، ولكن غالبية الناقمين والثائرين على عثمان لم يكونوا مخلصين ولا متجردين عن الأغراض الشخصية والدوافع السياسية، وقد أجاد الأستاذ عباس محمود العقاد وأنصف إذ قال في تحليل هذه النقمة والعتاب:

(هو الإفراط والغلو في محاسبة الخليفة، وإسراف ومغالاة، وانتفاع بمبدأ حُرّية الرأي التي منحها الإسلام لأفراد الأمة الإسلامية، ووضعها في غيرها.

لقد كان من الناهضين لمحاسبة عثمان رضي الله عنه أُناس مغرضون، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون غير ما يقولون، كان منهم مَن أقام عليه الحدّ، ومَن حبس أباه في جريمة، ومَن فرّق بينه وبين حليلة تزوجها على غير الشريعة، ومَن أبى عليها الولاية، ولم يصنع به الخليفة أمراً من هذه الأمور، ولكنه كان منطوي النيّة على الفساد والإفساد، وكل هذه المآرب قد يثبت بها حركة المحاسبة على أعمال الخليفة)[1].

الفتنة تبلغ ذروتها

وهنا نحكي باختصار معتمدين على ما جاء في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، حكاية الفتنة حين بلغت ذروتها وانتهت إلى شهادة عثمان رضي الله عنه محصوراً في داره.

كان بمصر جماعة يبغضون عثمان، ويتكلمون فيه بكلام قبيح، وينقمون عليه في عزله جماعة من عِلْية الصحابة، وتوليته من دونهم، أو مَن لا يصلح

---

(١) العبقريات الإسلامية للعقاد ص ٧٠٦.

للولاية، وكره أهل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بعد عمرو بن العاص، واشتغل عبد الله بن سعد عنهم بقتال أهل المغرب وفتح بلاد البربر وأندلس وإفريقية، ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه، وكان عِظَم ذلك مسنداً إلى محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة، حتى استنفرا نحواً من ست مائة راكب يذهبون إلى المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب لينكروا على عثمان، وكتب عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح إلى عثمان يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة منكرين عليه في صفة معتمرين.

فلما اقتربوا من المدينة، أمر عثمان عليًّ بن أبي طالب أن يخرج إليهم ليردّهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة، ويقال بل ندب الناس إليهم، فانتدب عليّ لذلك، فبعثه، وخرج معه جماعة الأشراف، وانطلق عليّ بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظّمونه ويبالغون في أمره، فردَّهم وأنّبهم وشتمهم، فرجعوا إلى أنفسهم بالملامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به. وسألهم عليٌّ ماذا ينقمون عليه؟ فذكروا أشياء، فأجاب عليّ عن ذلك، وعلَّل لعثمان[1]، وردَّهم إلى قومهم فرجعوا خائبين من حيث أتَوا، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا أمّلوا وراموا، ورجع عليّ إلى عثمان فأخبره برجوعهم عنه، وأشار عليّ على عثمان بالرأي، فاستمع عثمان نصيحته، وقابلها بالسمع والطاعة.

وتكاتب أهل مصر، وأهل الكوفة، وأهل البصرة، وتراسلوا وزُوّرت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة[2]، فلما كان في شوال سنة خمس وثلاثين، خرج أهل مصر، وخرجوا فيما يظهرون للناس حُجّاجاً، وزحفوا على

---

(١) راجع للتفصيل ابن كثير جـ ٧ ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) يذهب كثير من الباحثين أن لعبد الله بن سبأ الصنعاني، الذي كان يهودياً وأسلم، نصيباً كبيراً ودوراً فعالاً في عملية التزوير والإثارة على عثمان، وسيأتي البحث عنه بالتفصيل في باب من أبواب خلافة سيدنا علي رضي الله عنه.

المدينة وأحاطوا بها، وذهب الصحابة إلى هؤلاء يؤنّبونهم ويعذلونهم على رجوعهم، حتى قال عليّ لأهل مصر: ما ردّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ فقالوا: وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا، وكذلك قال البصريون والكوفيون، وقال أهل كل مصر: إنما جئنا لننصر أصحابنا، فقال لهم الصحابة: كيف علمتم بذلك من أصحابكم، وقد افترقتم، وصار بينكم مراحل؟ إنما هذا أمر اتفقتم عليه.

وكان المصريون فيما ذُكِرَ لما رجعوا إلى بلادهم وجدوا في الطريق بريداً يسير، فأخذوه وفتشوه، فإذا معه في إداوة كتابٌ على لسان عثمان فيه الأمر بقتل طائفة منهم وبصلب آخرين، وبقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم، وكان على الكتاب طابع بخاتم عثمان، والبريد أحد غلمان عثمان على جمله، فلما رجعوا جاؤوا بالكتاب وداروا به على الناس، فكلّم الناس أمير المؤمنين في ذلك، فقال: بيّنة عليّ بذلك، وإلا فوالله لا كتبت ولا أمليت، ولا دريت بشيء من ذلك، والخاتم قد يُزوَّر على الخاتم، فصدّقه الصادقون في ذلك، وكذّبه الكاذبون.

يقول ابن كثير:

(زوّر هذا الكتاب على عثمان فإنه لم يأمر به، ولم يعلم به أيضاً).

ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده أن المصريين وجدوا ذلك الكتاب مع البريد، إلى عامل مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم، وصلب بعضهم، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان متأولاً قوله تعالى: ﴿ إنمـا جزاءُ الذين يحاربون الله ورسولَه ويَسْعَون في الأرض فساداً ﴾ إلى آخر الآية[1].

ولا شك أنهم كذلك، لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان، ويكتب

---

(١) راجع للتفصيل تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري جـ ٥ ص ١٠٤ - ١٠٥.

على لسانه من غير علمه، ويزور على خطه وخاتمه ويبعث غلامه على بعيره[1].

ويرجح عدد من الكُتّاب والباحثين أن قضية الكتاب من عثمان كانت أمراً مبيَّتاً وخُطّة مدبرة، يدلّ عليه ما جاء في ما ننقله من «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبّان»، وقريباً منه جاء في تاريخ الطبري، يقول الراوي:

(ثم رجع المصريون، فبينما هم في الطريق إذا هم براكب يتعرّض لهم ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم ويتبينهم، قالوا: ما لـك؟ إن لك الأمان، ما شأنك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه إلى عامله بمصر أن تصلبهم أو تقطع أيديهم وأرجلهم، فأقبلوا حتى رجعوا إلى المدينة، فأتوا عليّاً رضي الله عنه، وقالوا: ألم تَرَ عدو الله كتب فينا بكذا أو كذا؟! وإن الله قد أحلّ دمه، قُم معنا إليه، قال: والله لا أقوم معكم، قالوا: فلم كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتاباً قطُّ، فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قال بعضهم لبعض: ألهذا تقاتلون، أو لهذا تغضبون)[2]؟

وروي بأن عليّاً رضي الله عنه قال:

(كيف علمتم يا أهل البصرة بما لقي أهل مصر؟ وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا هذا، والله أمر أُبرم بالمدينة)[3].

---

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ١٨٦.

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبّان، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ص ٥٣٢، (دار الكتب العلمية).

(٣) تاريخ الأُمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري جـ ٥ ص ١٠٥.
ومِمّا يشكِّكُ في صحة هذا الكتاب المزعوم وصدوره من سيدنا عثمان، أنه كان موجّهاً إلى عبد الله بن سعد بـن أبي سرح عامل مصر في تلك الفترة، وقد كان عثمان ومروان يعلمان أنه ليس في مصر وقد أذن له بالمجيء إلى المدينة ويعلمان أنه خرج من مصر (الطبري جـ ٥ ص ١٢٢) وكان المتسلط على الحكم في الفسطاط محمد بن أبي حذيفة (هامش كتاب العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي) ص ١١٠.

حصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان وشهادته رضي الله عنه، ودور سيدنا علي الرائع في حمايته

وحدثت بعد ذلك مشاغبات ومهاجمات على خليفة المسلمين سيدنا عثمان، لم تكن لائقة بمكانة الخلافة وبهذا العهد الذي كان قريباً من عهد النبوّة وخلافة الخليفتين أبي بكر وعمر، ولكنه كان كما يقول العقاد: (مشاغبة من مشاغبات الدهماء التي لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل).

وألجأه الثوار إلى داره، وضيقوا عليه وأحاطوا بها محاصرين له، ولزم كثير من الصحابة بيوتهم، وسار إليه جماعة من أبناء الصحابة عن أمر آبائهم، منهم الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وصاروا يحاجّون عنه ويناضلون دونه أن يصل إليه أحد منهم، وانقطع عثمان عن المسجد، وكان الحصار مستمراً من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة، فلما كان قبل ذلك بيوم قال عثمان للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار، وكانوا قريباً من سبع مائة، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن والحسين، ومروان، وأبو هريرة، وخلق من مواليه - ولو تركهم لمنعوه - فقال لهم: أقسم على مَن لي عليه حق أن يكفَّ يده وأن ينطلق إلى منزله، وعنده من أعيان الصحابة وأبنائهم جمٌّ غفير، وقال لرقيقه: مَن أغمد سيفه فهو حُرٌّ.

وروي أن آخر مَن خرج من عند عثمان من الدار بعد أن عزم عليهم في الخروج الحسن بن علي[1].

ولما استأذنه عليٌّ - رضي الله عنه - للقتال والدفاع عنه، قال عثمان: أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقرّ أن لي عليه حقاً أن يهريق في سببي ملء محجمة من دم، أو يهريق دمه فيّ، فأعاد عليٌّ عليه القول فأجابه مثل ما أجابه، ثم دخل المسجد وحضرت الصلاة، فقالوا: يا أبا الحسن تقدّم فصلٍّ

---

(١) ابن كثير جـ٧ ص ١٨١ - ١٨٢ باختصار.

بالناس، فقال: لا أُصلّي بكم، والإمام محصور، ولكن أُصلّي وحدي، فصلَّى وحده، وانصرف إلى منزله[1].

واشتدَّ على عثمان الحال وضاق المجال، ونفد ما عنده من الماء، فاستغاث بالمسلمين في ذلك، فركب عليّ بنفسه، وحمل معه قِرَباً من الماء، فبالجهد، حتى أوصلها إليه بعد ما ناله من جهالة أولئك كلام غليظ وتنفير لدابّته[2].

وروي أن معاوية قال لعثمان: انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مَن لا قبل لك به، فقال له عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطع خيط عنقي، فقال له معاوية: فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن كانت، فقال عثمان: أنا أُقتّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم، وأضيق على أهل الهجرة والنصرة؟ فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتُغتالَنَّ أو لتُغزيَنَّ، قال عثمان رضي الله عنه: حسبي الله ونعم الوكيل[3].

وقتل طائفة من أهل الدار وآخرون من أولئك الفُجّار، وجُرِحَ عبد الله بن الزبير جراحات كثيرة، وكذلك جرح حسن بن عليّ.

وطلبوا من عثمان أن يخلع لهم أمرهم فيقول: هذا أمركم فاختاروا مَن شئتم فقال: أما أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلع لهم سربالاً سربلنيه الله[4]. وكان ذلك عملاً بوصية رسول الله ﷺ، فقد روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا عثمان، لعلّ الله يقمصك قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلع»[5].

---

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) ابن كثير جـ ٧ ص ١٨٧.

(٣) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري جـ ٥ ص ١٠١.

(٤) البداية والنهاية جـ ٧ ص ١٨٤.

(٥) الجامع الصحيح للترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان (حديث رقم ٣٧٠٥).

تقول نائلة امرأة عثمان: لما حصر عثمان ظل اليوم الذي كان فيه قتله صائماً[1].

وعن نافع عن ابن عمر أن عثمان رضي الله عنه أصبح يحدّث الناس، قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: يا عثمان، أفطر عندنا، فأصبح صائماً، وقتل من يومه[2]، وبين يديه المصحف وهو يتلو القرآن[3].

وكان قتله يوم الجمعة ١٨ من ذي الحجة سنة ٣٥ من الهجرة.

أثر العقيدة في عثمان وسيرته وعلوّ مكانته في الإسلام

ونختم هذا الباب الثقيل الفاضح المُخجِل للمسلمين بتعليق للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد على سيرة سيدنا عثمان وموقفه من هذه الفتنة:

(أما الخليفة عثمان رضي الله عنه، فأثر العقيدة فيه، وهو فرد، أوضح من أثرها في مَن قدموا إليه من الأمصار ليناظروه ويحاسبوه، وهو واحد من آحاد معدودين، لم يكن في وسع العقل أن يتخيلهم في جاهليتهم على حالتهم التي ارتفعوا إليها بعد الإسلام)[4].

(وقد بلغ الذروة من محاسبة النفس والتحرّج من المساس بالحياة البشرية، ولو في سبيل الذود عن حياته وحياة أقرب الناس إليه، فلما أيقن من القتل أبى أن يبقى في داره مَن يقتل أحداً ممّن يحيطون بها ويعالجون اقتحامها لاغتياله، ولما سئل أن يتنحّى عن الخلافة أبى أن يتنحّى عنها، ولم يكن إباؤه ضنّاً بشيء يحتويه، فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه، لا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالاً، بل يتفق المؤرخون على أنه ترك الدنيا وما له أقلُّ مما كان لديه يوم وُلّي الخلافة، ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذراً من أن يحمل جريرة الخلع وما يعقبه من النزاع والقتال، وقد صرّح بذلك غير مرة،

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ١٨٣.
(٢) المرجع السابق جـ ٧ ص ١٨٢.
(٣) راجع للتفصيل: المرجع السابق، جـ ٧ ص ١٨٤ - ١٨٥.
(٤) العبقريات الإسلامية ص ٧٠٨.

فقال: إنه يخشى على الذين يستطيلون أيامه أن يتمنَّوا بعده لو كان يومه مائة سنة، فلا يبوأنَّ بالعاقبة المحذورة وهو مختار.

فإذا تركنا الحوادث جانباً، ونظرنا إلى التاريخ في صدر الإسلام على أنه تاريخ قِيَم ومبادىء، فلنا أن نقول: إننا أمام صدمة يصطدم بها مَن يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها، فلا صدمة هناك إذا نحن وزنّا الحوادث بميزان القِيَم، وعلمنا أن التاريخ لن يخلو من الحوادث، وأن حوادث الخلاف ليست بأكبر الشُّرور التي تبتلى بها ضمائر بني إنسان)[1].

ويقول في آخر كتابه «عبقرية عثمان»:

(لئن كان مصرع عثمان شرّاً مُطبقاً، لقد كان كجميع الشرور، ينطوي على خير يبقى بعد زوال الغاشية في حياة فرد أو أفراد.

كان الخير فيــه ذلك الحق الذي آمن به مَن لا يحسنونه، فأراهم أنهم أهل لحساب وليّ الأمر، وهو يبسط سلطانه من تخوم الصين إلى بحـر الظلمات.

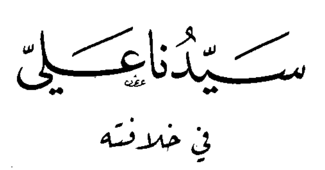
وكان الخير فيه ذلك الإيمان الصادق الذي صمد به شيخ في التسعين للكرب المحيق به، وهو ظمآن محصور في داره بغير نصير، ولو شاء لكان له ألوف من النصراء يريقون البحار من الدماء، حيث عزَّت قطرة الماء)[2].

---

(١) العبقريات الإسلامية ص ٧٠٨ ـ ٧٠٩.

(٢) المرجع السابق ص ٨٣٧.

الفصل السادس



مبايعة علي - أول خطبة لسيدنا علي بعد الخلافة - عهد خلافة علي ومعضلاته ومصاعبه - بدء الخلاف وحرب الجمل - توقير علي لعائشة - بين علي ومعاوية - حرب صفِّين - خروج الخوارج - قبول علي للتحكيم وجَوْر الخوارج في الحكم عليه - الخوارج والسبئيّة.



الفَصْلُ السَّادِسُ

سَيِّدُنا عَلِيّ

في خلافته

مبايعة علي

بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ـ وأميرها الغافقي بن حرب ـ يلتمسون مَن يجيبهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحّون على عليٍّ، وهو يهرب منهم إلى الحيطان[1]، فحارَ الناس في أمرهم، ورجعوا إلى علي وألحّوا عليه، وبايعه الناس، وذلك بعد مراجعة الناس لهم في ذلك، وكلهم يقول: (لا يصلح لها إلا عليّ)، وفي الحقيقة لم يكن في الأمة الإسلامية الموجـودة والجيل الذي لا يزال على قيد الحيـاة ـ بعد أبي بكـر وعمر وعثمان ـ أحقّ بالخلافة وولاية أمر المسلمين من سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يقول الراوي:

خرج علي إلى المسجد فصعد المنبر، وعليه إزار وعمامة خزّ، ونعلاه في يده، يتوكأ على قوسه، فبايعه عامة الناس، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين[2].

أول خطبة لسيدنا علي بعد الخلافة

ولما كان يوم الجمعة، صعد على المنبر وبايعه مَن لم يبايعه، وكانت

---

(١) الحائط: البستان من النخيل، إذا كان عليه حائط وهو الجدار، جمعه حيطان.

(٢) ملخصاً من البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

هذه البيعة يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، وكان أول خطبة خطبها، أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

(إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرّم حُرُماً مجهولة، وفضّل حرمة المسلم عل الحُرُم كلها، وشدَّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلم مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحلّ لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة والخاصة، فإن الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم، فتخفّفوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشرَّ فدعوه، ﴿ واذكـروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناس، فآواكم وأيّدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾[١])[٢].

وجاءت هذه الخطبة في أوانها ومكانها، وضرب أمير المؤمنين على الوَتَر الحسّاس، ووضع الأصبع على موضع الداء، فكان أكبر ما ابتُلِيَ به المسلمون في هذه الفترة التاريخية هي الاستهانة بحرمة المسلم، والاجتراء على سفك دمه وإهدار كرامته، وقد كان خليفة المسلمين سيدنا عثمان رضي الله عنه هدف هذه الفتنة العمياء، وقد وقع ذلك على مرأىً ومسمع من الناس في مدينة الرسول وبجوار مسجده ومرقده، وكان من واجب الخليفة الذي يلي أمر المسلمين أن يركِّز على رعاية حُرمة المسلم، ومخافة الله عزّ وجل في ذلك، والحثّ على تقوى الله في عباده وبلاده، حتى في البقاع والبهائم.

وقد أشار في حكمة وبلاغة إلى النهج الذي يستقبلون به عهد الخلافة الجديد بقوله: (إذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه)، وختم بالآية التي كانوا في حاجة إلى استحضارها، ليقارنوا بها بين ما كانوا عليه قبل

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٦.

(٢) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

الإسلام وبعد الإسلام - إلى أمَدٍ بعيد - من القلة والضعف، والضَّعة والخمول، حتى كانوا كقطعة لحم على كف يتخطفها الطير، ثم ما صاروا إليه من القوة والسَّعة والأمن والسَّلام، والرخاء والثراء، وما أكرمهم الله به من نفاذ الكلمة وبسط السلطان، وما أغدقه الله به عليهم من النِعَم، فطنّت حصاتهم، وخفقت راياتهم، ودان لهم العباد والبلاد.

عهد خلافة عليّ ومعضلاته ومصاعبه

بويع لسيدنا علي بالخلافة في فترة من أدق الفترات التاريخية وأكثرها تعقُّداً وامتحاناً تولّى فيها رجل الحكم وقيادة المجتمع، أو بويع لخليفة من خلفاء المسلمين، فقد وقعت فيها حادثة شهادة خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه في أبشع شكل وأكثره قسوة ووحشية، واجتمعت فيها عوامل الاستنكار، وإثارة المشاعر والضمائر، وكثرت الشائعات والقياسات، والتساؤلات والشبهات، وقويت التطلُّعات والمُتَطلَّبات، وخبر الشهادة حديث المحافل والنوادي، وموضوع الحاضر والبادي، وتزعّم رفع الصوت في هذا الحادث والنداء بطلب القصاص، مَن لم يحرِّك - أوان وقوع الحادث - ساكناً، ولم يُرق فيه قطرة من عَرَق فضلاً عن دم، من رجال البادية وأهل مصر والعراق.

وذلك شأن المجتمعات البشرية في مختلف الأزمنة والأمكنة عقب حوادث غير عادية، إذا فقدت الهدوء والاستقرار، ولم تُشغَل بأمر يستهلك قواها ويستقطب عنايتها واهتمامها، كالحروب والغزوات، والفتوح والانتصارات، أو بأُمور جِدّية بنّاءة، كترقية المجتمعات أو تنظيم للمملكات، ولم يكن من ذلك شيء في ذلك الوقت، فقد استشهد خليفة ولم يستتبَّ الأمرُ لخليفة جديد، فكان المجتمع الإسلامي يعيش في فراغ، ولا شيء أكثر خطراً وأكبر ضرراً من الفراغ في حياة مجتمع مُحدَق بالأخطار، أو مملكة وليدة محاطة بالأعداء الكبار.

وقد أجاد الأُستاذ الكبير عباس محمود العقاد تصوير هذه المشكلة

والمحنة التي واجهها سيِّدنا علي بن أبي طالب كخليفة للمسلمين ووليّ للأمر، مع أنه كان من أبرأ الناس من تَبِعة هذا الحادث ومسؤوليته، لأن نصيبه في الدفاع عن عثمان كان أكثر وأوفر من دفاع أيّ واحد من أجلّة الصحابة شيوخاً، وكان نصيب ابنه الحسن أكثر من نصيب أيّ واحد من أبناء الصحابة شباباً.

يقول العقاد:

(بويع لعليّ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدّامية في تاريخ الإسلام، وهي مقتل عثمان بن عفان في شيخوخته الواهنة، بعد أن حصروه بين جدران داره، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام.

وأفجع ما كان في هذه الحادثة أنها بلاء لا يدفع، وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه، لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه، فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء، وإذا بطل الشرُّ الذي فيه اختيار، لم يبطل الشرُّ الذي لا اختيار فيه، وربما كان حسن النيّة وسوء النيّة هنا صِنْوين متساويين، فمن الأعمال المؤسفة التي عجّلت بالفاجعة، أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه، أو لعلّه أقدم عليها بعد قصد ومراجعة، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مغبّتها بأهون من أعمال الأعداء)[1].

ويقـــول:

(كان عليه ـ على عليٍّ ـ أن يكبح الفرس عن الجماح، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفَرَس، كما حيلَ بينها وبين الانطلاق)[2].

وكانت المشكلة الثانية أن المتلوِّثين بعمليّـــة قتل عثمان والمرتكبين له، لم يكونوا مشخَّصين تشخيصاً تاماً يؤخذون بالمشاهدة أو الشهادة الشرعية التي يسوغ بها القصاص، حتى إن زوجة عثمان نفسها لم تستطع أن تعيّنهم بالتحديد، وكان هنالك أكثر من هذه المشكلة، يقول العقاد:

---

(١) العبقريات الإسلامية ص ٨٨٠.

(٢) المرجع السابق ص ٨٨٥.

(وقد تحدَّث الإمام مرة في أمر القَوَد من قَتلَة عثمان، فإذا الجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح، ويجهرون بأنهم كلهم قَتَلَة عثمان، فمَن شاء القَوَد فليأخذ منهم أجمعين)[1].

ويقــول:

(وكان الإمام يقول لمن طلب منه إقامة الحدود:

إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم بينكم يسومونكم مـا شاؤوا، فهـل ترون مـوضعاً لقـدرة على شيء مما تريدون)[2]؟

(ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا، يؤيدون وليّ الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف)[3].

ويقول الحافظ ابن حجر في الإصابة:

(كان رأي عليّ أنهم يدخلون في الطاعة، ثم يقوم وليّ دم عثمان، فيدَّعي به عنده، ثم يعمل معه ما يوجبه حكم الشريعة المطهّرة. وكان مَن خالفه يقول له: تتبَّعهم واقتُلهم، فيرى أن القصاص بغير دعوى، ولا إقامة بيِّنة لا يتَّجه، وكلٌّ من الفريقين مجتهد)[4].

---

(١) العبقريات الإسلامية ص ٩٢٤.

(٢) المرجع السابق ص ٩٢٤.

(٣) المرجع السابق ص ٩٢٤.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، جـ ٢ ص ٥٠٨.

يقـول الأستاذ محمـد صـالـح أحمـد الغـرسي في كتـابـه «فصـل الخـطاب في مـواقف الأصحاب»: (ومعاوية نفسه لما صار إليه الأمر لم يمكنه أن يفعل إلا ما كان عليّ يراه في بادىء الأمر، ولم يمكنه أن يقتل من قَتَلَة عثمان أحداً بغير حكم) (ص ١٢٣).

بدء الخلاف وحرب الجمل

يقول ابن كثير:

(ولما استقر أمر بيعة علي، دخل عليه طلحة والزبير، ورؤوس الصحابة رضي الله عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا)[١].

ويقول ابن سعد في الطبقات الكبرى، بعد ما ذكر أسماء كبار الصحابة الذين بايعوا عليّاً رضي الله عنه وجميع مَن كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم:

(خرجا - يعني طلحة والزبير - إلى مكة وبها عائشة[٢]، ثم خرجا من مكة ومعهما عائشة إلى البصرة يطلبون بدم عثمان، وبلغ عليّاً عليه السلام ذلك، فخرج من المدينة إلى العراق، وخلّف على المدينة سَهْل بن حُنَيف[٣]، ثم كتب إليه أن يقدم عليه، وولّى المدينة أبا حسن المازني، فنزل ذا قار، وبعث عمّار بن ياسر والحسن بن علي إلى أهل الكوفة يستنفرهم للمسير معه، فقَدِموا عليه فسار بهم إلى البصرة، فلقي طلحة والزبير وعائشة ومَن كان معهم من أهل البصرة وغيرهم يوم الجمل[٤] في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وظفر بهم، وبلغت القتلى ثلاثة عشر ألف قتيل[٥]، وأقام علي بالبصرة خمس عشرة ليلة، ثم انصرف إلى الكوفة[٦].

---

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٢٨.

(٢) وكانت خرجت رضي الله عنها للحج، وكانت شهادة عثمان في ١٨ من ذي الحجة.

(٣) سهل بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسي، أبو سعد، صحابي من السابقين، شهد بدراً وثبت يوم أُحد، وشهد المشاهد كلها، وآخى النبي (ﷺ) بينه وبين علي بن أبي طالب، واستخلفه عليّ على البصرة بعد وقعة الجمل، وولاّه عليّ على الشام مكان سيدنا معاوية، وشهد معه صفّين، وتوفي بالكوفة سنة ٣٨ هـ، فصلى عليه علي، له في كتب الحديث ٤٠ حديثاً (الأعلام للزِّرِكْلي جـ ٣ الطبعة الثالثة ١٩٦٩ بيروت).

(٤) سُمّي يوم الجمل، وسمِّيت الوقعة بوقعة الجمل لأن السيدة عائشة كانت في هودج على الجمل تقود المعركة.

(٥) وقد ذكر أقل من هذا العدد، فهو في البداية والنهاية عشرة آلاف.

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ٣١ - ٣٢.

وقد سأل بعض أصحاب عليّ عليّاً أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير، فأبَى عليهم فطعن فيه السبئيّـة، وقالوا: كيف تحلّ لنا دماؤهم، ولا تحلّ لنا أموالهم؟ فبلغ ذلك عليّاً، فقال: أيّكم يحب أن تصير أُم المؤمنين في سهمه؟ فسكت القوم[1].

توقير عليّ لعائشة

وكانت معاملة عليّ للسيدة عائشة رضي الله عنها في غاية الإكرام والتوقير، يقول المؤرخون:

سرَّح علي رضي الله عنه عائشة وأرسل معها جماعة من الرجال، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وأمر لها باثني عشر ألفاً من المال، فاستقلَّ ذلك عبد الله بن جعفر (ابن أبي طالب) وجهَّز لها مالاً عظيماً، وقال: إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو عليَّ، ولم تُصَب إلا بخدش من سهم، ولما كان اليوم الذي ارتحلت فيـه أتاها عليّ فوقف لها، وحضر الناس وودَّعتهم وقالت: يا بَنِيَّ لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها، وإنه على معتبتي لَمِنَ الخِيار، فقال عليّ: صدقتْ والله، ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيّكم في الدنيا والآخرة، وسار عليٌّ معها مودّعاً ومشيّعاً أميالاً، وسرّح بنيه معها بقيـة ذلك اليـوم، وكان يـوم السبت مستهلَّ رجب سنـة ست وثلاثين[2].

وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنها كانت تقول:

(ليتني متُّ قبل يوم الجمل)، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبلَّ خمارها[3].

---

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٤٥.

(٢) المرجع السابق جـ ٧ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) اقرأ للتفصيل «سيرة عائشة» للعلاّمة السيد سليمان الندوي، وهو من خير ما كتب عنها، تعريب الأستاذ محمد ناظم الندوي.

وبعد أن انتهت الموقعة مرَّ عليٌّ بين القَتلَى، فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال: زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء، وهذا فلان وهذا فلان، ثم صلَّى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً[1].

ورجع الزبير يوم الجمل وسار فنزل وادياً يقال له وادي السباع، فاتَّبعه رجل اسمه عمرو بن جرموز، فجاءه وهو نائم فقتله غيلة، وأما طلحة فجاءه في المعركة سهم غرب، (ويقال رماه به مروان بن الحكم)، ونزفه الدم، وجاء إلى بيت في البصرة فمات فيه رضي الله عنهما[2].

ويقال بأن طلحة مات بالمعركة، وأن عليّاً لما دار بين القتلى رآه، فجعل يمسح عن وجهه التراب، وقال: رحمة الله عليك أبا محمد، يعزّ عليَّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري، والله لوددت أني كنت متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة[3].

وأما الزبير فلما قتله عمرو بن جرموز واحتزَّ رأسه، ذهب به إلى عليّ رأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده، فاستأذن، فقال علي: لا تأذنوا له وبشِّروه بالنار، وفي رواية أن عليّاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشِّر قاتل ابن صفيّة بالنار»[4].

* * *

كانت حرب الجمل كفَوْرة ماء يغلي، ففارت ثم هدأت وسكنت، وكانت الحرب بين عليّ ومعاوية صراعاً بين نظامين متوازيين[5]، وحرباً بين معسكرين قويين، يطول الحديث عنها، وسنذكره باختصار.

---

(١) محاضرات تاريخ الأُمم الإسلامية (الدولة الأموية) للأُستاذ الخضري بك جـ ٢ ص ٥٨.
(٢) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٤٢.
(٣) المرجع السابق جـ ٧ ص ٢٤٨.
(٤) المرجع السابق جـ ٧ ص ٢٥٠.
(٥) سيأتي الحديث عن الاختلاف بين هذين النظامين وأسبابه ونتائجه في الباب السابع.

بين عليّ ومعاوية

استهلّت سنة ست وثلاثين من الهجرة، وقد تولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخلافة، وولّى على الأمصار نُوّاباً، وولّى على الشام سهل بن حُنيف بدل معاوية، فسار حتى بلغ تبوك، فتلقّته خيل معاوية، فقالوا: مَن أنت؟ فقال: أمير، قالوا: على أيّ شيء؟ قال: على الشام، فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحيّ هلا بك، وإن كان غيره فارجع، فقال: أو ما سمعتم الذي كان؟ قالوا: بلى، فرجع إلى عليّ.

وبعث معاوية طوماراً مع رجل، فدخل به على عليّ، فقال: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَد، كلهم موتور، تركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال عليّ: اللَّهمّ إني أبرأ إليك من دم عثمان.

وعزم عليٌّ على قتال أهل الشام، وخطب الناس فحثَّهم على ذلك، وعزم على التجهُّز، وخرج من المدينة، واستخلف عليها قُثَم بن عباس، وهو عازم على أن يقاتل بمَن أطاعه من عصاه وخرج عن أمره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسن بن عليّ فقال: يا أبت دَعْ هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه ذلك، بل صمَّمَ على القتال، ورتَّب الجيش[1]، واستخلف على المدينة قُثَم بن العباس، ولم يبقَ شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً إلى الشام، حتى جاءه ما شغله عن ذلك كله[2].

ولما فرغ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من وقعة الجمل ودخل البصرة وشيَّعَ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما أرادت الرجوع إلى مكّة،

---

(١) كان موقف عليّ من الدفاع عن الخلافة والمحافظة على كرامتها وحرمتها، كموقف عثمان في الإباء عن التنازُل عن الخلافة، ولو تنازل كلّ خليفة عمّا قلّده المسلمون من مسؤولية وثقة لاختلافٍ أو خطر، لأصبحت الخلافة لعبة في أيدي العابثين والثائرين.

(٢) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠، والذي شغله عن الشام، هو حرب الجمل التي مرَّ خبرها في هذا الفصل.

سار من البصرة إلى الكوفة، فدخلها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلَت من رجب سنة ست وثلاثين، وقيل له: انزل بالقصر الأبيض، فقال: لا، إنّ عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، وأنا أكرهه لذلك، فنزل في الرحبة، وصلّى في الجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس، فحثّهم على الخير ونهاهم عن الشرّ، وبعث جرير بن عبد الله إلى معاوية، وكتب معه كتاباً، يقول فيه:

(إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك لله رضاً، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة، رَدُّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتَلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين، وولّاه الله ما تولى)[1].

حرب صِفّين[2]

وخرج أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب من الكوفة عازماً على الدخول إلى الشام، وبلغ معاوية أن عليّاً قد خرج بنفسه، فكتب إلى أجناد الشام فحضروا، وعُقِدت الألوية والرايات للأُمراء، وتهيَّأ أهل الشام وتأهَّبوا، وخرجوا أيضاً إلى نحو الفرات من ناحية صِفّين ـ حيث يكون مقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وسار عليّ بمَن معه من الجنود قاصداً أرض الشام، وبعث الأشتر النخعي أميراً، وأمره أن لا يتقدَّم إلى أهل الشام لقتال حتى يبدؤوه بالقتال، ولكن لِيَدْعُهم إلى البَيْعة مرّة بعد مرّة، فإن امتنعوا فلا يقاتلهم حتى يقاتلوه، ولا يقرب منهم قُرْب مَن يريد الحرب، ولا يبتعد منهم ابتعاد مَن يهاب الرجال، وصابِرْهم حتى آتينَّك، فأنا حثيث السير وراءك إن شاء الله.

---

(١) جاء هذا الكتاب في نهج البلاغة في مجموع رسائله رضي الله عنه، نهج البلاغة ص ٣٣٦ - ٣٦٧، طبع دار الكتاب اللبناني - بيروت، والظاهر من أُسلوب الكتاب ونهجه أنه من رسائل أمير المؤمنين، وقد جاء في كتب أُخرى من التاريخ.

(٢) صفّين: بكسر أوله وثانيه وتشديده: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من غربيّها وقيل من شرقيّها، بها كانت الوقعة بين علي رضي الله عنه ومعاوية (مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) لصفيّ الدين البغدادي، جـ ٢ ص ٨٤٦.

فلما قَدِمَ الأشتر المقدّمة امتثل ما أمره عليّ، فتواقف هو ومقدمة معاوية، فثبتوا لهم واصطبروا لهم ساعة، ثم انصرف أهل الشام عند المساء، فلما كان الغد تواقفوا أيضاً وتصابروا، وكانت مناوشات وتحاجز القوم عن القتال بإقبال الليل من اليوم الثاني، فلما كان صباح اليوم الثالث أقبل عليّ في جيوشه، وجاء معاوية رضي الله عنه في جنوده، فتواجه الفريقان، وتقابلت الطائفتان، واشتدَّت الحرب بينهم أكثر مما كانت، وما زال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء ـ الذي كانوا قد استولوا عليه ومنعوا أهل العراق من التروّي منه، ثم اصطلحوا فيما بينهم على ورود الماء، لا يمنع أحد أحداً منه ـ فأمر علي أن لا يمنع أهل الشام من الماء، فكانوا يسقون جميعاً.

ودعا عليّ بعض أصحابه، فقال: ايتوا هذا الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة، واسمعوا ما يقول لكم.

وصمَّمَ معاوية على القيام بطلب دم عثمان الذي قُتِلَ مظلوماً، فعند ذلك نشبت الحرب بينهم، وربما اقتتل الناس في اليوم مرتين، فلما انسلخ ذو الحجة، ودخل المحرم تداعى الناس للمتاركة، لعلّ الله أن يصلح بينهم على أمر يكون فيه حقن دمائهم.

ولم تزل الرسل تتردَّد بين علي ومعاوية والناس كافُّون عن القتال حتى انسلخ المحرم من هذه السنة، ولم يقع بينهم صلح، ونهض معاوية وعمرو بن العاص فعبَّيا الجيش ميمنة وميسرة، وبات عليّ يعبّي جيشه، وتقدَّم إلى الناس أن لا يبدأ أحد بالقتال حتى يبدأ أهل الشام، وأن لا يذفَّف على جريح، ولا يُتبع مُدْبر، ولا يكشف ستر امرأة ولا تُهان وإن شتمت أُمراء الناس وصُلحاءهم.

واقتتل الناس قتالاً شديداً، ثم تراجعوا من آخر يومهم، وقد انتصف بعضهم من بعض وتكافؤوا في القتال، وكان ذلك يومين، ثم خرجوا في اليوم الثالث فاقتتل الناس قتالاً شديداً وتراجع الناس من العشيّ، وخرجوا في اليوم الرابع، ثم في اليوم الخامس، فلما كان اليوم السابع ولم يغلب أحد أحداً في هذه الأيام كلها، وبايع أهل الشام معاوية على الموت، وحرَّض أمير

المؤمنين علي الناس على الصبر والثبات والجهاد، وحمل الأشتر النخعي فصدق الحملة حتى خالط الصفوف الخمسة الذين تعاقدوا أن لا يفرّوا وهم حول معاوية، وتراجع أهل العراق فاجتمع شملهم ودارت رحى الحرب بينهم، وجالوا في الشاميين وصالوا، وقتل عمّار بن ياسر رضي الله عنه، قتله أهل الشام، وبانَ بذلك كما يقول ابن كثير أن عليّاً مُحِقٌّ[1].

ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك، فصُلِّي بالناس الصبح إيمــاءً وهم في القتال حتى تضاح النهار، وتوجّه النصر لأهل العراق على الشام، وكادوا ينهزمون، فعند ذلك رفـع أهل الشــام المصاحف فوق الرماح[2]، وقالوا: هذا بيننا وبينكم، وقد فني الناس فمَن للثغور، ومَن للجهاد وللمشركين والكفّار؟

فلما رُفعت المصاحف قال أهل العراق: نُجيب إلى كتاب الله ونُنيب إليه، وقال مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي، ثم السبئيّ في عصابة معهما من القرّاء الذين صاروا بعد ذلك خوارج: يا علي أجب إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه، وإلا دفعناك برمّتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفّان، قال علي: فاحفظوا عنّي نهيي إيّاكم، واحفظوا مقالتكم لي، أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم. ووعظهم الأشتر وناظرهم فلم يكفُّوا. ورغب أكثر الناس من العراقيين وأهل الشام بكمالهم إلى المصالحة والمســالمة، ووقف القتـال، وتراوض الفـريقان بعـد مكاتبـات ومراجعات يطول ذكرها على التحكيم، وهو أن يحكّم كل واحد من الأميرين ـ علي ومعاوية ـ رجلاً من جهته، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة للمسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص، وأراد علي أن يوكّل عبد الله بن عباس ولكنه منعه القرّاء وقالوا: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري.

---

(١) يقول العلاّمة ابن حجر: (تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ أن عمّاراً تقتله الفئة الباغية، وأجمعوا على أنه قتل مع عليّ بصفّين سنة سبع وثلاثين) (الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٢ ص ٥١٣).
(٢) ذكر ابن جرير وغيره من أهل التاريخ أنَّ الذي أشار بهذا هو عمرو بن العاص.

التحكيم

وذهبت الرسل إلى أبي موسى الأشعري ـ وكان قد اعتزل ـ فلما قيل له إن الناس قد اصطلحوا، قال: الحمد لله، قيل له قد جُعلت حكماً، فقال: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون)، ثم أخذوه حتى أحضروه إلى علي، وكتبوا بينهم كتاباً[1]، وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأُمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه.

خروج الخوارج

مرّ الأشعث بن قيس على ملأ من بني تميم، فقرأ عليهم الكتاب، فقام إليه عروة بن أُذينة، فقال: أتحكّمون في دين الله الرجال؟ وقد أخذ هذه الكلمة من هذا الرجل طوائف من أصحاب علي من القرَّاء، وقالوا: لا حُكم إلا لله، وكان ذلك أول الخروج الذي قامت عليه طائفة الخوارج ودانت به، واتخذت هذه الكلمة شعاراً لها وعقيدة.

ورجع علي إلى الكوفة، ولما قارب دخولها اعتزل من جيشه قريب من اثني عشر ألفاً، وهم الخوارج، ونزلوا بمكان يقال له حروراء[2]، وبعث إليهم علي رضي الله عنه عبد الله بن العباس فناظرهم ورجع أكثرهم وبقي بقيتهم، وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونقموا على عليّ بأنه حكَّمَ في دين الله، ولا حُكم إلا لله.

ذكر ابن جرير أن عليّاً بينما هو يخطب يوماً، إذ قام إليه رجل من الخوارج، فقال: يا علي أشركتَ في دين الله رجالاً، ولا حُكم إلاّ لله؟! فتَنادَوا من كل جانب: لا حُكمَ إلا لله لا حُكم إلا لله، فجعل عليٌّ يقول: هذه كلمة حقّ يراد بها باطل، ثم إنهم خرجوا بالكلّية عن الكوفة، وتحيَّزوا إلى النهروان.

---

(١) راجع البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٧٧.

(٢) وإليه نسبت الخوارج، ويقال للخارجي: الحَروري.

واجتمع الحكمان - أبو موسى وعمرو بن العاص - بدومة الجندل، وذلك في شهر رمضان، وتراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير الأمور، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية، ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس، ليتّفقوا على الأصلح، وحاول عمرو بن العاص أبا موسى على أن يقرّ معاوية وحده على الناس، فأبى عليه، ثم اصطلحا على أن يخلعا معاوية وعليّاً، ويترك الأمر شورى بين الناس ليتّفقوا على مَن يختاروه لأنفسهم.

ثم جاءا إلى المجمع الذي فيه الناس، فقال عمرو بن العاص لأبي موسى: يا أبا موسى قُمْ فأعلِم الناس بما اتفقنا عليه، فخطب أبو موسى الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على رَسول الله ﷺ، ثم قال: أيّها النّاس، إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأُمة فلم نرَ أمراً أصلح لها ولا ألمّ لشعثها من رأي اتفقتُ أنا وعمرو عليه، وهو أنّا نخلع عليّاً ومعاوية ونترك الأمر شورى وتستقبل الأُمة هذا الأمر، فيولّوا عليهم مَن أحبُّوه، وإني قد خلعت عليّاً ومعاوية، ثم تنحّى.

وجاء عمرو فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ هذا قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه، وأُثبِّتُ صاحبي معاوية، فإنه وليّ عثمان بن عفان والطالب بدمه، وهو أحقّ الناس بمقامه. ويقال إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة، وردّ عليه عمرو بن العاص مثله، واستحيى أبو موسى من عليّ فذهب إلى مكة[1].

واشتدَّ أمر الخوارج وبالغوا في النكير على عليّ، وصرَّحوا بكفره، وقال له أحد رؤوس الخوارج: (أما والله يا عليّ لئن لم تَدَع تحكيم الرجال في

---

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٧٦ - ٢٨٧ ملخصاً.

نفى القاضي أبو بكر بن العربي هـذه الروايـة، وقال: (إنمـا الذي روى الأئمـة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر في عصبة كريمة من الناس، منهم ابن عمر ونحوه، عزل أبو موسى علياً، وعزل عمرو معاوية، وفوّضا الأمر إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأن يرجع في الاختيار من جديد إلى هؤلاء النفر). (من العواصم من القواصم ص ١٧٢ - ١٨٠ باختصار).

كتاب الله لأقاتلنَّك، أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه)!! واجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وَهْب الراسبي، فخطبهم خطبة بليغة، زهّدهم في هذه الدنيا ورغّبهم في الآخرة والجنة، وحثّهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى هذا السواد، إلى بعض كُوَر الجبال، أو بعض هذه المدائن، وتواطؤوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس ويتحصَّنوا بها، فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأخوال والخالات، وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسماوات[1].

قبول علي للتحكيم وجور الخوارج في الحكم عليه

وقبل أن نتكلم عن الخوارج ونعرض لنفسيتهم وعقيدتهم المتطرّفتين، وننقدهم نقداً تاريخياً، نقدّم مقتطفاً مما قاله العقّاد عن موقف عليّ ومشكلته في كتابه العبقريات الإسلامية.

يقول العقــاد:

(أما الذين لاموه ـ يعني عليّاً ـ لقبوله التحكيم، فيخيّل إلينا من عجلتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول مَن يلومه ويفرط في لومه لو أنه رفض التحكيم وأصرَّ على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم، وله مندوحة عنه.

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال في عسكره، خلافاً بين مَن يقبلونه ويرتضونه.

والمؤرِّخون الذين صوّبوا رأيه في التحكيم، وخطّؤوه في قبول أبي موسى الأشعري على علمه بضعفه وتردّده، ينسَون أن أبا موسى كان مفروضاً عليه كما فُرِضَ عليه التحكيم في لحظة واحدة، وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن العاقبة متشابهة، سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري، أو ناب عنه الأشتر، أو عبد الله بن عباس، فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقرّ عليّاً

---

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٧٦ ـ ٢٨٧.

في الخلافة، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كلٍّ منهما لصاحبه، ورجعت الأمور إلى مثل ما رجعت إليه.

فليس في أيدي المؤرِّخين الناقدين إذن حلٌّ أصوب من الحلّ الذي أذعن له الإمام على كُره منه، سواءً أذعن له وهو عالم بخطئه أو هو أذعن له، وهو يسوِّي بينه وبين غيره في عقباه)[1].

الخوارج والسبئيّة

ولا بدّ في هذا الباب وفي ذكر ما ابتُلي به سيدنا عليّ بن أبي طالب - لحكمة يعلمها الله وكزكاة لما خصَّه الله به من مناقب ومآثر ومظاهر عبقرية بشرية - من الإشارة إلى فريقين ظهرا في عهد خلافته، وهما: الخوارج والسبئيـة.

الخوارج

أما الخوارج فقد تجسَّدت فيهم طبيعة «الحَرْفية» و«السّلبية» و«الغلوّ» والتناقض» تجسُّداً لم يتجسَّد مثله في فرقة من فِرَق الديانات الماضية، أو من الفِرق التي حدثت في تاريخ الإسلام، وتحدَّث عنها مؤرِّخو الفِرق والمذاهب.

وأصلهم قوم من جند عليّ، أكثرهم من قبيلة تميم، نفروا من أن يُحكَّم أحد في كتاب الله، ورأوا أن التحكيم خطأ، لأن حكم الله في الأمر واضح جليّ، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيّهما المحق، وهذه المعاني المختلجة في نفوسهم صاغها أحدهم في الجملة الآتية «لا حُكمَ إلاّ لله»، فسَرَت الجملة سير البرق إلى مَن يعتنق هذا الرأي وتجاوبتها الأنحاء، وأصبحت شعار هذه الطائفة، وسُمّوا أيضاً «الشُّراة» أي الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى: ﴿ومن الناس مَن يشْري نفسَه ابتغاءَ مرضات الله﴾، وقد حاربهم علي في الوقعة الشهيرة بوقعة النهروان، وهزمهم وقتل منهم كثيراً،

---

(١) العبقريات الإسلامية ص ٩٢٥ - ٩٢٦.

ولكنه لم يبدهم ولم يبد فكرتهم، وزادت هذه الهزيمة في إمعان الخوارج في كره علي، حتى دبروا له مكيدة قتله، فقتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي.

مع دخول بعض الموالي كان المذهب الخارجي مصبوغاً إلى درجة كبيرة بالصبغة البدوية في محاسنها ومساويها، فهم كثيرو الخلاف على الرؤساء، كثيرو التفرّق شيعاً وأحزاباً، محدودو النظر[١]، ضيّقو الفكر في نظرهم إلى مخالفيهم[٢]، وهم مع ذلك شجعان إلى أقصى حدود الشجاعة، صُرحاء في أقوالهم وأعمالهم، أسهل شيء عليهم أن يبيعوا نفوسهم لعقيدتهم، يتورعون من أكل تمرة ساقطة من نخلة لعدم إذن صاحبها فيمجّونها، ويسترسلون في سفك دماء المسلمين ولا يتورعون عن قتل بريء لا يقول بقولهم[٣]، يقتل عبد الرحمن بن ملجم علي بن أبي طالب، ثم يظلّ يقرأ القرآن، فإذا أُريد قطع لسانه جزع، ويقال له: لِمَ تجزع؟ فيقول: (أكره أن أكون في الدنيا مواتاً)، وكما قال أحد واصفيهم[٤]: (شباب والله مُكتَهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنْضاء عبادة، وأطلاح سَهَر)[٥].

وقد كان وجود هذين الفريقين المتناقضين تصديقاً لما أنبأ به رسول الله ﷺ، فقد روى غير واحد عن الحارث بن حصيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن الناجد عن علي قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إن فيك من عيسى ابن مريم مثلاً، أبغضته اليهود حتى بَهَتوا أُمَّه، وأحبّه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس هو له!!» قال عليّ: ألا وإنه يهلك فيّ اثنان: محبّ مُطرٍ مُفْرِط، يقرّظني بما ليس فيّ، ومُبْغض يحمله شنآني على أن يبهتني، ألا وإني لست بنبيّ ولا يُوحَى إليّ، ولكني أعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه ما

(١) وذلك ما سميناه بالحَرْفية.
(٢) وذلك ما أشرنا إليه بكلمة السلبية.
(٣) وذلك ما أعربنا عنه بكلمة التناقض.
(٤) هو أبو حمزة الخارجي.
(٥) الكامل جـ ٢ ص ١٣٦.

استطعتُ، فما أمرتكم من طاعة الله حق عليكم طاعتي في ما أحببتم وكرهتم[1].

السبئيـــة

يقول العقاد:

(أما السبئيـة فهم أتباع عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهودي ابن زنجيّة، مولود في بلاد اليمن، ومذهبه الذي اشتهر به هو مذهب الرجعة الذي يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود، وقول أهل الهند بظهور الإِلّه الذي يتقمص جسم الإنسان، وقول النصارى بظهور المسيح، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأُمراء)[2].

ويقول العقاد:

(ونشأت في اليمن ـ وقد عهدت حكمه قديماً ـ تلك الطائفة السبئيـة التي غَلَت في حُبّ عليّ حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التي ظلَّت كامنة في تربتها، حتى أخرجت شطأها بعد أجيال)[3].

وقد جاء في كتاب «رجال كشي» وهو من الكتب الموثـوق بها عند الشيعة في أسماء الرجال، عن عبد الله بن سبأ:

(وكان أول مَن أشهرَ القول بفرض إمامة عليّ، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه وأكفرهم، فمن ههنا قال مَن خالف الشيعة: أصل التشيّع والرفض مأخوذ من اليهودية)[4].

وغلا عبد الله بن سبأ وأتباعه في سيدنا علي غلوّاً كبيراً، فزعموا أنه كان نبياً، ثم غلَوا فزعموا أنه إلّه، ودَعوا إلى ذلك قوماً من أهل الكوفة، فاتصل

---

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٥٦.

(٢) العبقريات الإسلامية ص ٩٧١.

(٣) المرجع السابق ص ٩٤٢.

(٤) رجال كشي ص ٧١.

خبرهم بعليّ، فأمر بإحراق قوم منهم في حفرتين، ثم خاف من إحراق الباقين أن ينتقد عليه قوم، فنفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن، فلما قتل عليّ زعم ابن سبأ أن المقتول ليس علياً، وأن عليّاً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم عليه السلام، وزعم بعض السبئية أن عليّاً في السحاب وأن الرعد صوته، فمَن سمع من هؤلاء صوت الرعد قال: عليك السلام أمير المؤمنين، وقيل لابن سبأ إن علياً قد قتل، فقال: إن جئتمونا بدماغه في صُرّة لم نصدق بموته، ولا يموت حتى ينزل من السماء، ويملك الأرض بحذافيرها[1].

ولم تحقق - في ما علمنا ودرسنا في التاريخ - حركة تآمرية نجاحاً، وخلفت من الآثار والبذور ما حقّقت حركة عبد الله بن سبأ التآمريّة، وقد تفاعلت في فكرته وحركته عِدّة عوامل، سلالية ونفسية ودينية، منها ما امتاز به قوم سبأ من حُبّ العُسر مقابل اليسر، والغموض والالتواء على الوضوح والاستواء، وذلك ما أشار القرآن إليه بحكاية قولهم: ﴿ربّنا باعِدْ بين أسْفارنا﴾ وذلك عامل سلالي متوارث، والعرق دسّاس. أما العامل النفسي فهو مركب النقص، فإن الرجل كان ابن زنجية مشهوراً بابن السوداء. وأما العامل الديني فهو العقل اليهودي الذي اشتهر وتميَّزَ في كل دور من أدوار التاريخ بمحاولة تخريب المجتمعات البشرية والآداب والثقافات، والأخلاق والميول الإنسانية وإحداث الفوضى والأفكار الثورية[2].

وقد تلاقت هذه العوامل كلُّها في إحداث الفوضَى والأفكار المتطرّفة والغلوّ إلى حدّ التقديس والتأليه، في شأن الرجال الذين يتّسع المجال للبُسطاء من الناس ومُحبّي الغلو، وكان سيدنا علي أسهل هدف لهذه الحركة السريّة التآمرية، لاتصاله القريب بشخص النبي ﷺ وحكم القرابة، ووجود كثير من مظاهر العظمة والعبقريّة فيه، فلقيت هذه الدعوة عدداً كبيراً من المستجيبين لها والمتجاوبين معها.

---

(١) دائرة مَعارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧١ م).

(٢) راجع كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» على سبيل المثال.



الفصل السابع

سيّدنا عليّ عليه السلام

إزاء الخوارج وأهل الشّام إلى شهادته

بين الخوارج وأهل الشام ـ التوجّه إلى الشام وتعلُّل العراقيين في الحرب ـ شهادة سيدنا علي ـ أعقابه رضي الله عنه ـ حكمته وبلاغته ـ شعره ـ أدب العتاب والتأنيب الفريد.



الفصل السابع

سيّدنا عليّ ﵁

إزاء الخوارج وأهل الشام إلى شهادته

بين الخوارج وأهل الشام

امتحن سيّدنا علي بمحنتين اصطلى بأوارهما:

إحداهما أنه لا بدَّ له من قتال أهل الشام، وأنصاره ليس عندهم نشاط ولا انقياد مثل ما كان عند أهل الشام، لاختلاف طبيعة البلدين واستعداد المعسكرين.

أما البلدان، فقد حكم تاريخهما في طبيعتهما بقوة وعمق، فالشام قد بقيت في ولاية يزيد بن أبي سفيان، ثم في ولاية أخيه معاوية بن أبي سفيان مدة طويلة، وقد كانت قبل الحُكم الإسلامي خاضعة للحكم البيزنطي خضوعاً تاماً، وظل فيها الاستقرار والهدوء في الأُمور الإدارية والسياسية، وكان سيّدنا معاوية يمتاز بين أقرانه وأبناء جيله باللباقة والرِقّة والمداراة وإرضاء الجماهير بالحكم والعطاء ومصانعة الأُمور، وملاحظة الأمر الواقع وإعطائه حقَّه.

أما العراق فقد بقيت في حكم الملوك الساسانيين والكيانيين الإيرانيين قروناً، وقد تداول على عرش إيران عِدَّة ملوك في مدة قريبة، فخلف كسرى أنوشيروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) وهو الذي هزمه الإمبراطور هرقل وخلعه سائيروس وشيرويه سنة ٦٢٨ م وقتله، وبقيت أُمور إيران من سنة ٦٢٨ إلى سنة ٦٣٢ م، إلى أن تولى يزدجرد الثالث الحكم، في فوضى، وساد فيها الهرج والمرج، واستولى على عرش أبرويز ابنه قباذ الملقب بشيرويه، وقُتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨ م، وقد تمزَّق

ملكه بعد وفاته، وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأُسرة الحاكمة. ولم يعش شيرويه إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على يزدجرد وتوّجوه، وهو آخر ملوك بني ساسان، وكان من أثر الضعف والاضطراب أن بوران بنت أبرويز بن هرمز الفارسي ملكت بعد شهريـراز ـ وما جرت العادة في الأُسر الحاكمة في ذلك الزمن أن تتولّى امرأة الحكم ـ وكانت مملكتها سنة وأربعة أشهر.

ويرجع هذا الفرق كذلك إلى طبيعة القبائل العربية التي جرى على يدها فتح الشام في جانب واستوطنتها، وفتح العراق وإيران في جانب آخر، فكانت الأولى أكثرها من غربي الجزيرة وشمالها، وفيها طبيعـة الخضوع للنـظام والاحترام له، والأُخرى من شرقي الجزيرة، وفيها الاضطراب وعدم الارتياح والرضا، والبلبلة الفكرية التي كانت نتيجتها فشوّ الرِدَّة وحركة منع الزكاة، هذا مع شجاعتها وفروسيتها وخلال أُخرى.

يقول الدكتور أحمد أمين:

(والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة والمذاهب الغريبة، وقد سادت فيهم من قبل تعاليم ماني ومزدك وابن ديصان، كما رأيت من قبل، ومنهم نصارى ويهود سمعوا المذاهب المختلفة في حلول الله في بعض الناس)[1].

وأتى العربُ إلى العراق بالعصبية اليمنية والنّزارية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية لأنها مسكن ربيعة، وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة[2].

* * *

وقد أشار العقّاد إلى أساس الخلاف بين مُعَسكر سيّدنا علي ومُعسكر سيّدنا معاوية في دِقّة وبلاغة، فيقول:

---

(١) فجرُ الإسلام ص ٣٣٢، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٣٥ م).
(٢) تاريخ الأدب العربي للزيّات ص ١٠٢، (مطبعة الرسالة، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة).

(إن العجيب فيه حقاً أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين، في أحدهما كلُّ عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي والرغبة في بقائه وتدعيمه، وفي الآخر كل عوامل التذمُّر من النظام الاجتماعي والتحفّز لتقويضه وتحويله).

ويقول:

(أحدهما ـ وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي ـ كان قسم معاوية بن أبي سفيان في الشام وما جاورها، والآخر وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي، كان قسم علي بن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائها)[1].

* * *

وقد عزم عليٌّ للذهاب إلى الشام، ورفض ذلك الخوارج، وخرج من الكوفة إلى النُّخَيلة في عسكر كثيف، وقام أمير المؤمنين خطيباً فحثَّهم على الجهاد والصبر عند لقاء الخصم وهو عازم إلى الشام، فبينما هو كذلك إذ بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء، وقطعوا السبل، واستحلّوا المحارم، فأرسل عليٌّ إلى الخوارج رسولاً من جهته، فلما قَدِمَ عليهم قتلوه ولم يُنْظروه، فلما بلغ ذلك عليّاً عزم على الذهاب إليهم أولاً قبل أهل الشام، وتقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إليهم، فوعظهم وخوّفهم، وحذَّرهم وتواعدهم، وقال: إنكم أنكرتم عليَّ أمراً، أنتم دعوتموني إليه فنهيتُكم فلم تقبلوا، ولم يمتنع الخوارج عن القتال فزحفوا إلى عليّ، وأقبلوا يقولون: لا حُكْمَ إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وكان ذلك في سنة سبع وثلاثين[2].

---

(١) العبقريات الإسلامية ص ٨٦٩.

(٢) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩. قال ابن جرير: وأكثر أهل السِّيَر على أنَّ ذلك كان في سنة ثمانٍ وثلاثين ٣٨.

التوجُّه إلى الشام وتعلُّل العراقيين في الحرب

لما انصرف عليٌّ من النهروان قام في الناس خطيباً، فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله: أما بعد، فإن الله قد أعزَّ نصركم فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم من أهل الشام. وقاموا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين نَفَدت نبالُنا، وكلّت سيوفُنا، ونصلَت أسنّتنا، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعدّ بأحسن عُدّتنا[1].

وما زال هذا دأبهم، وقد ذكر ابن جرير أن عليّاً رضي الله عنه لما نكل أهل العراق عن الذهاب إلى الشام خطبهم فوبَّخهم وأنّبهم وتوعّدهم وهدّدهم، وتلا عليهم آيات الجهاد من سور متفرقة، وحثَّ على المسير إلى الشام، فأبَوا عليه ذلك وخالفوه ولم يوافقوه، واستمرّوا في بلادهم، وتفرقوا عنه هاهنا وهاهنا، فدخل عليّ الكوفة.

* * *

ودخلت سنة تسع وثلاثين، وفيها جهز معاوية بن أبي سفيان جيوشاً كثيرة، ففرّقها في أطراف معاملات علي بن أبي طالب، وذلك أن معاوية رأى أن جيوش عليّ من أهل العراق لا تطيعه في كثير من الأمر، ولا يأتمرون بأمره، وغزت جيوشه عين التمر، والأنبار، وتيماء، وتدمر، وظهر الوهن والتقاعس في أنصار علي والعراقيين.

ويتجلّى موقف العراقيين الضعيف، وتعلّلهم بالأعذار والعلل وعدم وجود الجدّ والعزم فيهم، وتوجّع سيدنا علي من هذا الوضع، وتألّمه من ذلك، في خطبته التي خطبها لما انتهى إليه أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار، فقتلوا عاملاً له يقال له حسّان بن حسّان، فخرج مُغْضباً يجرّ ثوباً، حتى أتى النُّخَيلة[2]، واتبعه الناس فرقي رابية، وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيّه ﷺ، وخطب هذه الخطبة التي هي من أبلغ الخطب التي أُثِرت عن قائد

---

(١) المرجع السابق جـ٧ ص ٣٠٨.

(٢) موضع بالبادية.

جريح القلب، شديد العتاب على قومه، قوي الإيمان بصحة موقفه، وذلك كله في بلاغة عربية علوية، قلّما يرتقي إليها كبار البلغاء والخطباء:

(أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمَن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذُل، وسيما الخسف ودُيّثَ بالصَّغَار، وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سرّاً وإعلاناً، قلت لكم: اغزوهم من قبل أن يغزوكم، فوالذي نفسي بيده، ما غزي قوم قطُّ في عُقْر دارهم إلا ذلّوا، فتخاذلتم وتواكلتم، وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهرياً، حتى شُنَّت عليكم الغارات.

هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقتلوا حسّان بن حسّان ورجالاً منهم كثيراً ونساءاً، والذي نفسي بيده، لقد بلغني أنه كان يُدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتنتزع أحجالهما ورعثهما[1]، ثم انصرفوا موفورين لم يُكْلم أحد منهم كَلْماً، فلو أنَّ امرءاً مسلماً مات من دون هذا أسفاً، ما كان عندي فيه ملوماً بل كان به عندي جديراً.

يـا عجباً كـل العجب، عجبٌ يميت القلب ويشغل الفهم، ويُكثـر الأحزان، من تظافر هؤلاء القوم على باطلهم، وفشلكم عن حقكم، حتى أصبحتم غرضاً: تُرمَون ولا تَرْمون، ويُغار عليكم ولا تغيرون، ويُعصى الله فيكم وترضون!!

إذا قلتُ لكم اغزوهم في الشتاء قلتم هذا أوان قرّ وصرّ، وإن قلت لكم اغزوهم في الصيـف قلتم هذه حَمَارّة القَيْظ، انظرنا ينصرم الحرّ عنّا، فإذا كنتم من الحرّ أو البرد تفرّون، فأنتم والله من السيف أفرُّ.

يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا طَغَام الأحلام وعقول ربّات الحجال، والله لقد أفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان، ولقد ملأتم جوفي غَيْظاً، حتى قالت قريش: ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا رأي له في الحرب، لله دَرّهم، ومَن ذا يكون أعلم بها منّي أو أشدّ لها مراساً، فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت

---

(١) الرعث: القرط والقلادة من حُلْي المرأة.

العشرين، ولقد نيّفت اليوم على الستّين، ولكن لا رأيَ لِمَن لا يُطاع) يقولها ثلاثاً[1].

شهادة سيِّدنا عليّ

يقول العلاَّمة ابن كثير:

(كان أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تنغَّصت عليه الأُمور واضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن القيام معه، واستفحل أمر أهل الشام، وصالوا وجالوا يميناً وشمالاً. هذا وأمير أهل العراق علي بن أبي طالب خير أهل الأرض في ذلك الزمان، أعبدهم وأزهدهم وأعلمهم وأخشاهم لله عزّ وجل، ومع هذا كله خذلوه وتخلَّوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت، يقول: «والله لتخضبنَّ هذه، ويشير إلى لحيته، من هٰذه ويشير إلى هامته)[2]، وقد كان ذلك.

(وكان من خبره أن ثلاثة من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحِميري ثم الكندي، والبُرَك بن عبدالله التميمي، وعمرو بن بكر التّمِيمي اجتمعوا فتذاكروا قتل عليٍّ إخوانهم من أهل النهروان، فترحَّموا عليهم وقالوا: لو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا. فقال ابن ملجم: أمّا أنا فأكفيكم عليّ بن أبي طالب، وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكث رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه. فأخذوا أسيافهم فسمُّوها واتّعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل واحد منهم في بلده الذي هو فيه.

فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة فدخلها وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج، فلما كانت ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلَت جلس مقابل السدَّة

---

(١) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٣٠ ـ ٣١، طبع مؤسَّسة الرسالة.

(٢) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٢٤ (باختصار).

التي يخرج منها علي، فلما خرج جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة، ويقول: الصلاة الصلاة، وضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال الدم على لحيته رضي الله عنه، فلما ضربه قال: لا حكم إلاّ لله، ليس لك يا علي ولا لأصحابك، ونادى علي: عليكم به. ومُسك ابن ملجم، وقَدَّم علي جَعْدة بن هبيرة بن أبي وَهْب، فصلى بالناس صلاة الفجر، وحمل علي إلى منزله، وقال علي: (إن متّ فاقتلوه، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به)[1] ولما مَثُل بين يدي علي، قال: (احبسوه وأحسنوا إساره، فإن أعش فسأرى فيه رأيي في العفو أو القصاص، وإن أمت فقتل نفس بنفس، ولا تمثّلوا به)[2].

وقد أوصى إلى الحسن والحسين وصية طويلة في آخرها:

(يا بني عبد المطلب: لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً، تقولون قُتِل أمير المؤمنين ألا لا تقتلنّ بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربة، ولا تمثلوا به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمُثْلة ولو بالكلب العقور»)[3].

قال جندب بن عبد الله: يا أمير المؤمنين إن متّ نبايع الحسن؟ قال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. ولما احتضر علي جعل يكثر من قول لا إلّه إلا الله، لا يتلفظ بغيرها، وقد قيل إن آخر ما تكلم به: ﴿فمَن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومَن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره﴾.

وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله، وبفضائل الأعمال، وكتب في كتاب وصيته[4].

وقال ابن ملجم:

(لقد ضربته ضربة لو أصابت أهل المصر لماتوا أجمعين، والله لقد

---

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٢٨ (باختصار).
(٢) الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة جـ ٢ ص ٢٧٤.
(٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة جـ ٣ ص ٣٣٨.
(٤) راجع ابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

سممت هذا السيف شهراً، ولقد اشتريته بألف وسممته بألف). واستشهد سيدنا علي يوم الجمعة[1] سحراً لسبع عشرة خلت من رمضان من سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة على الصحيح، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وصلَّى عليه ابنه الحسن ودُفن بدار الإمارة بالكوفة خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته[2].

أعقابه رضي الله عنه

ولدت فاطمة رضي الله عنها لعلي: الحسن، والحسين، ويقال محسناً ومات وهو صغير، وولدت له: زينب الكبرى، وأم كلثوم، وهذه تزوج بها عمر بن الخطاب كما تقدم.

وولد له من زوجات تزوج بهنّ بعد فاطمة: العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، وقد قتل هؤلاء مع أخيهم الحسين في كربلاء.

وولد له عبيد الله، وأبو بكر، قال هشام بن الكلبي: وقد قتلا بكربلاء أيضاً، ويحيىٰ، ومحمد الأصغر، وعمر، ورقية، ومحمد الأوسط.

أما ابنه محمد الأكبر فهو المشهور بابن الحنفية، وقد كان من سادات المسلمين، وكان شجاعاً أيّداً، فصيحاً عالماً بالكتاب والسُنّة، وكان يفضّل أبا بكر وعمر ويثني على عثمان رضي الله عنه، مات بالطائف سنة إحدى وثمانين، وهو يومئذ ابن خمس وستين ٦٥ سنة[3].

قال ابن جرير: جميع ولد علي أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أُنثى، وقال الواقدي: وإنما كان النسل من خمسة، وهم: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية والعباس، وعمر.

---

(١) أما ما وقع لمعاوية وعمرو بن العاص، وكيف أفلتا، فيُرجع في ذلك إلى البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٣٠.

(٢) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٣٠ - ٣٣١ . وشك ابن كثير في صحة الروايات التي تُروى عن نقل جثته ودفنها في موضع آخر، وشكَّك فيها.

(٣) الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة جـ ٢ ص ٢٢٩ .

حكمته وبلاغته:

قبل أن نعرض أمثلة لحكمة سيدنا علي وكلامه البليغ وأدبه الرفيع، ونذكر بعض أقواله المأثورة التي من العسير أن توجد لها أمثلة في آداب لغات أُخرى، نستعير قطعة من «تاريخ الأدب العربي» للأُستاذ أحمد حسن الزيّات التي يقول فيها:

(لا نعلم بعد رسول الله ﷺ في مَن سَلَفَ وخَلَفَ أفصح من عليّ في النطق، ولا أبلّ منه ريقاً في الخطابة. كان حكيماً تتفجّر الحكمة من بيانه، وخطيباً تتدفّق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومترسّلاً بعيد غور الحجة، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء، وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام المنشئين)[1].

ونضيف إليه ما قاله الأُستاذ العقّاد:

(الكلم الجوامع التي رويت للإمام، طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أُسلوب الأمثال السائرة، والتعبيرات الحِسان التي تحار فيها أيّ مزاياها أفضل وأقوم؟ صدق المعنى، أو بلاغة الأداء، أو جَودة الصناعة)[2].

ومن أبرز السّمات لهذه الحكم والوصايا والأمثال، أنها تدل دلالة واضحة صارخة على سلامة الفكر، وصحة الملاحظة ودقّتها، والدراسة العميقة للحياة وطبائع الناس، كأنها عُصارة دراسات وتأمّلات وتجارب عملية طويلة، ونزول في أعماق النفس الإنسانية وأغوار الحياة.

* * *

وإلى القارىء قليل من ذلك الكثير[3]، فنختار منه عشرين جملة وقولاً حكيماً.

---

(١) تاريخ الأدب العربي للزيّات ص ١٧٤.

(٢) العبقريات الإسلامية ص ٩٧٣ ـ ٩٧٤.

(٣) أما كتاب «نهج البلاغة» الذي جمعه الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٤ هـ) فهو أكبر مجموع لكلام أمير المؤمنين، خُطباً وكتباً، ورسائل، وحِكماً وأمثالاً، وقد نُقل عن ابن سيرين والعلاّمة=

١ ـ قيمة كل امرىء ما يحسنه.

٢ ـ كلِّموا الناس على قدر عقولهم، أتحبّون أن يُكذَّب الله ورسوله.

٣ ـ احذر صَوْلة الكريم إذا جاع، وصَوْلة اللئيم إذا شبع.

٤ ـ أجموا هذه القلوب والتمسوا لها طرف الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان.

٥ ـ النفس موثرة للهوى، آخذة بالهوينى، جامحة إلى اللهو، أمّارة بالسوء، مستوطنة للفجور، طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها.

٦ ـ ألا لا يرجونَّ أحدكم إلّا ربه، ولا يخافنَّ إلّا ذنبه، ولا يستحيي أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلّم، وإذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول لا أعلم.

٧ ـ الفقر يخرس الفَطِن عن حجته، والمقلّ غريب في بلدته.

٨ ـ العجز آفة، والصبر شجاعة، والزهد ثروة، والورع جُنَّة.

٩ ـ الآداب حُلَل مجدَّدة، والفكر مرآة صافية.

= المقبلي في «العلم الشامخ» الشك في صحه أكثر ما جاء في نهج البلاغة.

ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيّات: (ومن الناس مَن يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف، لما فيه من التعرّض للصحابة بالأذى والهجر، ولأنه فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلّف الصُّنع، ما ليس في إمكان ذلك العصر ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نُسب إلى الإمام، وفيه الصحيح والمشوب) (تاريخ الأدب العربي للزيّات ص ٧١).

ولكن الناقد البصير الذي تذوّق أُسلوب ذلك العصر ولغته، وعرف كذلك ما طبع عليه سيدنا علي من المواهب الاستثنائية، وما مارَسَه من طبائع الناس، وحلو الحياة ومُرها، يستطيع أن يميز بين ما فاض به لسانه أو قلمه، وبين ما تأخر زمانه ونسب إليه، ومنه ما استشهدنا به ونقلناه في كتابنا، وقد جاء الشيء الكثير في مؤلفات أدبية قديمة كالكامل للمبرد، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والبيان والتبيين للجاحظ.

وقد اعُتِنَي بشرح نهج البلاغة اعتناءاً كبيـراً، وشرّاحـه في القديم والحـديث أربُوا على الخمسين، مهم أبو الحسين البيهقي، والإمام فخر الدين الرازي، وشرحه عزّ الدين بن أبي الحديد المدائني، ويعدّ شرحه أفضل الشروح وأطولها، ونشر في عشرين جزءاً في دار الفكر، ومن المتأخرين الشيخ محمد عبده.

١٠ ـ إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.
١١ ـ ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه.
١٢ ـ لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حُرّاً.
١٣ ـ إياك والاتكال على المُنَى فإنها بضائع النُّوكى[1].
١٤ ـ ألا أُنبئكم بالعالِم كل العالِم؟ مَن لم يزيِّن لعباد الله معاصي الله، ولم يؤمّنهم مكره، ولم يؤيس من روحه[2].
١٥ ـ الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا.
١٦ ـ الناس أعداء ما جهلوا.
١٧ ـ الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.
١٨ ـ المرء مخبوء تحت لسانه.
١٩ ـ ما هلك امرؤ عرف قدره.
٢٠ ـ رُبّ كلمة سلبت نعمة.

شـــعره

ولسيّدنا علي ـ كرّم الله وجهه ـ ديوان شعر مشهور، يتمثّل بأبياته كثير من الناس، ولم يزل النقّاد يشكّون في صحة كثير مما احتوى عليه، وبعضه نازل عن مستواه.

جاء في معجم الأُدباء:

قرأت بخط أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري اللغوي في كتاب التهذيب، قال أبو عثمان المازني: لم يصحَّ عندنا أن علي بن أبي طالب عليه السلام تكلم من الشعر غير هذين البيتين:

تلكم قـريش تـمنّـاني لتقتلني ... ولا وجـدِّك مـا بـرُّوا ولا ظفـروا

---

(١) النّوكى: الحمقى.
(٢) لم يقطع أملهم من رحمته.

فـإن هلكت فـرهني ذمتي لـهم بـذات روقين لا يعفو لهـا أثـر[1]

وقد نقل ابن هشام في السيرة شعر سيدنا علي في عدة مواضع، وشكٌّ في صحة نسبته إليه.

أدب العتاب والتأنيب الفريد

وقبل أن نختم هذا الباب الحزين الثقيل، نعرض للقرّاء نموذجاً فريداً من أدب القَرْع والتأنيب، الذي يستحق أن يوضع على قمة أدب التقريع والتأنيب والعتاب والشكوى العالمي، وقد شارك في تكوينه وضع أهل العراق الخاص الشاذ، والذين يدَّعون الانتصار لعليّ والتحمّس له، والقدرةُ البيانية، والبلاغة العربية التي امتاز بها سيدنا عليّ، ليس في عصره الخاص، بل في عصور تاريخ الأدب العربي.

فممَّا أثر عنه من تأنيب أصحابه وأهل جيشه قوله:

كم أداريكم كما تُدارى البِكار[2] العَمِدة[3]، والثياب المتداعية، كلما حيصت من جانب تهتّكت من آخر، كلما أطلّ عليكم منسر من مناسر[4] أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه، وانجحر انجحار الضبة في جحرها، والضبع في وجارها[5].

* * *

الذليل والله مَن نصرتموه، ومَن رُمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل[6]، إنكم والله لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات، وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودَكم، ولكني والله لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي.

---

(١) معجم الأدباء ١٤/٤٣، لياقوت الحموي (دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٢) البكار جمع بكر، وهو الفتيّ من الإبل.

(٣) والعمدة التي قد انشدخت أسنمتها من داخل، وظاهرها صحيح، وذلك لكثرة ركوبها.

(٤) قطعة من الجيش تمر قدّام الجيش الكثير.

(٥) الوجار: بيت الضبع.

(٦) الأفوق: هو السهم المكسور في موضع الوتر. والناصل: العاري من النصل.

أضرع الله خدودَكم، وأتعس جدودَكم، لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحق.

* * *

أما بعد: يا أهل العراق، فإنما أنتم كالمرأة الحامل، حملت فلما أتمَّت أملصت[1]، ومات قيِّمها، وطال تأيُّمها، وورثها أبعدها.

أما والذي نفسي بيده ليظهرنَّ هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطلهم، وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأُمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي.

استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سِرّاً وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا.

* * *

شهود كغُيّاب، وعبيد كأرباب، أتلو عليكم الحِكمَ فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثُّكم على جهاد أهل البغي، فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرّقين أيادي سبأ، ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم، أقوِّمكم غدوة وترجعون إليّ عشية كظهر الحنيّة[2]، عجز المقوِّم وأعضل المقوَّم.

* * *

أيها القوم، الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم المُبتَلَى بهم أُمراؤهم، صاحبهم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم، متفرقون عن حقهم، متقاعسون عن القتال، أبدانهم مجتمعة، وأهواؤهم مختلفة، يرون عهود الله

---

(١) أملصت الحامل: ألقت ولدها سقاطاً.

(٢) الحنيّة: القوس.

منقوضة فلا يغضبون، هم لهاميم العرب[1]، يآفيخ[2] الشرف، لا غَناء في كثرة عددهم مع قلة اجتماع قلوبهم، أُريد أن أُداوي بكم، وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها.

كأني أنظر إليكم تكشّون كشيش الضباب[3] لا تأخذون حقاً ولا تمنعون ضيماً، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند النجاء، أنا لصحبتكم قالٍ، وبكم غير كثير.

* * *

أيّها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصُمّ الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء، ما عزَّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب مَن قاساكم، أعاليل بأضاليل، وسألتموني التطويل، دفاع ذي الدين المطوّل. أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله مَن غررتموه، ومَن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب[4].

---

(١) اللهميم: السابق الجواد من الخيل أو الناس.

(٢) جمع يافوخة، وهو من الرأس حيث يلتقي عظم مُقدّمه مع مؤخره.

(٣) كشيش الضباب: احتكاك جلودها عند ازدحامها، والضباب بكسر الضاد: جمع ضب، وهو الحيوان المعروف.

(٤) ملتقط من كتاب «نهج البلاغة».

الفصل الثامن

سيّدُنا عليّ بعْد الخلافة

سيرته الإجمالية في الخلافة ـ زهده وورعه ـ مع الـولاة والعمال وسائر المسلمين ـ الإمام المربِّي المصلح ـ خطته في السياسة والقول العدل فيها ـ سياسة علي هي اللائقة به ولا بديل لها ـ لمحة عن سيدنا معاوية ـ نظرة إلى المجتمع الإسلامي.



الفصل الثامن

سيدنا علي بعد الخلافة

سيرته الإجمالية في الخلافة

قلَّما أُثِرَ وسُجِّل من صفة الأعلام والشخصيات التاريخية المرموقة في التاريخ الإسلامي ـ بعد النبي ﷺ ـ الصفة التي تعرض المخايل والمشاعر، والميول والاتجاهات، وما طُبِعَ عليه الإنسان من أخلاق وملكات، مثل ما روي عن أحد أصحاب علي رضي الله عنه، وهو ضِرار بن ضمرة، وقد كان باقتراح من سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وبين يديه، فاجتمعت في هذا الوصف عاطفة الحب والحنان، مع صدق الشهادة لله، والشعور بالمسؤولية والتّبعة ودقة الموقف، فجاءت قطعة بيانية بليغة صادقة، وشهادة حق جريئة، وهي كما يلي:

«عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لضرار بن ضمرة: صِفْ لي عليّاً، فقال: أو تعفيني؟ قال: بل صِفْه، قال: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك، قال:

(أمَّا إذاً، فإنه والله كان بعيد المدَى، شديد القُوى، يقول فَصْلاً، ويحكم عَدْلاً، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزيرَ الدمعة، طويل الفِكْرة، يقلِّب كفّه ويخاطب نفسه. يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جَشُبَ[1].

---

(١) ما جشب: ما غلظ وخشن من الطعام.

كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا وعدناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منّا لا نكلمه هيبة له، ولا نبتديه، فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وأشهد بالله، لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه[١] وغارت[٢] نجومه، وقد مَثُل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم[٣]، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول:

يا دنيا، أبي تعرضتِ، أم لي تشوَّفت، هيهات هيهات، غُرّي غيري، قد بتّتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آهِ من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق).

قال: فذرفت دموع معاوية حتى خرّت على لحيته فما يملكها وهو ينشفها بكمّه، وقد اختنق القوم بالبكاء، ثم قال معاوية: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضِرار؟ قال: حزن مَن ذُبح ولدها في حِجْرها، فلا ترقأ[٤] عبرتها، ولا يسكن حزنها[٥].

زهده وورعه

وكان أوضح خلّة يتّصف بها وشعار يتميز به، هو الزهد البالغ مع توافر أسباب الرخاء والثراء، والسلطة المطلقة، وتوفير الناس وإجلالهم الذي يمنع من النقد والحسبة والمؤاخذة، وقد روى يحيـى بن معين عن علي بن جعد عن الحسن بن صالح، قال: تذاكروا الزُهّاد عند عمر بن عبد العزيز[٦] فقال:

---

(١) سجوف: جمع سجف، الستر.
(٢) غارت: سقطت وانخسفت.
(٣) السليم: اللَّديغ أو الجريح المشرف على الموت، سمّوه به تفاؤلاً بالسلامة.
(٤) لا ترقأ: لا تسكن ولا تنقطع.
(٥) صفة الصفوة لابن الجوزي جـ ص ١٢١ ـ ١٢٢، (دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٥٥ هـ).
(٦) وهو بنفسه كان من كبار الزهّاد (راجع سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي).

أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب[1].

وهنالك أمثلة من زهده، وهي قليل من كثير:

أخرج أبو عبيد عن عنترة قال: دخلت على علي بن أبي طالب بالخورنق، وعليه قطيفة وهو يرعد فيها من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟ فقال: إني والله لا أرزأ من مالكم شيئاً، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي، أو قال من المدينة[2].

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن رجل من ثقيف أن عليّاً رضي الله عنه استعمله على عكبرا، قال: ولم يكن السواد يسكنه المصلّون، وقال لي: إذا كان عند الظهر فرح إليّ، فرحت إليه، فلم أجد عنده حاجباً يحجبني عنه دونه، فوجدته جالساً وعنده قَدَح وكوز من ماء، فدعا بطينة فقلت في نفسي لقد أمّنني حتى يخرج إليّ جوهراً، ولا أدري ما فيها، فإذا عليها خاتم، فكسر الخاتم فإذا فيها سويق، فأخرج منها، فصبّ في القدح، فصبّ عليه ماءاً فشرب وسقاني، فلم أصبر فقلت: يا أمير المؤمنين، أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك، قال: أما والله ما أختم عليه بخلاً عليه، ولكني أبتاع قدر ما يكفيني، فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره، وإنما حفظي لذلك، وأكره أن أُدخل بطني إلا طيّباً[3].

وأُوتي بفالوذج ووضع قدّامه بين يديه، فقال: إنك طيب الريح، وحسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أُعوّد نفسي ما لم تعتده[4].

وعن زيد بن وهب قال: خرج علينا علي رضي الله عنه وعليه رداء وإزار قد وثّقه بخرقة، فقيل له، فقال: إنما ألبس هذين الثوبين ليكون أبعد لي من

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٥.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ٣. وروى نحوه أبو نعيم في الحلية جـ ١ ص ٨٢.
(٣) حلية الأولياء جـ ١ ص ٨٢، (دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠ م).
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٨١.

الزهو، وخيراً لي في صلاتي، وسنّة للمؤمن[1].

وعن مجمّع بن سمعان التيمي قال: خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسيفه إلى السوق، فقال: مَن يشتري منّي سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزاراً ما بعته[2].

وأخرج أحمد عن عبدالله بن رَزِين قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقرب إلينا خزيرة، فقلنا: أصلحك الله، لو أطعمتنا هذا البطّ ـ يعني الإوزّ ـ فإن الله أكثر الخير، قال: يا ابن رزين، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلّ للخليفة من مال الله إلا قصعتان: قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس»[3].

وأخرج أبو عبيد في الأموال عن علي رضي الله عنه أنه أعطى العطاء في سنة ثلاث مرات، ثم أتاه مال من أصبهان، فقال: اغدوا إلى عطاء رابع، إني لست بخازنكم، فأخذها قوم وردّها قوم[4].

خطب علي الناس فقال: أيها الناس والله الذي لا إلّه إلا هو، ما رزأت من مالكم قليلاً ولا كثيراً إلا هذه، وأخرج قارورة من كمّ قميصه فيها طيب، فقال: أهدى إلى دهقان، وقال ثم أتى بيت المال وقال: خذوا، أنشأ يقول:

أفلح مَن كانت له قوصرة[5] يـأكل منهـا كـل يـوم تمـرة

ويقول هبيرة بن يريم: قال سمعت الحسن بن علي خطيباً، فخطب الناس فقال: يا أيها الناس لقد فارقكم أمس رجل ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبع مائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يشتري بها خادماً[6].

* * *

(1) المنتخب جـ ٥ ص ٥٨.

(2) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٣.

(3) المرجع السابق جـ ٨ ص ٣.

(4) كنز العمال جـ ٢ ص ٣٢٠.

(5) القوصرة: وعاء من قصب يجعل فيه التمر ونحوه.

(6) مُصَنّف ابن أبي شيبة، كتاب الفضائل، جـ ١٢ ص ٧٤، (إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، باكستان ١٩٨٧ م).

وأصعب من الزهد في المال وفي الطعام والشراب، هو الخضوع لحكم شرعي وقضاء قاضٍ، أمام فريق لا يدين بالإسلام، وعدم المظاهرة بما يملكه من سلطة وحُكم، وذلك يتجلّى في القصة الآتية:

روى الحاكم عن الشَّعْبي قال:

ضاع درع لعليّ رضي الله عنه يوم الجمل، فأصابها رجل فباعها، فعرفت عند رجل من اليهود، فخاصمه إلى شريح فشهد لعليّ الحسن ومولاه قنبر، فقال شريح: زدني شاهداً مكان الحسن، فقال: أتردّ شهادة الحسن؟ قال: لا، ولكني حفظت عنك أنه لا تجوز شهادة الولد لوالده، ثم قال لليهودي خذ الدرع، فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين فقضى عليه ورضي، صدقت والله يا أمير المؤمنين، إنها لدرعك، سقطت عن جمل لـك التقطتهـا، أشهد أن لا إلّـه إلا الله وأن محمداً رسول الله!!.

فوهبها له علي، وأجازه بسبع مائة، ولم يزل معه حتى قتل يـوم صِفّين[1].

ولم يكن رضي الله عنه مع زهده وورعه وتصلبه في دينه على شيء من الفظاظة والخشونة والعبوس والكلح، ولم يكن ثقيل الظل، بل كان ودوداً بشوشاً، فيه دعابة ملحوظة، وقد جاء في وصفه:

كان حسن الوجه، ضحوك السن، خفيف المشي على الأرض[2].

مع الولاة والعُمّال وعامة المسلمين

وكان هذا دأبه مع الولاة والعمال، ولعل ذلك أصعب عمليّاً من أن يأخذ الخليفة أو الحاكم نفسه بالزهد والعمل بالعزيمة.

فمن وصاياه المكررة لولاته:

---

(١) كنز العمال جـ ٤ ص ٦ وأخرجه الحاكم في الكُنى وأبو نُعيم في الحلية جـ ٤ ص ١٣٩ مطولاً.

(٢) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٢٣.

أنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنهم خزان الرعية، ولا تحسموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طِلْبته، ولا تبيعنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يحتملون عليها، ولا عبداً، ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم.

ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات:

وامضِ إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلّم عليهم، ولا تُخدج بالتحيةَ لهم، ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم وليّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حقّ تؤدّونه إلى وليّه؟ فإن قال قائل لا، فلا تراجعه، وإن أنعم عليك منعم فـانطلق معـه من غير أن تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإنّ أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرنًّ بهيمة ولا تفزعنها، ولا تسوأنّ صاحبها فيها، واصدع المال صدعين ثم خيِّرْه، فإذا اختار فلا تعرضنَّ لما اختاره، ثم اصدع الباقي صدعين، ثم خيِّره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاءً لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله.

الإمام المُربّي المصلح

ولم يكن علي حاكماً إدارياً وخليفة للمسلمين بالمعنى العام، كما جرى عليه خلفاء بني أُمية وبني العباس، بل كان على نهج الخليفتين الأولين، فكان وليّ أمر المسلمين ومعلّماً ومربياً ونموذجاً عملياً، قائماً بالحِسبة الدينية والخلقية، مراقباً لميولهم واتجاهاتهم الموافقة لتعاليم الإِسلام وأُسوة الرسول عليه الصلاة والسلام، والمنحرفة عنها المتـأثرة بـالأُمم المغلوبة والبـلاد المفتوحة، يقيم للناس صلاتهم ويعظهم ويفقِّههم في دينهم، ويبصّرهم بما يحب الله من المسلمين وبما يكره الله منهم، كـان يجلس لهم في المسجد فيسألهم عن أُمورهم، ويجيب مَن سأله منهم في أُمور الدين والدنيا، وكان

يمشي في الأسواق ويرقبهم حين كانوا يبيعون ويشترون، ويعظهم ويقول: اتقوا الله وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

وكان يحتاط لنفسه، ولا ينتفع من مكانته وعلوّ نسبه في شيء، فكان إذا أراد أن يشتري شيئاً تحرَّى بين الباعة رجلاً لا يعرفه فاشترى منه، ويكره أن يحابيه البائع إن عرف أنه أمير المؤمنين، وكان شديد الحرص على أن يحقّق المساواة بين الناس في قوله وعمله وفي وجهه وفي قسمته، وذلك ما كان يطلبه ويتوقعه من عُمّاله في الأقاليم، فكان شديد المراقبة لهم، وكان أحياناً يرسل الأرصادِ والرقباء ليطّلعوا على سيرة العمال وآراء الناس فيهم، ثم يُطلِعوه على ذلك، وكان أُمراؤه يهابونه، وقد يلجأ - إذا دعت الحاجة - إلى التقريع والنذير، وفي رسائله إلى العمال ما يشهد بذلك[١].

ولم يكن أمير المؤمنين يكتفي بالحسبة على عُمّاله في الحدود الشرعية والأحكام الفقهية فحسب، بل كان يراقب سيرتهم، ويحاسبهم على ما لا يتفق مع سيرة الولاة الخاشعين لله، المقتدين بأُسوة الرسول ﷺ، وسيرة الخلفاء الراشدين.

من ذلك أنه بلغه أن عثمان بن حُنيف الأنصاري - وكان عاملاً له على البصرة - دُعِيَ إلى وليمة قوم لم تطبق فيها المواساة والمساواة الإسلامية وما أُريد بها وجه الله، فمضى إليها، فكتب إليه يقول:

أما بعد: يا ابن حُنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعتَ إليها تُستطاب لك الألوان، وتُنقَل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوّ، وغنيُّهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه[٢].

---

(١) وكثير منها جاء في مجموع رسائله في نهج البلاغة، ومنها ما يشهد أُسلوبه ونهجه بصحّة نسبته إلى سيدنا عليّ، يعرفه المتذوِّق الناقد المتتبّع لرسائل ذلك العصر.

(٢) نهج البلاغة ص ٤١٦ - ٤١٧.

خُطّته في السياسة والقول العدل فيها

كان المحور الذي تدور عليه سياسة سيدنا عليّ ونظام حكمه وإدارته، هو تقديم المبادىء والقِيَم والمُثُل الإسلامية، على المصالح السياسية والإدارية، والمحافظة على روح خلافة الأنبياء ومنهج الخلفاء الراشدين، وقد كان يعتبر الخليفة داعياً إلى الدين ونموذجاً وقدوة للمسلمين، قبل وأكثر من كونه حاكماً ووليّ أمر المسلمين، وقد كان مستعدّاً كل الاستعداد لأن يدفع قيمة هذا المنهج، وإيثار هذا الجانب على جانب الاعتبارات السياسية والملاحظات الإدارية، وقد دفع قيمة إيثار هذا المنهج باهظة، راضياً بذلك قرير العين.

وقد أجاد الأُستاذ العقّاد إذ ذكر أساس الخلاف بين علي ومعاوية، فنوّه بأن الخلاف لم يكن بين رجلين، بل كان خلافاً بين نظامين أو بالتعبير الجديد بين (مدرستين) يقول:

(كانت المسألة صراعاً بين الخلافة الدينية، كما تمثلت في عليّ بن أبي طالب، والدولة الدنيوية، كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان)[1].

ويقول:

(ليس موضع الحسم فيها أن ينتصر عليٌّ فيحكم في مكان معاوية، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان عليّ، بل موضع الحسم فيها مبادىء الحكم كيف تكون إذا تغلب واحد منهما على خصمه؟ أتكون مبادىء الخلافة الدينية، أو مبادىء الدولة الدنياوية؟ أو تكون مبادىء الورع والزهادة أو مبادىء الحياة على أساس الثروة الجديدة، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة والأجناد والأعوان؟ فالحسم حق الحسم هنا إنما هو تغليب مبادىء الملك أو مبادىء الخلافة، ولا حيلة لعليّ ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه لو جهد له جهاد الطاقة)[2].

---

(١) العبقريات الإسلامية ص ٨٩٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨٩٢.

وقد ظهرت نتيجة هذا الخلاف والمنهج ـ الذي اختاره كلٌّ منهما عن طواعية ـ الطبيعة لاختلاف العصر واتساع الفتوح، وتدفق الثروات وتأثير الأجواء والبيئات والحضارات التي احتك بها المسلمون، مع بعض البُعد عن عصر النبوّة، وانقراض الرعيل الأول الذي تربى في المدرسة النبوية المدنية الزاهدة المتقشّفة، وقد أشار إلى ذلك العقاد في دقّة وبلاغة، فقال:

(أما عصر علي فكان عصراً عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه، أو هو لم يكن عجيباً لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه، فلم يثبت كل الثبوت، ولم يضطرب كل الاضطراب، لأنه كان بناءاً جديداً في سبيل التمام، ولم يكن بناءاً متداعياً فكلُّه هدم واندثار، ولا بناءاً قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار).

وهذا الخلاف بين المنهجين كان بتأثير العصر والتطورات التي طرأت على المجتمع الإسلامي بحكم الطبيعة البشرية والسنن الكونية، كان هذا الخلاف في صالح سيدنا معاوية، فكان يسود على جيشه والمنطقة التي كان يحكمها الهدوء والاستقرار والحماس في طاعة الأمير، أما معسكر عليّ ودائرة حكمه فكان يسود عليهما ـ بحكم طبيعة البلدين كما قدّمنا، وتأثير العصر الذي يعيشه وتنفَّس فيه كِلا المعسكرين ـ شيءٌ من الاضطراب وافتيات الرأي والاستشراف إلى ما يتمتع به المعسكر المنافس من إرخاء عنان واسترسال في تحقيق المآرب الماديّة.

يقول العقّاد:

(كان الرضا عن النظام الاجتماعي قسم معاوية بن أبي سفيان في الشام وما جاورها، والآخر وهو قسم التذمُّر من النظام الاجتماعي، كان قسم عليّ بن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائها)[1].

(فلم تكن المسألة خلافاً بين علي ومعاوية على شيء واحد ينحسم فيه

---

(1) العبقريات الإسلامية ص ٢٦٩.

النزاع بانتصار هذا أو ذاك، ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعالَمين متنافسين، أحدهما يتمرد ولا يستقر، والآخر يقبل الحكومة كما استجدّت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار)[1].

سياسة عليّ هي اللائقة به ولا بديل لها

ولكن رغم ظهـور نتيجة الاختـلاف بين المنهجين في الاضطراب والاستقرار أو الإسراع والتثاقل في الطاعة والانقياد، ورغم ما واجهه سيدنا علي من المحـن والمشاكل، وما لقيه سيدنا معاوية من تيسُّر الأُمور وهدوء البال، والخضوع الزائد للنظام، كانت سياسة سيدنا عليّ هي اللائقة به ولا بديل لها، يقول العقاد في إنصاف ودقّة، وفي جراءة خلقية تاريخية:

(واتبع عليّ من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها، فلا نعرف سياسة أُخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرِّخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته، في صدق الرأي وأمان العاقبة، أو أنها كانت كافلة باجتناب المآزق التي ساقته الحوادث إليها)[2].

وكانت ولا تزال للمؤرخين والناقدين ـ الذين يقيسون الرجال والعصور وآثار التربية والعقيدة والمُثُل التي يستهدفها القادة، بمقياس واحد ـ مآخذ في سياسة سيدنا علي، فيقولون لو أنّه لم يسرع إلى عزل سيدنا معاوية بن أبي سفيان عن الشام، وعزل قيس بن سعد عن ولاية مصر، وسلَّم قتلة عثمان، ورفض التحكيم، تفادى من هذه الحروب الطاحنة التي خاضها بشجاعة وإيمان، والمحن والمشكلات التي واجهها في خلافته وكان في غنىً عنها، ولكن الأُستاذ العقّاد ـ في تحليله الدقيق للحوادث ونتائج الأُمور ـ لا يوافق على هذا الحكم، ويختلف عنه اختلافاً واضحاً، يقول:

(الذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي الذي سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل

(١) العبقريات الإسلامية ص ٨٩٢.
(٢) المرجع السابق ص ٨٩٥.

ربما كان العمل في نجاحه أضعف والخطر من اتّباعه أعظم، لو أنه وضع في موضع العمل والإنجاز، وخرج من حيِّز النصح والمشورة)[1].

ويقول في وضوح وصراحة:

(هل خطر لأحد من ناقديه في عصره وبعد عصره أن يسأل نفسه أكان في وُسع علي أن يصنع غير ما صنع؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك، هَبْه استطاع أن يصنع غير ما صنع، فما هي العاقبة؟ فهل من المُحَقَّق أنه كان يفضي بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها؟)[2].

ويقـــول:

(ونعود بعد هذا فنقول إنه - يعني عليّاً - لم يخسر كثيراً بما فاته من الدهاء، ولم يكن ليربح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب، لأنه لا بدَّ من مُلك أو خلافة)[3].

(وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التي نشأت مِن قبله، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه)[4].

وان من طبيعتَي هذين المنهجين اللذين اختارهما سيدنا عليّ ومعاوية أن تختلفا في أمر الوراثة والاستخلاف، فأما سيدنا عليّ فقد ترك الأمر شورى ولم يستخلف ابنه الأكبر وسبط الرسول الحبيب الأثير الذي قال عنه: «إن ابني هذا سيِّد» وهو الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقد قال حين قالوا: يا أمير المؤمنين ألا تستخلف؟ قال: لا، ولكن أترككم كما ترككم رسول الله، قالوا: فما تقول لربك إذا لقيته، وقد تركتنا هملاً؟ قال: أقول اللَّهمّ استخلفتني فيهم

---

(١) العبقريات الإسلامية ص ٩١٥.
(٢) المرجع السابق ص ٩١٥.
(٣) المرجع السابق ص ٩٣٠.
(٤) المرجع السابق ص ٩٣٣.

ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتُك فيهم، فإن شئت أصلحتَهم وإن شئت أفسدتَهم[1].

وأما معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فقد أخذ البيعة لابنه يزيد بالخلافة، وهو الذي تولى الحكم على إثر وفاة أبيه[2].

لمحة عن سيدنا معاوية

يبدو لي ـ بعد استعراض الواقع التاريخي والفترة الغامضة المُعقَّدة التي تلت شهادة سيدنا عثمان رضي الله عنه، وما طرأ على المجتمع الإسلامي من تطورات وردود فعل نفسية وخارجية، أن سيدنا معاوية أدَّته معرفته لطبائع الناس، وطول ممارسته للحكم، ودراسة واقع البلاد التي حكمها مدة طويلة، إلى أنه من الصعب قيادة المجتمع الإسلامي العربي الموجود، وسياسة المملكة الإسلامية الواسعة ـ التي تنوّعت عناصرها وتعدّدت مشاكلها ـ باتباع نظام الخلافة الدقيق الذي سار عليه الخلفاء الثلاثة وتمسَّكوا به كل التمسك، واقتنع بأنه لا بأس في هذه الفترة الدقيقة من مواجهة كل ذلك ـ مما يتحدى سلامة البلاد وإقامة الأمن والهدوء، ومواصلة الغزوات والفتوح إلى أبعد حد ـ بإقامة نظام حكم شخصي عادل مَرِن، يتقيّد بعقيدة الإسلام وشريعته مبدئياً، ويحافظ على الحدود والفرائض والشعارات الإسلامية إجمالاً، ويتوسّع في نظم الحكم وأساليب الإدارة ومعاملة الناس، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فلا تخرج الدولة من دائرة الإسلام، ولكن لا بأس من أن تُدار المملكة الإسلامية الواسعة التي كادت تكون امبراطورية، بالنُظُم السائدة ومعالجة الأمور باللباقة والمرونة، ومواجهة المشاكل بما تقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة العملية، واختلاف الزمان والمكان، فبدأ حكمه كحاكم مسلم عسكري وإداري.

وقد أنبأ بذلك رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٣٢٤.

(٢) راجع للتفصيل: المرجع السابق، جـ ٨ ص ١٤٦.

«خلافة النبوّة ثلاثون سنة، ثم يُعطي الله المُلْك أو مُلكه مَن يشاء»[1].

ولا شك أنه كان ذلك اجتهاداً منه مجانباً لما ثبت واستفاض من الحثّ على إقامة الخلافة على منهاج النبوّة، وأن المسلمين مأمورون بذلك في كل زمان، ولِما فهمه السابقون في الإسلام، الراسخون في العلم، الأقربون إلى رسول الله ﷺ، الحريصون على الاقتداء به وتنفيذ ما أراده ودعا إليه، كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم والعشرة المُبشَّرة بالجنة، وكبار الصحابة وفقهائهم، فلم يتصوروا ولا دقيقة واحدة جواز فصل الدين عن السياسة، وهو الذي سيبقى الهدف المطلوب والمثل الكامل الذي يجب أن يحقّقه المسلمون، أو يسعَون له مهما تباعد الزمان واختلف المكان، وكان الحق في ذلك مع عليّ كما اتفق عليه أهل السُنَّة والجماعة[2].

وقد انتفع به الإسلام والمسلمون فتحاً وغلبة، والإسلام انتصاراً وشيوعاً، والمملكة الإسلامية اتساعاً وتنظيماً، فقد اتبع سيدنا معاوية في عهده الغزو إلى بلاد لم يطأها المسلمون الفاتحون برّاً وبحراً، وبلغت فتوحاته المحيط الأتلانطيقي، وفتح عامله بمصر بلاد السودان، وكثرت الأساطيل في زمنه لاهتمامه بأمرها حتى بلغت ألفاً وسبع مائة (١٧٠٠) سفينة كاملة العدد والعُدد، وصار يسيّرها في البحر فترجع غانمة، وافتتح بها عدة جهات، منها جزيرة قبرص، وبعض جزائر اليونان والدردنيل، وجزيرة رودس، وأما في البرّ فرتَّب الشواتي[3] والصوائف[4]، فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من

---

(١) سنن أبي داود، كتاب السُنّة، باب الخلفاء. وعن سعيد بن جمهان قال: حدّثني سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في أُمتي ثلاثون سنة، ثم ملكٌ بعد ذلك» ثم قال لي سفينة: أمسك خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، ثم قال لي: أمسك خلافة علي قال: فوجدناها ثلاثين سنة. أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة.

(٢) راجع (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء) لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ وليّ الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ.

(٣) الشواتي: جمع شاتية، وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء.

(٤) الصوائف: جمع صائفة، وهي الجيش الذي يغزو في الصيف.

العدو. وفي سنة ٤٨ جهَّز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية برّاً وبحراً، ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها، وفتك النار الإغريقية بسفنهم، وكان في الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وفي أثناء الحصار تُوفّي أبو أيوب الأنصاري مُضِيف رسول الله ﷺ، ودفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية، وفي عصره وحكمه دخل القائد عقبة بن نافع إفريقية، وانضاف إليه من أسلم من بربر، واتخذ القيروان مركزاً وثكنة، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خُطّة المسلمين[1].

وكان سيدنا معاوية يمتاز بخلال كثيرة تدلّ على حُبّه للإسلام والمسلمين ودفاعه عن حوزة الدين ـ فضلاً عن بُعد نظره وحكمته في الإدارة ـ والحميّة الدينية وإيثار مصلحة الإسلام والمسلمين على كل مصلحة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولا بدّ بهذه المناسبة أن تذكر له مأثرة عظيمة تثبت كبر نفسه وحميته للدين، وهو ما ذكره المؤرخون، منهم ابن كثير، مما دار بينه وبين ملك الروم.

يقول ابن كثير:

(وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذلّه وقهر جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب عليّ تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه:

والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحنّ أنا وابن عمّي عليك، ولأُخرجنّك من جميع بلادك، ولأُضيقنّ عليك الأرض بما رحبت. وعند ذلك خاف ملك الروم، وانكفَّ وبعث يطلب الهدنة)[2].

---

(١) ليراجع للتفصيل تاريخ الأُمم الإسلامية (الدولة الأموية) للشيخ محمد الخضري بك (جـ ١ ص ١١٤ ـ ١١٥) و(الانتقاد على تاريخ التمدّن الإسلامي لجرجي زيدان) للعلاّمة شبلي النعماني، (مطبعة آس، لكنهؤ، ١٩١٢ م).
(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١١٩.

نظرة إلى المجتمع الإسلامي:

ومما تجب الإشادة به أن هذه الخلافات التي مرّ بالحديث عنها القارىء العزيز - والتي أدّت إلى حروبٍ طاحنة - في شيء من الملال والسآمة، كانت على صعيد الحكم والقيادة، وعلى مستوى الأمراء والحكّام وجيوشهم، أما المجتمع الإسلامي الممتد من أرض الوحي والرسالة إلى أقصى ما وصلت إليه الفتوح الإسلامية، فقد كان مجتمعاً متمسكاً بالدين، محافظاً على الفرائض والواجبات، راغباً في العمل بالسنّة، وما ثبت من القرآن والحديث، مُجلاً لأهل الدين وحَمَلَة العلم من المحدِّثين والفقهاء ورجال الفتيا، ولا تزال الشعائر الإسلامية مرفوعة، والجمعة والجماعات تُقام، والحج لم يحدث أقل تغيّر في مواقيته ومناسكه وأركانه، يُؤدّى تحت إمارة أمير ينصِّبه الخليفة وصاحب الأمر، والجهاد قائم على قدم وساق، والقرآن يُحفَظ ويُتلَى، وترقّ له القلوب وتذرف له العيون، ولم يحدث أيّ تحريف في الدين أو الأحكام الشرعية.

وكان هذا المجتمع الإسلامي - على عِلّاته - أفضل بالإطلاق من كل مجتمع معاصر - مسيحي أو مجوسي أو برهمي - في الخشوع لله والحسبان للآخرة ولِما بعد الموت، والكفّ عن الفواحش الظاهرة ومظاهر الفجور، وعبادة المادّة والتقدير الزائد للثروة، ووزن الأشياء بميزان النفع واللذّة فحسب، وذلك كله بفضل وجود الكتاب الذي لم يقبل تحريفاً أو ضياعاً، وبفضل ما كان يُروَى ويُردَّد من أخبار الأُسرة النبوية، وسير الصحابة وأخبار الخلفاء الراشدين، والشهداء والمجاهدين، ووجود الدُّعاة إلى الله والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، ووجود الزُّهّاد والمتورّعين، وكان الدين لا يزال له السلطان الروحي والمكانة الأولى في قلوب الناس. هذا كله، لأن الله قد تكفَّلَ بحفظ هذا الدين وبقاء هذه الأُمة الداعية إلى الله إلى أن تقوم القيامة، ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾[1]، ﴿ وكذلك جعلناكم أُمةً وَسَطاً

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩.

لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾[1]، ولأنه لا بديل لهما[2].

ولأنَّ المسلمين كانوا لا يزالون يملأون الفراغ في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، ولكونهم أفضل من غيرهم في العقيدة والعمل، لم يمكّن الله تعالى عدوَّهم الذي كان بالمرصاد ـ وهي السلطة المسيحية التي كان مركزها القسطنطينية وقارة أُوروبا المسيحية ـ أن ينتهز فرصة تشاغل المسلمين بعضهم ببعض، والصراع السياسي في صفوفهم، فتستردّ البلاد التي كانت لا تزال تحكمها من قرون ـ كالشام ومصر وبعض بلاد إفريقيا الشمالية ـ وتستعيد اعتبارها السياسي والعسكري.

يتحدَّث المؤرخ ابن جرير الطبري عن حوادث سنة خمس وثلاثين من الهجرة، فيقول:

(وفي هذه السنة قصد قسطنطين بن هرقل بلاد المسلمين في ألف مركب، فأرسل الله عليه قاصفاً من الريح فغرّقه الله بحوله وقوته، ومَن معه، ولم ينجُ منهم أحد إلا الملك في شرذمة قليلة من قومه، فلما دخل صقلية عملوا له حماماً فدخله فقتلوه فيه، وقالوا: أنت قتلت رجالنا)[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) ليقرأ ما جاء تحت عنوان (أعلام الدين وشخصياته البارزة وتأثيرها) في رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الجزء الأول ص ٣٠ ـ ٣١. ولأخبار الصالحين والدعاة في ذلك العصر كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم الأصبهاني جـ ١، ٢، ٣.

(٣) البداية والنهاية جـ ٧ ص ٢٢٩.

الفصل التاسع

سيّدا شباب أهل الجنّة

الحسن والحسين رضي الله عنهما

الحسن بن علي رضي الله عنه - أهمية إخبار النبي عن الحسن وأثرها النفسي - خلافة الحسن وصلحه مع معاوية - شهادته - صحة موقف سيدنا الحسن رضي الله عنه - الحسين بن علي رضي الله عنهما - ولاية يزيد بن معاوية - - سيرة يزيد وأخلاقه - كارثة كربلاء - دعوة أهل العراق للحسين، وبعثه لمسلم بن عقيل إليهم - خذلان أهل الكوفة لمسلم - رسالة مسلم إلى الحسين ونصح الناس له - الحسين بن علي في الكوفة - في كربلاء - في محضر يزيد - وقعة الحرّة وموت يزيد - آراء بعض أعلام أهل السنّة وانطباعاتهم عن شهادة الحسين وكارثة كربلاء - جهود لإقامة الحكم الصالح وتغيير الأوضاع وقيمتها.



الفصل التاسع

سيدا شباب أهل الجنة

الحسن والحسين رضي الله عنهما

الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

هو الحسن بن علي بن أبي طالب، ابن بنت رسول الله فاطمة الزهراء وريحانته، وأشبه خلق الله به في وجهه. ولد للنصف من شعبان سنة ثلاث من الهجرة على الصحيح، وقيل في رمضان.

كان رسول الله ﷺ يحبّه حُبّاً شديداً حتى كان يقبل ذُبيبته وهو صغير، وربما مصَّ لسانه، واعتنقه وداعبه، وربما جاء ورسول الله ﷺ ساجد في الصلاة فيركب على ظهره، ويُقرُّه على ذلك ويطيل السجود من أجله، وربما صعّده على المنبر[1].

وقد روى الزهري عن أنس قال: كان الحسن بن علي أشبههم وجهاً لرسول الله ﷺ[2]، وعن هانىء عن علي قال: الحسن أشبه برسول الله ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول الله ﷺ ما أسفل من ذلك[3].

وكان عليٌّ يكرم الحسن إكراماً زائداً ويعظِّمه ويبجِّله، وقد قال له يوماً: يا بُنيّ ألا تخطب حتى أسمعك؟ فقال: إني أستحيي أن أخطب وأنا أراك، فذهب عليّ فجلس حيث لا يراه الحسن، ثم قام الحسن في الناس خطيباً

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٣٣.

(٢) مصنف عبد الرزاق (المجلس العلمي، دابيل الهند، الطبعة الأولى، ١٩٧٠ م).

(٣) رواه أحمد (البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٣٣).

وعليٌّ يسمع، فألقى خطبة بليغة فصيحة، فلما انصرف جعل عليّ يقول: ﴿ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾[1].

وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذَّ القائلين، وكان لا يشارك في دعوة ولا يدخل في مراء، ولا يُدلي بحجة حتى يُرى قاضياً[2]، وقاسم الله ماله ثلاث مرات، وخرج من ماله مرتين، وحجّ خمساً وعشرين مرة ماشياً، وإنّ الجنائب لتقاد من يديه[3].

وقد كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النِّعم عليه، وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما[4].

ومن حديث حُذيفة رَفَعه «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة» وله طرق أيضاً، وفي الباب عن علي وجابر وبُريدة وأبي سعيد.

وفي البخاري عن أبي بكرة رأيت النبي ﷺ على المنبر، والحسن بن علي معه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[5]، وقال أحمد: حدَّثنا هاشم بن القاسم، قال: حدَّثنا المبارك بن فَضَالة، قال: حدَّثنا الحسن بن أبي الحسن، حدَّثنا أبو بَكْرة: كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس، وكان الحسن بن علي يثب على ظهره إذا سجد، ففعل ذلك غير مرة، قالوا له: إنك لتفعل بهذا شيئاً ما رأيناك تفعله بأحد، قال: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»[6].

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٣٧.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ٣٩.
(٣) أيضاً ص ٣٧، واقرأ التفصيل في مكارم سيدنا الحسن في «البداية والنهاية» جـ ٨ ص ٣٧ ـ ٣٩.
(٤) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٣٧ ـ ٣٩.
(٥) الجامع الصحيح للبُخاري، كتاب الفِتن.
(٦) الإصابة في تمييز الصحابة جـ ١ ص ٢٣٠.

وفي رواية قال ﷺ في الحسن: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله على يده بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وفي حديث آخر: «إن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يبقيه حتى يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» رواه جماعة من الصحابة[1].

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ حامل الحسن بن علي على عاتقه، فقال رجل: نعم المركب ركبتَ يا غلام، فقال النبي ﷺ: «ونِعمَ الراكب هو»[2]، وكان الحسن والحسين رضي الله عنهما من أجواد الإسلام.

يقول نُعيم: قال لي أبو هريرة: ما رأيت الحسن قطُّ إلا فاضت عيناي دموعاً، وذلك أنه أتى يوماً يشتدّ حتى قعد في حِجْر رسول الله ﷺ فجعل يقول بيديه هكذا في لحية رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يفتح فمه ثم يدخل فمه في فمه، ويقول: «اللَّهمّ إني أُحبّه فأَحِبّه»، يقولها ثلاث مرات[3].

قال ابن عساكر:

روي عن الحسن عليه السلام أنه كان مارّاً في بعض حيطان المدينة، فرأى أسود بيده رغيف يأكل لقمة ويطعم الكلب لقمة إلى أن شاطره الرغيف، فقال له الحسن: ما حملك على أن شاطرته فلم تغابنه فيه بشيء؟ فقال: استحت عيناي من عينيه أن أُغابنه، فقال له: غلامُ مَن أنت؟ قال: غلام أَبان بن عثمان، قال: والحائط؟ قال لأبان، فقال له الحسن: أقسمت عليك لا برحتَ حتى أعود إليك، فمرّ فاشترى الغلام والحائط وجاء إلى الغلام فقال له: قد اشتريتُك، فقام قائماً، فقال: السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاي، ثم قال: وقد اشتريتُ الحائط، وأنت حرٌّ لوجه الله والحائط هبة مني إليك[4].

---

(١) الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة جـ ٢ ص ٢٠١.
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣.
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني جـ ١ ص ٣٥.
(٤) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر جـ ٤ ص ٢١٧ - ٢١٨، طبع دار المَسيرة (الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م).

أهميّة إخبار النبيّ عن الحسن رضي الله عنه، وأثره النفسي

ولم تكن نبوّة رسول الله ﷺ عن الحسن بن علي أنه سيصلح الله به بين فئتين من المسلمين مجرد إنباء يسمعه الحسن والمسلمون ويصدقونه كالنبوءات النبوية الأُخرى، بل كانت الكلمة المُوجِّهة الرائدة للحسن بن عليّ رضي الله عنهما في اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، لا بدَّ أنها حلّت في قرارة نفسه، واستولت على مشاعره، وامتزجت بلحمه ودمه، واعتبرها كوصيّة من الرسول ﷺ، ولا بدَّ أنه لما سمع النبي ﷺ -وهو نبيُّه وجدُّه- يتكلم بهذه الكلمات ويذكر ذلك كسبب في حُبّه وإيثاره والعطف عليه، رأى السرور في أسارير وجهه، والبريق في عينيه ﷺ، فتمسك بها كهدف من أهداف حياته، وكالمَثَل الأعلى له في مستقبله.

وقد ظهر أثر هذه النبوّة في جميع حركاته وسكناته، حتى في الحديث مع والده الكبير الذي يحبّه حبَّ الأبناء البَرَرة للآباء العِظام الذين خصَّهم الله بمواهب ومناقب، قلّما يشاركهم فيها أفراد الأُمة، وكان من أعرف الناس بها بحُكم النبوّة والصُحبة، ويجلّه إجلال العارفين والمعجبين، وقد روي أنه أشار على أبيه عليّ بن أبي طالب بعد مقتل عثمان أن يعتزل الناس إلى حيث شاء من الأرض حتى تثوب إلى العرب عوازب أحلامها، وقال له: (لو كنت في جُحر ضَبّ لاستخرجوك منه فبايعوك دون أن تعرض نفسك لهم)، ولما عزم عليٌّ على قتال أهل الشام، وعزم على التجهّز، وخرج من المدينة وهو عازم على أن يقاتل بمَن أطاعه مَن عصاه، جاء إليه الحسن بن عليّ وقال: (يا أبت دعْ هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم)[1].

ولكنّ عليّاً لم يقبل ما أشار به الحسن، ولم يكن ليترك الناس في فتنة دون أن يؤدي ما أخذه الله به من أمر بمعروف ونهي عن منكر، وردِّ الأمر إلى نصابه والحقّ إلى أصحابه، ولِكُلٍّ وجهةٌ هو مولّيها.

---

(١) البداية والنهاية جـ٧ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

خلافة الحسن وصلحه مع معاوية

ولما ضرب ابن ملجم علياً، قالوا له: استخلف يا أمير المؤمنين، فقال: لا، ولكن أدعكم كما ترك رسول الله ﷺ (يعني بغير استخلاف)، فإن يُرِد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ[(١)].

ولكن الناس بايعوا الحسن بن علي يوم ضُرب علي، وهو يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان سنة أربعين (٤٠ هـ)[(٢)].

قال ابن كثير:

ولما مات عليّ (وبويع الحسن) ألحَّ قيس بن سعد بن عبادة على الحسن في النفير لقتال أهل الشام، ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحداً ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يُسمَع بمثله، فأمّر الحسن بن علي قيس بن سعد على المقدمة في اثني عشر ألفاً بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصداً بلاد الشام ليقاتل معاوية وأهل الشام، فلما اجتاز بالمدائن نزلها، وقدّم المقدمة بين يديه.

فبينما هو في المدائن معسكِراً بظاهرها، إذ صرخ في الناس صارخ: (ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قُتِلَ)، فثار الناس فانتهبوا أمتعة بعضهم بعضاً، حتى انتهبوا سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطاً كان جالساً عليه وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أثبتوه وأشوته[(٣)]، فكرههم الحسن كراهية شديدة، وركب فدخل القصر الأبيض من المدائن، فنزله وهو جريح، فلما استقرّ الجيش بالقصر قال المختار بن أبي عبيد ـ قبّحه الله ـ لعمّه سعد بن مسعود، وكان العامل على المدائن: هل لك بالشرف والغنى؟ قال: ماذا؟ قال: تأخذ الحسن بن علي فتقيده وتبعثه إلى معاوية، فقال له سعد بن مسعود: قبَّحك

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٤.

(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٤.

(٣) أشوى الرجلَ: أصاب شواه (وهو ما كان غير مقتل من الأعضاء لا مقتله).

الله، وقبّح ما جئت به، أغدر بابن بنت رسول الله ﷺ[1]؟

ويقول ابن كثير:

أقام أهل العراق الحسـن بن علي ليمانعوا به أهل الشام، ولم يتم لهم ما أرادوه وما حاولوه، وإنما كان خذلانهم من قِبَل تدبيرهم وآرائهم المختلفة المخالفة لأمرائهم، ولو كانوا يعلمون لعظَّموا ما أنعم الله به عليهم من مبايعتهم ابن بنت رسول الله ﷺ وسيّد المسلمين، وأحد علماء الصحابـة وحلمائهم، وذوي آرائهم[2].

ولما رأى الحسن بن علي تفرّق جيشه عليه، مَقَتَهم، وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان ـ وكان قد ركب في الشام فنزل مسكن ـ يراوضه على الصلح بينهما واشترط شروطاً، فإذا فعل ذلك نزل عن الإمرة لمعاوية، ويحقن الدماء بين المسلمين، فاصطلحوا على ذلك واجتمعت الكلمة على معاوية[3].

وقال ابن كثير: قد قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً»، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ[4].

وخطب الحسن، بطلب من معاوية بعد نزوله عن الخلافة، فقال في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول ﷺ:

أما بعد أيها الناس: إن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإنّ لهذا الأمر مُدة، والدنيا دُوَل، فإن الله تعالى قال لنبيّه ﷺ: ﴿ وإنْ أدري لعله

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٤.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٦.
(٣) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٦.
(٤) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٦.

فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين﴾، ولم يسرّ هذا معاوية، ولم يزل في نفسه[1].

وقال له رجل يقال له أبو عامر: السلام عليك يا مُذِلّ المؤمنين، فقال: لا تقل هذا يا أبا عامر، لست بمذلّ المؤمنين، ولكني كرهت أن أقتلهم على المُلْك[2].

قال ابن كثير:

ولما حصل على بيعة معاوية عامئذ الاجتماع والاتفاق، ترحَّلَ الحسن بن علي ومعه أخوه الحسين وبقية إخوتهم وابن عمِّهم عبد الله بن جعفر، من أرض العراق إلى أرض المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وجعل كلما مرَّ بحيّ من شيعتهم يبكّتونه على ما صنع من نزوله عن الأمر لمعاوية وهو في ذلك البارّ الراشد الممدوح، وليس يجد في صدره حرجاً ولا تلوُّماً ولا ندماً، بل هو راضٍ بذلك مستبشر به، وإن كان قد ساء هذا خلقاً من ذويه وأهله وشيعته، ولا سيما بعد ذلك بمُدَد وهلمّ جرّاً إلى يومنا هذا. والحقّ في ذلك اتباع السنّة، ومدحه في ما حقن به دماء الأُمة، كما مدحه على ذلك رسول الله ﷺ[3].

وكان أصحاب الحسن يقولون: يا عار المؤمنين، قال: فيقول لهم: العار خيرٌ من النار[4].

وحدَّث أبو داود الطيالسي عن زهير بن نفير الحضرمي يحدّث عن أبيه قال: قلت للحسن بن علي: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون مَن سالمتُ ويحاربون مَن حاربتُ، فتركتها ابتغاء وجه الله، ثم أُثيرها ثانياً من أنحاء الحجاز[5]؟! وقال مرة:

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٨.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٩.
(٣) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٩.
(٤) المرجع السابق جـ ٨ ص ٤١.
(٥) المرجع السابق جـ ٨ ص ٤٢.

خشيت أن يجيئني يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً أو أكثر أو أقل تنضح أوداجهم دماً، كلّهم يستعدي الله فيم أهريق دمه[1].

شهادته رضي الله عنه

وسُقِيَ الحسن سمّاً كان سبب موته، يقول عمير بن إسحاق:

دخلت أنا ورجل آخر من قريش على الحسن بن علي، فقال: وقد سُقيتُ السمّ مراراً، وما سُقيت مرة هي أشد من هذه، وقد أخذ في السَّوق، فجاء الحسين حتى قعد عند رأسه، وقال: أي أخي، مَنْ صاحبك؟ قال: تريد قتله؟ قال: نعم، قال: لئن كان صاحبي الذي أظن فالله أشد نقمة، وفي رواية: الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وإن لم يكنه ما أحب أن تقتل بي بريئاً[2].

وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزحام. روى الواقدي عن ثعلبة بن أبي مالك قال: شهدت الحسن يوم مات ودفن ببقيع، ورأيت البقيع لو طرحت فيه إبرة ما وقعت إلا على رأس إنسان[3].

وتوفي الحسن وهو ابن سبع وأربعين على الأصح[4].

مات لخمس ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة خمسين (٥٠)، وروى عن أبي جعفر قال مكث الناس يبكون على الحسن بن علي سبعاً ما تقوم الأسواق[5].

وقد ولّي الحسن بعد موت علي عليهما السلام لسبع بقينَ من شهر رمضان سنة أربعين، وصالح معاوية في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، ويسمَّى عام الصلح مع معاوية «عام الجماعة». فكانت خلافته ستة أشهر تمّت بها ثلاثون سنة للخلافة[6].

صِحَّة موقف سيدنا الحسن رضي الله عنه

وقد كان ما قرَّره الحسن رضي الله عنه من الصلح مع معاوية والتنازل له

(١) المرجع السابق جـ ٨ ص ٤٢.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ٤٢.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة جـ ١ ص ٣٣١.
(٤) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٤٤.
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد وأخرجه الحاكم في المستدرك. (٦) الجوهرة ص ٢٠٤.

عن الخلافة قد جاء في أوانه ومكانه، كما كان موقف الحسين رضي الله عنه بعد ذلك من يزيد بن معاوية ـ الذي سيأتي الحديث عنه قريباً ـ في أوانه ومكانه، فللأجواء والأوضاع والأزمنة والأمكنة التي تقع فيها الحوادث، ويتخذ فيها موقف صارم، درجة حرارة وبرودة خاصة، تقتضي مواقف، وتطلب ردود الفعل بدرجة حرارة وبرودة خاصة تطابقها وتستجيب لها، وشتان بين سيدنا معاوية وابنه يزيد في سيرتهما وأخلاقهما، وفي صلتهما بالنبي ﷺ وصحبته، ودورهما في الإسلام.

ولم يكن لبقاء النزاع مع معاوية رضي الله عنه ومقاومته نتيجة سوى سفك دماء المسلمين في سخاء وغزارة، وقيام الوضع الحربي الثائر الشائك، وعدم الثقة وفَقْد الهدوء في المجتمع الإسلامي الباكر، وهذا مع جيش مضطرب هائج مائج، متهيىء للثورة والغدر والتراجع بأقل سبب، وكان الحسن بن علي من أبصر الناس بنفسية هذا الجيش العراقي المدّعي لنصرته ونصرة أبيه من قبل، وكان يعرف أكثر من غيره ما ابتلي به والده العظيم من خذلان هذا الجيش وتقاعده عن الصمود والاستقامة، وما عانى منه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من افتيات رأي وتحكيم أهواء وعصيان، ظهرت آثارها في خطبه في العتاب والتأنيب، والعذل والشكوى[1].

* * *

الحُسين بن علي رضي الله عنهما

ولد الحسين بن علي لخمس ليالٍ خلونَ من شعبان سنة أربع، وحنَّكه النبي ﷺ وتفل في فيه ودعا له وسمّاه حُسَيناً، وكان وجه الحسن ـ كما قدَّمنا ـ يشبه وجه رسول الله ﷺ، وكان جسد الحسين يشبه جسد رسول الله ﷺ، وقد أدرك الحسين من حياة النبي ﷺ خمس سنين أو نحوها، وروى عنه أحاديث[2].

---

(١) وقد مرّت نماذجه الرائعة في فصل سابق.

(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

عن أبي أيوب الأنصاري قال: دخلت على رسول الله ﷺ والحسن والحسين يلعبان على صدره، فقلت: يا رسول الله أتحبهما؟ قال: «كيف لا أُحبهما وهما ريحانتاي من الدنيا»[1]. وعن الحارث عن علي مرفوعاً: «الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة»[2]. وفي مراسيل يزيد بن أبي زياد: أن النبي ﷺ سمع حُسيناً يبكي، فقال لأُمه: «ألم تعلمي أن بكاءَه يؤذيني؟»[3].

وقد كان في الجيش الذي غزا القسطنطينية مع ابن معاوية يزيد في سنة إحدى وخمسين[4].

وكان كثير الصلاة والصيام والحج، حج رضي الله عنه عشرين حجة ماشياً[5].

كان الحسين بن علي متواضعاً، مَرّ على قوم من مساكين وكان راكباً فسلّم عليهم، وهم قد وضعوا كِسَراً بالأرض وهم يأكلون، فقالوا: هلمَّ يا ابن رسول الله، فنزل عن دابته، فقال: إن الله لا يحب المُستكبرين، ثم جلس وأكل معهم، فلما فرغوا قال: إنكم دعوتموني فأجبتكم، وإني أدعوكم إلى منزلي، فأجابوه، فلما دخلوا منزله وجلسوا قال: يا رباب هات ما كنت تدّخرين[6].

قال ابن عيينة: عن عبد الله بن أبي زيد قال: رأيت الحُسين بن علي أسود الرأس واللحية إلا شعرات في مقدّم لحيته. وعن عمر بن عطاء قال: رأيت الحسين يصبغ بالوسمة، كان رأسه ولحيته شديدي السواد[7].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم.
(٢) أخرجه الطبراني.
(٣) أخرجه الطبراني.
(٤) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥١.
(٥) الجوهرة ص ٢١٣.
(٦) الجوهرة جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٧) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٢٨١.

ولاية يزيد بن معاوية

قد كان معاوية عهد للحسن بن علي بالأمر من بعده، وقد أشار عليه بعض عُمّاله لاستخلاف يزيد، فتردد، فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية، ورآه لذلك أهلاً، وذلك من شدة محبة الوالد لولده، وقال لعبد الله بن عمر في ما خاطبه به: إني خفت أن أذر الرعية بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راعٍ[1]، وكان يزيد يوم بويع ابن أربع وثلاثين سنة[2].

دعا معاوية الناس إلى البيعة ليزيد سنة ست وخمسين، وقد كره الناس ذلك واستنكروه لما يعلمون من سيرة يزيد وإقباله إلى اللعب والصيد، وكلّم بعض الناس يزيد لأن لا يطلب ذلك، فإنَّ تركه خير له من السعي فيه، فانزجر يزيد عمّا يريد من ذلك، واجتمع بأبيه واتفقا على ترك ذلك[3].

ولما كانت سنة ست وخمسين شرع معاوية في نظم ذلك والدعاء إليه، وعقد بيعة لولده يزيد، وكتب إلى الآفاق بذلك، فبايع له الناس في سائر الأقاليم إلا عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس. وركب معاوية إلى مكة معتمراً، فلما اجتاز بالمدينة ـ مرجعه من مكة ـ خطب معاوية، وهؤلاء حضور تحت منبره، وبايع الناس ليزيد وهم قعود، لم يوافقوا ولم يظهروا خلافاً لما تهدَّدهم وتوعَّدهم، فاتسقت البيعة ليزيد في سائر البلاد، ووفدت الوفود من سائر الأقاليم إلى يزيد[4].

سيرة يزيد وأخلاقه

قال الطبراني: كان يزيد في حداثته صاحب شراب يأخذ مأخذ الأحداث[5].

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٨٠.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٤٦.
(٣) المرجع السابق جـ ٨ ص ٨٠.
(٤) المرجع السابق جـ ٨ ص ٨٠.
(٥) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٢٨.

ويقول ابن كثير:

كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم، والفصاحة والشعر، والشجاعة وحُسْن الرأي في المُلك، وكان ذا جمال، حسن المعاشرة، وكان فيه إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات[1]، وأكثر ما نُقِمَ عليه في عمله شرب الخمر وإتيان بعض الفواحش وبعض القاذورات[2]. ولم يتهموه بزندقة، بل قد كان فاسقاً[3]. وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد، واتخاذ الغلمان والقيان، والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود[4].

وقد ولد سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين، بويع له بالخلافة في حياة أبيه أن يكون وليَّ العهد من بعده، ثم أكد ذلك بعد موت أبيه في النصف من رجب سنة ستين[5].

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(قد علمت وربِّ الكعبة متى تهلك العرب، إذا ساسهم مَن لم يدرك الجاهلية، ولم يكن له قدم في الإسلام)[6].

* * *

وقد كانت ولاية يزيد ـ وهو كما ذكرنا من سيرته وأخلاقه ـ حدثاً لم يكن ليُحتمَل في العهد الذي ولي عهد الخلافة الراشدة، وكان عدد كبير من أجِلّة الصحابة والتابعين لهم بإحسان لا يزال على قيد الحياة، وفيهم مَن كان أولى

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٠.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٣٢.
(٣) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٣٢.
(٤) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٣٥
(٥) أيضاً ص ٢٢٦، لا خلاف أن معاوية توفي بدمشق في رجب سنة ستين، وكان عمره إذ ذاك ثماني وسبعين سنة، وقيل جاوز الثمانين، جـ ٨ ص ١٤٣.
(٦) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٣٢.

بالخلافة والوصاية على المسلمين وقيادتهم، وتحقيق الغايات التي جاء لها الإسلام، ونزل بها القرآن، وشُرِّعت لها الخلافة بدرجات كثيرة، لذلك كان طبيعياً أن يحسب لذلك حساب لم يكن ليحسب إذا حدث هذا الحدث في زمن متأخر، كما كان فعلاً.

كـــارثة كربلاء

لو كانت مندوحة من ذكر هذه الكارثة التي ينحني لها رأس كل مسلم حياءاً ويندَى جبينه، لطوينا عنه كشحاً وضربنا عنه صفحاً، ولكن التاريخ الذي يساير الأحداث على اختلاف أنواعها ووقعها في النفوس، مُرغَم على ذكر هـذه الكارثة، تسجيلاً للواقع وإتماماً للحـديث، ومعذرة إلى القلب والضمير، ومعذرة إلى القرّاء الغيارى على الإسلام، العارفين لفضل آل بيت الرسول وعترته الكرام.

امتنع سيدنا الحسين عن بيعة يزيد وبقي متمسكاً بذلك، ومكث في مدينة جدّه عليه الصلاة والسلام، وحسب لامتناعه عن البيعة رجال الحكومة ويزيد وعمّاله حساباً لم يحسبوه لامتناع عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير وغيرهم، لمكانته من رسول الله ﷺ، ولِما اقترن به من تاريخ والده العظيم، ومواقفه من حكومة سيدنا معاوية، ولكنه لم يلِن ولم يستكن، ولم يَحِد عن موقفه الذي آثره عن اقتناع وبصيرة.

دعوة أهل العراق للحُسين، وبعثه لمسلم بن عقيل إليهم

ولما اشتدَّ الطلب من يزيد وعمّاله للبيعة، لجأ الحُسين إلى مكة، وقد كثر ورود الكتب إليه من بلاد العراق يدعونه إليهم، وبعث أهل العراق نفراً معهم نحو من مائة وخمسين كتاباً إلى الحسين، يقولون إنَّ معك مائة ألف، وبعثوا كتاباً فيه الاستعجال في السير إليهم، وجعل أهل العراق يستحثّونه ويستقدمونه عليهم ليبايعوه عوضاً عن يزيد بن معاوية، عند ذلك بعث الحسين ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى العراق ليكشف له حقيقة هذا الأمر، وكتب معه كتاباً إلى أهل العراق بذلك.

ودخل مسلم الكوفة فتسامع أهل الكوفة بقدومه، فجاؤوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين، وحلفوا له لينصرنّه بأنفسهم وأموالهم، فاجتمع على بيعته من أهلها اثنا عشر ألفاً، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً، فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليها، فقد تمهَّدت له البيعة والأُمور، فتجهّز الحسين من مكة قاصداً إلى الكوفة، وعزل يزيد أمير الكوفة النعمان بن بشير لضعف موقفه من الحسين، وضمّها إلى عبيد الله بن زياد بن سُميّة مع البصرة(١).

خذلان أهل الكوفة لمسلم

وركب مسلم بن عقيل ونادى بشعاره (يا منصور أمت) فاجتمع إليه أربعة آلاف من الكوفة، وبادر عبيد الله بن زياد فدخل القصر ومَن معه وأغلقوا عليهم الباب، فلما انتهى مسلم إلى باب القصر وقف بجيشه هناك، فأشرف أُمراء القبائل الذين عند عبيد الله في القصر، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف، وتهدّدوهم وتوعّدوهم، وأخرج عبيد الله بعض الأُمراء وأمرهم أن يركبوا في الكوفة يخذّلون الناس عن مسلم بن عقيل، ففعلوا ذلك، وجعلت المرأة تجيء إلى ابنها وأخيها، وتقول له ارجع إلى البيت، ويقول الرجل لابنه وأخيه كأنك غداً بجنود الشام قد أقبلت، وماذا تصنع معهم؟

فتخاذل الناس وقصّروا وتصرموا، وانصرفوا عن مسلم بن عقيل، حتى لم يبقَ إلا في خمس مائة نفس، ثم تقالُّوا حتى بقي في ثلاث مائة، ثم تقالُّوا حتى بقي معه ثلاثون رجلاً، فصلَّى بهم المغرب، وقصد أبواب كندة، وخرج منها في عشرة، ثم انصرفوا عنه فبقي وحده ليس معه مَن يدلُّه على الطريق ولا مَن يؤانسه بنفسه، ولا مَن يؤويه إلى منزله، فذهب على وجهه، واختلط الظلام وهو وحده يتردّد في الطريق لا يدري أين يذهب(٢).

وحكاية خذلان أهل الكوفة لمسلم طويلة ومشجية، وفيها دلالات على طبيعة الخضوع للقوة والمادة والجاه والمنصب، مهما عارض ذلك المبادىء

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٢.

(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

والقِيَم والمُثُل، وكانت النهاية أن مسلماً آوى إلى دار وأُحيط بالدار التي هو فيها، فدخلوا عليه، فقام إليهم بالسيف، فأخرجهم من الدار ثلاث مرات، وجعلوا يرمونه بالحجارة، ويلهبون النار في أطناب القصب، فضاق بهم ذرعاً، فخرج إليهم بسيفه فقاتلهم، فأعطاه عبد الرحمن ـ الذي هو في داره ـ الأمان فأمكنه من يده، وجاؤوا ببغلة فأركبوه عليها، وسلبوا عنه سيفه، فلم يبق يملك من نفسه شيئاً، فبكى عند ذلك وعرف أنه مقتول.

رسالة مُسلِم إلى الحُسين، ونُصح الناس له

وكان الحسين قد خرج ذلك اليوم أو أمس من مكة، فالتفت مسلم إلى محمد بن الأشعث، فقال: إن استطعت أن تبعث إلى حسين على لساني، تأمره بالرجوع فافعل، فبعث محمد بن الأشعث إلى الحُسين يأمره بالرجوع، فلم يصدّق الرسول في ذلك، وقال: كلما حمَّ الإلـه واقع.

وأُدخل مسلم على ابن زياد، وجرى بينه وبين ابن زياد كلام عنيف، ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل فأصعد إلى أعلى القصر، وهو يكبر ويهلّل، ويسبح ويستغفر ويصلِّي على ملائكة الله، وقام رجل يقال له بكير بن عمران فضرب عنقه، ثم ألقى رأسه إلى أسفل القصر فأتبع رأسه لجسده[1].

وكان مسلم قد طلب من محمد بن الأشعث أن يُرسلَ إلى الحُسين مَن يقولُ له: ارجع بأهلك، ولا يغرنَّك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل. إن أهل الكوفة قد كَذَبوك وكَذَبوني، وليس لكاذب رأي، ولقي الرسول الحسين بزبالة لأربع ليالٍ من الكوفة، فأخبره الخبر، وأبلغه الرسالة، فقال الحُسين: (كلما حُمَّ نازل، عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا)[2].

* * *

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٥٩.

ولما استشعر الناس خروج الحسين إلى الكوفة أشفقوا عليه من ذلك وحذَّروه منه، وأشار عليه ذوو الرأي منهم والمحبة له بعدم الخروج إلى العراق، وقال له عبد الله بن عباس: (إن أهل العراق قوم غُدُر فلا تغترنّ بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوّهم، ثم أقدم عليهم)، فقال الحُسين: (يا ابن عم، والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعتُ المسير)، فقال: (فإن كنت ولا بُدّ سائراً فلا تَسِرْ بأولادك ونسائك)، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه)[1].

ونهاه ابن عمر كذلك فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى، وقال: (أستودعك الله من قتيل)، ونهاه عبد الله بن الزبير، فقال الحُسين: (أتتني بيعة أربعين ألفاً يحلفون بالطلاق والعتاق أنهم معي)[2].

ونهاه أبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن المسيّب فلم ينتهِ، وأزمع على السير[3]، ولقيه الفرزدق في الطريق فسأله عن أمر الناس، فقال: (يا ابن رسول الله، القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر من السماء)[4].

الحسين بن علي في الكوفة

وخرج الحسين متوجهاً إلى العراق في أهل بيته وستين شخصاً من أهل الكوفة صحبته، وأقبل يسير نحو الكوفة ولا يعلم بشيء مما وقع من الأخبار، وعلم في طريقه قتل مسلم وهانىء بن عروة، فجعل يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون مراراً، فقالوا له: اللهَ اللهَ في نفسك، فقال: لا خير في العيش بعدهما، ولما وصل إلى الحاجر، قال خذلتنا شيعتنا، فمَن أحبَّ منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج عليه وليس عليه منّا ذمام، فتفرق الناس عنه أيادي سبأ ـ وهم

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٦١.

(٣) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٦٠ ـ ١٦٣.

(٤) الإصابة جـ ١ ص ٢١٣.

الأعراب الذين اتبعوه في الطريق ـ يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من مكة[1].

في كربلاء

فلما نزل كربلاء قال: ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: كرب وبلاء.

وبعث عبيد الله بن زياد عمرَ بن سعد لقتاله، فقال له الحسين: (يا عمر، اختر مني إحدى ثلاث خصال: إما أن تتركني أرجع كما جئت، فإن أبيتَ هذه فسيّرني إلى يزيد، فأضع يدي في يده، فيحكم فيَّ ما رأى، فإن أبيتَ هذه فسيّرني إلى الترك، أُقاتلهم حتى أموت)، فأرسل إلى ابن زياد بذلك، فهمّ أن يسيّره إلى يزيد، فقال شَمِر بن ذي الجوشن: لا، إلا أن ينزل على حكمك، فأرسل إلى الحُسين بذلك، فقال الحسين: والله لا أفعل.

وأبطأ عمر عن قتاله، فأرسل ابن زياد شمر بن ذي الجوشن وقال له: إن تقدَّم عمر فقاتل، وإلا فاقتله وكن مكانه، فقد ولّيتك الأمر، وكان مع عمر قريباً من ثلاثين رجلاً من أعيان أهل الكوفة، فقالوا له: (يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ﷺ ثلاث خصال، فلا تقبلون منها شيئاً)، وتحوّلوا مع الحسين يقاتلون معه[2].

وأمر ابن زياد عمر بن سعد أن يحول بينهم وبين الماء، والحسين وأصحابه متقلدون سيوفهم، وأمر الحسين أصحابه أن يترووا من الماء ويسقوا خيولهم، ويسقوا خيول أعدائهم أيضاً، وصلَّى الحسين صلاة الظهر، وأحضر الحسين خرزين مملوءين كتباً، فنشرها، وقرأ منها طائفة، فقال الحُرّ: لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك في شيء، وتنحّى الحُرّ عنه وجعل يسير بأصحابه ناحية عنه، وخلص إليه أُناس من أهل الكوفة، فقال لهم الحسين: أخبروني

---

(١) البداية والنهاية ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٧٠.

عن الناس وراءكم، فقال مجمّع بن عبد الله العامري: (أما أشراف الناس فهم إلْب عليك، لأنهم قد عظمت رشوتهم ومُلئت غرائرهم فهم إلْب واحد عليك، وأما سائر الناس فأفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[1].

وجعل عمرُ بن سعـد شمرَ بن ذي الجوشن على الرجالة ونهضوا إلى الحسين وأصحابه عشية يوم الخميس التاسع من المحرم، وركبوا وزحفوا إليهم، وأوصى الحسين بهذه الليلة إلى أهله، وخطب في أصحابه، وخيّرهم بالذهاب إلى حيث شاؤوا، وقال: إنما القوم إنما يريدونني. فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه: لا بقاء لنا بعدك، ولا أرانا الله فيك ما نكره، فقال بنو عقيل: نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، قبَّح الله العيش بعدك[2].

وصلَّى الحسين الصبح يوم الجمعة (وقيل يـوم السبت) وكان يـوم عاشوراء، وأصحابه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون رجلاً، وركب الحسين على فرسه، وأخذ مصحفاً فوضعه بين يديه، وركب ابنه علي بن الحسين وكان ضعيفاً مريضاً، وشرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه، وعلو قدره وشرفه، ويقول: راجعوا أنفسكم وحاسبوها، هل يصلح لكم قتال مثلي، وأنا ابن بنت نبيّكم إلى آخره[3]، والتحق به الحرّ بن يزيد الرياحي، فأقبل على فرسه، ولم يزل يقاتل حتى قتل.

وقام شَمِر وأقبل فحمل على أصحاب الحسين وأتى أصحابه مثنى وفرادى يقاتلون بين يديه، وهو يدعو لهم ويقول: جزاكم الله أحسن جزاء المتقين، وقاتلوا بين يديه حتى تفانَوا، وقتل كثير من بني علي بن أبي طالب إخوة الحسين.

ونادى شَمِر بن ذي الجوشن: ماذا تنتظرون بقتله؟ فتقدم إليه زرعة بن

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٧٣.
(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٣) الإصابة جـ ١ ص ١٨٠ ـ ١٨٣.

شريك التَّمِيمي فضربه بالسيف على عاتقه، ثم طعنه سنان بن أنس بن عمرو النخعي بالرمح، ثم نزل فاحتزّ رأسه ودفعه إلى خولي، قال أبو مخنف عن جعفر بن محمد قال: وجدنا بالحسين حين قتل ثلاثاً وثلاثين طعنة، وأربعاً وثلاثين ضربة(١).

وقتل من أصحاب الحسين اثنان وسبعون نفساً، وروي عن محمد بن الحنفية أنه قال: قتل مع الحسين سبعة عشر رجلاً، كلهم من أولاد فاطمة(٢).

وقتل رضي الله عنه يوم الجمعة يوم عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين، وله أربع وخمسون سنة وستة أشهر ونصف.

في محضر يزيد

قال هشام: لما جاء رأس الحسين دمعت عينا يزيد بن معاوية، وقال كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سُميَّة، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه(٣).

وحدَّث مولى لمعاوية بن أبي سفيان، قال: لما أُوتي يزيد برأس الحسين ووضع بين يديه، رأيته يبكي، ويقول: (لو كان بين ابن زياد وبينه رحم ما فعل هذا)(٤).

وأدخل السبي على يزيد فأغلظ لهم أول الأمر، ثم لم يلبث أن رفق بهم، وأدخلهم على أهله، ثم جهزهم بعد ذلك إلى المدينة وردّهم إليها كراماً، ولا يروى أنه لام ابن زياد ولا عاقبه ولا عزله.

وقد روي خلاف ذلك من فرحه واستبشاره وشماتته ما لا يليق بمسلم.

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٨، وفي مواضع العبرة أنَّ كلّ مَن كان له ضلع في قتل الحُسين وقتاله، قُتل بعد ذلك. فقد تتبّع المختار ـ على ضلالته وانحرافاته ـ قتلة الحسين وغيرهم ممّن كانت له يد جارحة في تلك الجريمة، فقتلهم. والله عزيز ذو انتقام.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠.

(٣) المرجع السابق ص ١٩١.

(٤) البداية والنهاية جـ٨ ص ١٧١.

وقعة الحَرّة وموت يزيد

وفي سنة ثلاث وستين كانت وقعة الحَرّة، وهي وصمة عار في تاريخ الإسلام الأول، فقد أذن يزيد لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، يقول ابن كثير:

(وقد وقع في هذه ثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يُحدّ ولا يوصف، وقد أراد يزيد توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بنقيض قصده وحال بينه وبين ما يشتهيه)[١].

ولم يعش يزيد، ولم يتمتع بالمُلْك إلا أربع سنين، فقد توفي في الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين[٢].

وانقطعت الخلافة على موت يزيد من آل أبي سِفيان، وانتقلت إلى بني مروان بن الحَكَم[٣]، إلى أن خلفهم بنو العباس، والله مالك المُلْك يؤتي المُلْك مَن يشاء وينزع المُلْك ممّن يشاء، ويعزّ مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء.

آراء بعض أعلام أهل السُنّة وانطباعاتهم عن شهادة الحسين وكارثة كربلاء

ولم يزل أئمة أهل السنّة وأعلامهم يستنكرون فعل يزيد وقوّاده، كعبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، ويتبرؤون منهم، ويستفظعون شهادة الحسين ومَن كان معه من آل البيت غاية الاستفظاع، وهنا بعض أمثلة ونماذج من غير استيعاب وتوسُّع.

---

(١) البداية والنهاية جـ٨ ص ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق جـ٨ ص ٢٢٦.

(٣) كان معاوية بن يزيد وليَّ عهده بعده، بويع له بعد موت أبيه في الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين، وكان رجلاً صالحاً ناسكاً، ولم تطل مدة خلافته، وكان في مدة ولايته مريضاً لم يخرج إلى الناس، ومات عن إحدى وعشرين (وقيل أكثر من ذلك وأقل). واجتمع بنو أمية إلى مروان بن الحكم وبايعوه لثلاث خلَون من ذي القعدة سنة أربع وستين، ومات مروان في الثالث من شهر رمضان سنة خمس وستين، وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان، واستمرّت الخلافة في آل مروان حتى انتزعها منهم بنو العبّاس.

قال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل، قلت لأبي: (إن قوماً يقولون إنهم يحبّون يزيد)، فقال: (يا بُنيّ، وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟) فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟ فقال: (يا بُنيَّ، ومتى رأيت أباك يلعن أحداً)[1].

* * *

وقد قال شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية في حديث جرى بينه وبين مُقَدَّم المغول بولائي لما قَدِمَ دمشق في الفتنة الكبيرة:

(أما مَن قتل الحسين أو أعان على قتله، أو رضي بذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً)[2].

(والحسين رضي الله عنه أكرمه الله تعالى بالشهادة في هذا اليوم، وأهان بذلك مَن قتله أو أعان على قتله أو رضي بقتله، وله أُسوة حسنة بمَن سبقه من الشهداء، فإنه وأخوه سيّدا شباب أهل الجنة، وكانا قد تربَّيا في عزّ الإسلام، لم ينالا من الهجرة والجهاد والصبر على الأذى في الله ما ناله أهل بيته، وأكرمهم الله تعالى بالشهادة تكميلاً لكرامتهما ورفعاً لدرجاتهما، وقتله مصيبة عظيمة، والله سبحانه قد شرع الاسترجاع عند المصيبة بقوله تعالى: ﴿ وبشّر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أُولئك عليهم صَلَواتٌ من ربهم ورحمةٌ، وأُولئك هم المهتدون ﴾)[3].

* * *

ويقول الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (المشهور بمجدّد الألف الثاني) (م ١٠٣٤ هـ) في إحدى رسائله:

(إن يزيد الذي حُرِمَ السعادة والتوفيق من زمرة الفُسّاق، أما التوقُّف في لعنه فهو على أساس أُصول أهل السنّة، أن الشخص المعيَّن ولو كان كافراً لا

---

(١) فتاوى ابن تيمية جـ ٤ ص ٤٨٣، الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ، الرياض.

(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٨٧.

(٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ٥١١.

يسرع إلى لعنه، إلا أن يعرف بالقطع أنه خُتِمَ له بالكفر كأبي لهب وامرأته، وليس معنى ذلك أنه ليس جديراً باللعن، فإن الله يقول: إنَّ الَّذين يؤذون اللهَ ورسولَه لعنهم الله في الدنيا والآخرة)[1].

* * *

ويقول العلاّمة الشيخ عبد الحق البخاري الدهلوي المحدّث الكبير (م ١٠٥٢ هـ) في كتابه «تكميل الإيمان»:

(وبالجملة فإن يزيد من كبار المبغوضين عندنا، والفظائع التي ارتكبها هذا الشقيُّ الذي خانه التوفيق في هذه الأُمة لم يقترفها أحد في هـذه الأُمة)[2].

* * *

ويقول الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـولي الله الدهلوي (م ١١٧٦هـ) في كتابه الشهير «حجة الله البالغة» في مبحث الفتن وفي شرح حديث «ثم ينشأ دعاة الضلال»:

(ودعاة الضلال يزيد بالشام، ومختار بالعراق)[3].

* * *

ويقول العلاّمة عبد العلي ابن العلاّمة نظام الدين الأنصاري اللكهنؤي (م ١٢٢٥ هـ) المعروف بالعلاّمة بحر العلوم في كتابه «فواتح الرحموت شرح مُسلَّم الثبوت»:

(ويزيد ابنه كان من أخبث الفسّاق، وكان بعيداً بمراحل من الإمامة، بل الشك في إيمانه، خذله الله تعالى، والصنيعات التي صنعها معروفة من أنواع الخبائث)[4].

---

(١) الجزء الأول من رسائل الإمام الرباني الرسالة رقم ٢٥١ (الجزء الرابع من مكتوبات الإمام الرباني ص ٦٠ طبع المطبع المجددي، أمرتسر ١٣٢٩ هـ).

(٢) تكميل الإيمان ص ٧١. طبع مطبعة فخر المطابع لكهنؤ ١٩٠٥ م.

(٣) حجة الله البالغة جـ٢ ص٢١٣، طبع المكتبة السّلفية، لاهور (باكستان).

(٤) فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت جـ٢ ص ٢٢٣، طبع مصر ١٣٢٤ هـ.

جهود لإقامة الحُكم الصالح وتغيير الأوضاع، وقيمتها

قد قامت الخلافة بعد الخلفاء الراشدين -مع الأسف- على نظام الوراثة والسلالات، ودان العرب والمسلمون لها، فلم يكن لأحد أن يقوم في وجه الخليفة الأُموي أو العبّاسي ويطمع في النجاح إلا إذا كان حائزاً على شرف النسب وعلوّ البيت، متمتعاً بعصبية قويّة واسعة حتى يقرع الحديد بالحديد، ويقابل الريح بالإعصار، لذلك كان كل مَن خرج على الدولة الأُموية والعباسية ورفع راية الجهاد، هو من أهل بيت الرسول ومن العلويين، لأن إمكانات نجاحهم كانت ألمع وأظهر، والمسلمون إليهم أميل، وأيَّدهم أهل الصلاح ومحبُّو الإصلاح في عصرهم، والذين كانوا يتألّمون بمشاهدة فساد الأوضاع وضياع الخلافة، وضياع أموال المسلمين في الشهوات والنزعات الجامحة العاتية إلى الترف والعادات الجاهلية.

وقد قام بعد الحسين بن علي -رضي الله عنه وعن آبائه- حفيده زيد بن علي بن الحسين، خرج على هشام بن عبد الملك الأُموي، وقُتِلَ وصُلِبَ سنة ١٢٢ هـ، وقد أرسل إليه الإمام أبو حنيفة بعشرة آلاف درهم، واعتذر عن عدم حضوره[١].

* * *

ثم قام من بني الحَسَن بن علي محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ذو النفس الزكية في المدينة، وأخوه إبراهيم في الكوفة باتفاق منهما، وكان أبو حنيفة ومالك من أنصار ذي النفس الزكيّة، فقد انتصر له أبو حنيفة علانية، وأرسل إليه ببعض المال، ونهى قائد المنصور الحسن بن قحطبة من محاربته، فاعتذر من المنصور، وكان هذا هو السبب الحقيقي لما وقع من المنصور مع أبي حنيفة انتهى بحياته.

---

(١) مناقب أبي حنيفة جـ ١ ص ٥٥.

وقد جاء في تاريخ الكامل لابن الأثير أن أهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمد، وقالوا: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال:

(إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين) فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته[1]. وقد قتل محمد سنة ١٤٥ هـ في المدينة في شهر رمضان، وقتل أخوه إبراهيم في ذي القعدة من ذلك العام.

* * *

إن هذه المحاولات قد أخفقت ولم تأت بالنتيجة المطلوبة، لأن الحكومة قد كانت قوية ومنظمة، وكانت تملك الوسائل والذخائر، وقد رأينا في التاريخ الماضي والحاضر محاولات كثيرة تقوم على الإخلاص والإيمان والبطولة والشجاعة، ولا يقصر قادتها وأتباعها في التضحية بالأموال والأنفس، ثم كثيراً ما تُخفق أمام الحكومات المنظمة والجيوش العظيمة وقواها الهائلة، وليس هذا ببدع في التاريخ، ولا بمستغرب في سير هذا الكون، ولكنها ـ على إخفاقها في ميدان السياسة والنتائج المادية ـ قد خدمت الإسلام خدمة عظيمة لأنها حفظت على تاريخ الإسلام شرفه وكرامته، ولولا هذه الجهود وهذه المحاولات حيناً بعد حين لكان التاريخ الإسلامي قصة متصلة للأنانية والنفعية، قصة الملوك الذين يتسلَّطون، وقصة أصحاب الأغراض والأطماع الذين يخضعون، ولكن هؤلاء الأبطال المجاهدين وهؤلاء المؤمنين المغامرين، قد نصبوا للأجيال القادمة منارات للنور تُضيء لهم في غياهب التاريخ من بعيد، وتُنير لهم السبيل، وتلهم بالفروسية الإسلامية السابقة، والثورة على الأوضاع الفاسدة، والغضب لنظام الإسلام المظلوم ولكرامته المهدرة.

---

(١) الكامل جـ ٥ ص ٢٥١، وتأييد الإمامين الكبيرين أبي حنيفة ومالك لمحمد ذي النفس الزكية، شهادة لها قيمتها وأهميتها.

إنه تراث مجيد يعتزُّ به الإسلام، وثروة غالية تتجمَّل بها الأجيال، وسلسلة متصلة من المجاهدين تبعث على الثقة والإيمان واليقين.

﴿ من المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم مَن قضى نَحبَه، ومنهم مَن ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً ﴾[1].

* * *

(١) منقول من كتاب المؤلف «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول ص ٧٣ ـ ٧٤، دار القلم الكويت، الطبعة السابعة.



الفَصْلُ العَاشِرْ

سَادَةُ آلِ البَيْتِ وَأَوْلَادُ عَليّ

حياة أولاد علي بعد كارثة كربلاء وسيرتهم ـ الغَيْرة في النسب النبوي ـ كراهة الإطراء والغلوّ في المدح والحب ـ الاعتراف للخلفاء الثلاثة بالفضل والدفاع عنهم ـ أصحاب عزيمة وشهامة، وجهاد وكفاح ـ دورهم في الدعوة إلى الإسلام وتربية النفوس، وبعض الأمثلة في ذلك ـ عقيدة الإمامة عند الشيعة ـ الدوافع النفسية المريضة إلى تبني هذه النظرية ـ إيران القديمة وعكس معتقداتها.



الفَصْلُ العَاشِرْ

سَادَةُ آلِ البَيْتِ وَأَوْلَادُ عَليّ

حياة أولاد علي بعد كارثة كربلاء وسيرتهم

انتهت كارثة كربلاء بمخازيها وعارها على الحكومة القائمة، ومن شايعها، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه، وعاد أولاد علي والحسن والحسين إلى سيرتهم الأولى، من الطُّهر والعفاف، والاشتغال بالعبادة، وضرب المثل العملي من الإقبال على الآخرة والزهد في الدنيا، والاشتغال بخاصة النفس، والربانية الإسلامية الصادقة، وعزة النفس وسموها، والنصح للإسلام والمسلمين، السيرة التي تليق بأولاد الرسول ﷺ وعترته، وخلفاء الرسل.

نروي من ذلك النزر اليسير من الوفير الكثير والبحر الغزير[*].

يقول سعيد بن المسيب: ما رأيت أحداً أورع من علي بن الحسين[1].

قال الزهري: ما رأيت قريشياً أفضل منه. وكان إذا ذُكر عليّ بن الحُسين يبكي ويقول: (زين العابدين)[2].

كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل، فيتصدَّق به[3].

(*) وهي مدرسةٌ خُلقية مثالية، يتلقى فيها أبناء كل جيل دروس مكارم الأخلاق وروائع المروءة والسمّاحة، والإحسان إلى من أساء.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المجلد الثاني: جـ ٣ ص ١٤١.

(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٥.

(٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٦.

قال جرير: إنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجرب إلى المساكين[١].

وعن شيبة قال: لما مات عليّ بن الحُسين وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة.

وعن محمد بن إسحاق قال: كان الناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم؟ فلما مات عليّ بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتَوْن به في الليل[٢].

وكان يصلّي في كل يوم وليلة ألف ركعة، وتهيج الريح فيسقط مغشيّاً عليه[٣].

وعن عبد الغفار بن القاسم قال: كان علي بن الحسين خارجاً من المسجد، فلقيه رجل فسبَّه، فثار إليه العبيد والموالي، فقال علي بن الحسين: مهلاً عن الرجل، ثم أقبل على الرجل فقال: ما سُتِر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيى الرجل، فألقى عليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول[٤].

وكان عند علي بن الحسين قوم، فاستعجَلَ خادماً له بشواء كان له في التنّور، فأقبل به الخادم مسرعاً، فسقط السفّود[٥] من يده على بنّيٍ لعلي أسفل الدرجة، فأصاب رأسه فقتله، فقال عليّ للغلام: أنت حُرٌّ، إنك لم تعمده، وأخَذَ في جهاز ابنه[٦].

---

(١) حلية الأولياء جـ ٣ ص ١٣٦.
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٦.
(٣) صِفَةُ الصَّفوة لابن الجوزي جـ ٢ ص ٥٦.
(٤) المرجع السابق لابن الجوزي جـ ٢ ص ٥٦.
(٥) السفّود: حديدة يُشوى عليها اللحم.
(٦) صفة الصفوة لابن الجوزي جـ ٢ ص ٥٦.

وكانت ولادة عليّ بن الحسين في بعض شهور سنة ثمان وثلاثين، وأمُّه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس، وتوفي سنة أربع وتسعين في المدينة، ودفن بالبقيع في قبر عمه الحسن بن علي[1]، وليس للحسين رضي الله عنه عقب إلا من ولد زين العابدين.

* * *

وكذلك كان نجله محمد (الباقر)، وابنه جعفر (الصادق)، وابنه موسى ابن جعفر (موسى الكاظم)، وابنه علي الرضا، على أثر آبائهم الكرام، من الحِلم والكرم، وسموّ النفس والعفاف.

قال عمرو بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى أبي جعفر محمد علمت أنه من سلالة نبي[2].

وأما ابنه جعفر بن محمد (الصادق) فأقبل على العبادة والخضوع، وآثر العزلة والخشوع، ونهى عن الرياسة والجموع[3]. يصف الإمام مالك حاله، فيقول: (كنت آتي جعفر بن محمد وكان كثير التبسُّم، فإذا ذُكِرَ عنده النبي اخضـرّ واصفرّ، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدّث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العُبّاد الزّهاد الذين يخشَون الله)[4].

وكان موسى بن جعفر بن محمد بن علي (وهو موسى الكاظم) كريماً حليماً، إذا بلغه عن رجل أنه يؤذيه بعث إليه بمال[5]، وقد يبعث إليه بصرّة

---

(١) اقرأ ترجمة علي بن الحسين ومناقبه في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير جـ ٩ ص ١٠٣ - ١١٥.

(٢) حلية الأولياء جـ ٢ ص ١٩٣.

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٩٢.

(٤) الإمام الصادق للعلامة أبو زهرة ص ٧٧، (دار الندوة الجديدة، بيروت).

(٥) صفة الصفوة جـ ٢ ص ١٠٣.

فيها ألف دينار، وكان يصر الصرر ثلاث مائة دينار، وأربع مائة دينار، ومائتي دينار ثم يقسمها بالمدينة.

* * *

وأبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق جعله المأمون ولي عهده، كانت ولادته في بعض شهور سنة ثلاث وخمسين ومائة، وتوفي في آخر يوم من صفر سنة اثنتين ومائتين، صلى عليه المأمون ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد.

* * *

كذلك كان آل الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وقد ترجم ابن عساكر للحسن بن الحسن بن علي (وهو المعروف بالحسن المثنّى) وذكر عنه آثاراً حسنة تدل على سيادته[1].

أما عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (وهو المعروف بعبدالله المحض)[2]، فقد كان من تابعي أهل المدينة ومحدّثيها، قال الواقدي: كان عبدالله من العُبّاد، وكانت له شرف وعارضة وهيبة ولسان شديد، وكان مصعب بن عبدالله يقول: ما رأيت أحداً من علمائنا يكرمون أحداً ما يكرمون عبدالله بن الحسن. قال ربيعة ـ وقد سمع كلام عبدالله ـ فقال: أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء. وكان جماعة فيهم أيّوب جلوساً في مكة، فسلَّم عليه رجل من ورائه فالتفت إليه بجسده كله، فسلَّم عليه تسليماً خفياً، ثم التفت وقد دمعت عيناه، فقيل: من هذا؟ فقال: ابن النبيّ، عبدالله ابن الحسن[3].

---

(١) راجع «تهذيب تاريخ دمشق الكبير» لابن عساكر جـ ٤ ص ١٦٥ ـ ١٦٩ (طبع دار المسيرة بيروت ١٩٧٩ م).

(٢) لقّب بالمحض لأن أباه الحسن بن الحسن بن علي، وأمّه فاطمة الصغرى بنت الحسين بن علي، فهو هاشمي علويّ من جهتين.

(٣) تاريخ ابن عساكر جـ ٤ ص ٣٥٧ ـ ٣٦٦.

قال ابن كثير: عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كان معظّماً عند العلماء، وكان عابداً كبير القدر، قال يحيـى بن معين: كان ثقة صدوقاً، روى عنه جماعة منهم سفيان الثوري والداروردي ومالك[1]، توفي نحواً من سنة خمس وأربعين ومائة.

* * *

وابنه محمد الذي خرج من المدينة، كان ذا هِمّة سامية وسطوة عالية، وشجاعة باهرة[2]، وكان كثير الصوم والصلاة، شديد القوة، وكان يُلقَّب بالمهدي والنفس الزكية[3].

وقد ظهر منه ما اتّصف به أهل البيت وبنو هاشم، من المروءة والرحمة، وصيانة الناس من التعرُّض للأذى لأجلهم وفي سبيلهم، فلما حمي الوطيس في حربه مع جيش المنصور في المدينة، ورأى محمد أنه مقتول، مضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعوه، إشفاقاً عليهم أن يؤخَذوا بالانتصار له[4].

الغَيْرة في النسب النبوي

وكانوا غيارَى أشد الغَيْرة في الرحم التي كانت تصلهم برسول الله ﷺ، فما كانوا يستغلّون هذه النسبة لمصالح دنيوية، شأن أبناء أسر الزعماء الدينيين في الديانات والأمم الأخرى، ممن ينالون تقديساً زائـداً في كل حـال، ويعامَلون من أتباعهم كشخصيات تفوق البشر، وكانوا بعيدين عن كسب حطام الدنيا بأسمائهم، وبناء قصور الفخر على عظامهم، وما تتحدَّث عنه كتب التاريخ والسيرة من حكايات لإبائهم واستغنائهم وعِزّة نفسهم، تصور سيرتهم وسلوكهم تصويراً يختلف تماماً عن سيرة الطبقة المحترفة بالدين (من البراهمة

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٤٢.
(٢) أيضاً جـ ١٠ ص ٩٥.
(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ٥٥٣.
(٤) المرجع السابق جـ ٥ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨.

والكهنة) في الديانات والمِلَل الأخرى، فإنها تعتبر ذات قدسية وعظمة عن طريق الولادة، فهي لا تحتاج لكسب المعاش وتحقيق حاجات الحياة إلى بذل شيء من الجُهد والسعي.

دخل سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما السُّوق لحاجة يقضيها، فساوم صاحب دكان في سلعة، فأخبره بالسعر العام، ثم علم أنه الحسن بن علي رضي الله عنهما سبط رسول الله ﷺ، فنقص في السعر إجلالاً له وإكراماً، ولكن الحسن بن علي رضي الله عنهما لم يقبل منه ذلك، وترك الحاجة، وقال: إنني لا أرضى أن أستفيد من مكانتي من رسول الله ﷺ في شيء تافه.

ويقول جويرية بن أسماء ـ وهو من أخصّ خدم سيدنا علي بن الحسين المعروف بزين العابدين ـ:

(ما أكل عليّ بن الحسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهماً قط)[1].

وكان إذا سافر كتم نفسه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن آخذ برسول الله ﷺ ما لا أعطي به[2].

وكذلك روي عن أبي الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم، فقد قيل إنه كان إذا سافر كتم نفسه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن آخذ برسول الله ﷺ ما لا أعطي به[3].

كراهة الإطراء والغلوّ في المدح والحُبّ

وكانوا مقتصدين متورّعين في انتسابهم إلى الرسول ﷺ، لا يحبون أن يغالَى في ذلك مغالاة المتطرِّفين المغالين من أتباع ديانات أخرى كاليهوديّة والمسيحية والبرهمية، فعن يحيى بن سعيد قال: سمعت عليّ بن الحسين

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٦.
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ص ٤٣٤ طبع مطبعة النهضة، القاهرة ١٩٤٨ م.
(٣) أيضاً جـ ٢ ص ٤٣٤.

واجتمع عليه ناس، وقالوا له القول، فقال لهم: (أحبُّونا حُب الإسلام لله عزّ وجلّ، فإنه ما برح بنا حبُّكم حتى صار علينا عاراً)[1].

وكذلك روى خَلَف بن حَوْشب عن عليّ بن الحسين، قال: (يا معشر أهل العراق، يا معشر أهل الكوفة، أحبُّونا حب الإسلام، ولا ترفعونا فوق حقنا)[2]، وعنه قال: (إنا أهل بيت نطيع الله في ما نحب، ونحمده في ما نكره)[3].

وكذلك قال الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وقد قال لرجل يغلو فيهم: (وَيْحَكُم أحبّونا لله، فإن أطعنا الله فأحبّونا، وإن عصيناه فأبغضونا، فلو كان الله نافعاً أحداً بقرابته لرسول الله بغير طاعة الله لنفع بذلك أباه وأمه، قولوا فينا الحق، فإنه أبلغ فيما تريدون، ونحن نرضى به منكم)[4].

وقال لمقرّظيه: (ويلكم أحبُّونا إن أطعنا الله على طاعته، وأبغِضونا إن عصينا الله على معصيته)[5].

وكانوا دائماً حريصين على اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، قد رُوي عن عبدالله بن مسلم ابن بابك المعروف بالبابكي أحد أصحاب زيد بن علي الشهيد، قال:

(خرجنا مع زيد بن علي إلى مكة، فلما كان نصف الليل واستوت الثريا، قال: يا بابكي، أما ترى هذه الثريا؟ أترى أحداً ينالها، قلت: لا، قال: والله لوددت أن يدي ملصقة بها فأقع على الأرض أو حيث أقع، فأتقطع قطعة قطعة، وأن الله أصلح بين أمة محمد ﷺ!!)[6].

---

(١) حلية الأولياء، المجلد الثاني: جـ ٣ ص ١٣٦.
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٧.
(٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٨.
(٤) ابن عساكر جـ ٤ ص ١٦٥ ـ ١٦٩.
(٥) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧١.
(٦) مقاتل الطالبيّين لأبي الفرج الأصبهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ) ص ١٢٩، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

الاعتراف للخُلفاء الثلاثة بالفضل والدّفاع عنهم:

وكانوا دائماً يعرفون للخلفاء الراشدين الثلاثة فضلهم في الإسلام، وحقهم على المسلمين، ويعلنون ذلك على ملأ من الناس، فعن يحيى بن سعيد، قال: أتى عليَّ بن الحسين نفرٌ من أهل العراق فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فلما فرغوا قال: أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا، ربَّنا إنك رؤوفٌ رحيمٌ﴾ اخرجوا فعل الله بكم[1].

وعن عروة بن عبدالله قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيوف، قال: لا بأس به، قد حلّى أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيفه، قال: قلت وتقول الصديق؟ قال: فوثب وثبة واستقبل القبلة، ثم قال: (نعم الصدِّيق، فمن لم يقل له الصدِّيق، فلا صدّق الله له قولاً في الدنيا والآخرة)[2].

وعن مولى جابر الجُعْفي قال: قال لي أبو جعفر محمد بن علي لما ودّعته: (أبلغ أهل الكوفة أني بريء ممن تبرّأ[3] من أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما وأرضاهما)[4].

وعن محمد بن إسحاق عن أبي جعفر محمد بن علي قال: (من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقد جهل السنة)[5].

وقال أبو خالد الأحمر: سألت عبدالله بن الحسن عن أبي بكر وعمر، فقال: صلى الله عليهما، ولا صلّى على من لم يصلّ عليهما، وقال: ما أرى

---

(١) صفة الصفوة جـ ٢ ص ٥٥.
(٢) المرجع السابق جـ٢ ص ١٨٥.
(٣) وفي نسخة «ممن هزأ».
(٤) صفة الصفوة جـ ٢ ص ١٨٥.
(٥) المرجع السابق جـ٣ ص ١٨٥.

رجلاً يسبّ أبا بكر وعمر، ثم تيسَّرت له توبة أبداً. وذكر يوم قتل عثمان فبكى حتى بلّ لحيته وثوبه[1].

أصحاب عزيمة وشهامة، وجهاد وكفاح

وكان سادة أهل البيت وأولاد أسد الله الغالب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم وأحفاده متحلّين بالشهامة والشجاعة التي كانت شعار العترة النبوية، وإرث سيدنا علي المرتضَى والحسين بن علي شهيد كربلاء، لقد كانوا عاملين بالعزيمة غير مبالين بأي مصيبة ومعاناة في سبيل الحق، ومواجهة كل خطر لتوجيه المسلمين الصحيح.

وقد ذكرنا موقف زيد بن علي بن الحسين من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بن مروان، وموقف محمد بن عبدالله المَحْض ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم من خلافة المنصور، ولم يزل هذا شعارهم ودأبهم على مدّ التاريخ الإسلامي، فكان دائماً أحد أفراد هذا البيت في موضع القيادة من الجيش المجاهد في سبيل الله، المناضل ضد القوات الأجنبية، والجيوش الاستعمارية، في قارَّتي آسيا وإفريقيا، لهم تاريخ مجيد حافل بالبطولات والمكرمات، ينتظر مؤرخاً أميناً، طويل الأناة، واسع الاطلاع، يجمعه في كتاب أو في سلسلة كتب[2].

وهذا خلاف ما يصوره المغالون في حبهم، الذاهبون فيه كل مذهب، أنهم كانوا فاقدي الشجاعة والجراءة في إظهار الحق، وكانوا يعيشون في خوف من المخاوف والأخطار، ويتبعون سياسة المصالح وإخفاء الحق، ويعتمدون على سلاح (التّقيّة) لا كوسيلة مؤقّتة وسلاح شخصي، بل باعتبارها

---

(١) تاريخ ابن عساكر ص ٣٥٧ ـ ٣٦٦.

(٢) اقرأ على سبيل المثال سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ت ١٢٤٦ هـ) (١ ـ ٢) في ١١٧٦ صفحة للمؤلف في أردو، وكتاب «إذا هبّت ريح الإيمان» للمؤلف بالعربية، وكتاب SYYED AHMAD SHAHEED للأستاذ محيي الدين بالإنجليزية، وما كُتب عن الحركة السنوسية في طرابلس وبرقة بالعربية في «حواشي حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان، جـ٢ ص ١٤٠ ـ ١٦٥، (مكتبة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ).

عبادة وذريعة للتقرب إلى الله تعالى، وهم يستغلون هذا السلاح في مناسبة وغير مناسبة، ويبعدون الأمة المحمدية عن تعاليم النبوة الحقيقية، كما أنهم يحرمون الدين العزة والغلبة، ومواجهة بعض الأخطار في سبيل ذلك.

وإن صورة هؤلاء الأئمة العظام التي تعرضها الكتب التي أُلّفت في مناقبهم وفضائلهم لا تختلف إطلاقاً عن صورة الماسونية FREEMASONS وجمعية إخوان الصفاء، وصورة المنظمات السرية UNDERGROUND ORGANIZATIONS التي توجد في بلاد ودول مختلفة، ولا تثور في النفس بدراستها والاطلاع عليها روح الطموح والعزيمة، والمغامرة والمخاطرة، لنشر الدين وتغليب الإسلام، تلك الروح الغالية التي غيَّرت مجرى التاريخ والأحداث في عهود مظلمة متعددة وأوضاع شاذة، خلال أربعة عشر قرناً من تاريخ الإسلام، وأرغمت التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً.

دورهم في الدعوة إلى الإسلام وتربية النفوس وبعض الأمثلة في ذلك

وللمنتمين إلى الدوحة العلويّة ـ بفرعيها الحسنية والحسينية ـ ولأبناء أبناء الرسول ﷺ دور رائع متصل في الدعوة إلى الإسلام في مناطق لم تبلغها دعوة الإسلام من زمان، فأسلم خلق كثير، أو دخلت هذه البلاد في الإسلام عن بكرة أبيها، واستمرت فيها شجرة الإسلام تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ونهض فيها علماء كبار، ومربّون عظام، كما كان الشأن مع البربر في المغرب الأقصى[1]، ومنطقة كشمير في شبه القارة الهندية، فهي تدين في دخولها في الإسلام بأكثرية ساحقة (لا تزال بحمد الله إلى هذا اليوم) للداعية الكبير الأمير السيد علي بن الشهاب الهمذاني (م ٧٨٦ هـ)[2].

---

(١) من المعروف أن إدريس بن عبدالله بن عبدالله بن الحسن المشهور بإدريس الأكبر (م ١٧٥ هـ) الذي هو مؤسس الدولة الإفريقية، لما استوثق الأمر له، وتمت دعوته زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية، (وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية) فأسلموا على يديه، (راجع كتب تاريخ المغرب الأقصى).

(٢) يقول مؤلف (نزهة الخواطر) كان من نسل إسماعيل بن علي بن محمد بن علي بن الحسين=

وكذلك الفضل الأكبر في انتشار الإسلام في جزائر جنوب شرق آسيا وفي جزائر الهند «أندونيسيا» يرجع إلى السادة الأشـراف، يقول المؤلف ل، و، س، فندن بيرخ في كتابه:

(إن التأثير في الإسلام إنما كان من السادة الأشراف، وبهم انتشر الإسلام بين سلاطين الهنود في جاوا وغيرها، وإن كان يوجد غيرهم من عرب حضرموت، ولكن لم يكن لهم ذلك التأثير). وعلّل هذا الأمر الواقعي بأن السبب هو كون هؤلاء من ذرية صاحب الرسالة الذي جاء بالإسلام.

وجاء في تاريخ سراواك أن السلطان بركات كان من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد اشتغل السادة الحسينيون أهل حضرموت بالتجارة البحرية ونشروا الإسلام عن طريقها.

وجاء في قرار من مجلس المشاورة المنعقد في ٨ ذي الحجة ١٣٨٢ هـ (٣٠/ أبريل ١٩٦٢ م) أن السادة العلويين الحضرميين الشافعيين هم الذين نشروا الإسلام في أندونيسيا.

وكذلك دخل الإسلام إلى جزر فلبّين في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي على أيدي جماعة من الأشراف العلويين الذين وصلوا إلى تلك البلاد، وقد حملوا راية الدعوة الإسلامية هناك، وساعدوا على تنمية البلاد وتطوير مؤسساتها الاجتماعية والثقافية والسياسية.

وكذلك في جزائر القمر وما والى جزيرة مدغسكر، وموزانبيق وبلاد الملايو وسولو(١).

* * *

= السبط، قدم كشمير في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (وقيل ثمانين وسبع مائة) مع سبع مائة من أصحابه، فأسلم على يده غالبُ أهلها (نزهة الخواطر جـ ٢ ص ٨٥)، ومن الثابت تاريخياً أن وصول الحضارة الإسلامية إلى كشمير، وازدهار الفنون والآداب فـي هذه الربوع، وظهور العلماء الكبار في هذه المنطقة، يرجع فضله إلى الأمير الكبير السيد علي الهمذاني

(١) اقرأ التفاصيل الدقيقة الكثيرة في كتاب «المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى» تأليف =

وكان منهم مربون كبار اشتغلوا بتزكية النفوس وتجليتها وربطها بخالقها والإقبال بها إلى الآخرة، والتقوى واتباع السنة والعزوف عن الشهوات والأنانيات، والدعوة إلى الله، وانتهت إليهم رئاسة العلم والتربية والإصلاح والإرشاد، والدعوة إلى الله، وقَصَدهم الناس من الآفاق، ورزقهم الله من الوجاهة والقبول ما أزرى بوجاهة الملوك والسلاطين.

ونخصّ بالذكر منهم ـ ولا يمكن استقصاؤهم ولا يسعه هذا المختصر ـ الإمام عبد القادر الكيلاني[1] (٤٧٠ ـ ٥٦١) وقد امتاز في تاريخ الدعوة إلى الله وتزكية النفوس بإحياء موات النفوس والقلوب، وإشعال مجامرها التي انطفأت من جديد، وقد هبَّت بمواعظه وتربيته رياح قوية من الإيمان، عاشت بها قلوب ميتة، ونشطت بها نفوس خامدة، وانطلقت في العالم الإسلامي موجة من الإيمان الجديد، والروحانية القوية، والأخلاق الفاضلة، والتفويض الكامل، والتوحيد الخالص.

يقول الشيخ عمر الكيساني:

(لم تكن مجالس الشيخ عبد القادر رضي الله عنه تخلوا ممن يُسلم من اليهود والنصارى، ولا ممن يتوب من قُطّاع الطريق، وقاتلي النفس، وغير ذلك من الفُسّاق، ولا ممن يرجع عن معتقد سيّء، وقد أسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من العيَّارين والمسالحة[2] أكثر من مائة ألف)[3].

وقد نشط المربون على يديه أو المنتمون إليه فانتشروا في مجاهل إفريقيا وانتشر بهم الإسلام انتشاراً واسعاً[4].

= العلامة السيد علوي بن طاهر الحداد، طبع عالم المعرفة، جدة، سنة ١٤٠٥ هـ تحت عنوان «ناشروا الإسلام في الشرق الأقصى» ص ١٩٩ ـ ٣٠٤.

(١) ينتهي نسبه إلى الحسن بن عليّ رضي الله عنهما بعشر وسائط.

(٢) المسالح: الجماعة أو القوم ذوو السلاح.

(٣) قلائد الجواهر ص ٢٢، لعمر الكيساني، (الطبعة العثمانية، مصر، ١٣٠٣ هـ).

(٤) راجع «الدعوة إلى الإسلام» لأورنلد T.W. ARNOLD PREACHING OF ISLAM الباب =

هذا عدا نشره للعلم، ونصرته للسنة والعقيدة الصحيحة ومحاربة البدع[1].

* * *

وقد كان في القارة الهندية مربون كبار ومصلحون عظام من المنتمين إلى السادة والأشراف من أولاد الرسول ﷺ، يقومون بمهمة تزكية النفوس وصقلها وتجليتها وتخليصها من غوائل النفوس وأمراض الباطن ورذائل الأخلاق، وربطها بالله تعالى وشريعة نبّيه ﷺ ربطاً قوياً دائماً، لا يمكن استيعاب أسمائهم فضلاً عن ذكر مآثرهم وأخبارهم، ونكتفي بالإشارة إلى المربّي الكبير الشيخ نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني الدهلوي، وخليفته الشيخ محمود بن يحيى المعروف بنصير الدين الأودي الدهلوي، وخليفته السيد محمد بن يوسف الحسيني الكُلْبَرَكوي[2]، وكلهم من آل الرسول ﷺ والسادة المعترف بنسبهم.

أما الشيخ نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني (٦٣٦ - ٧١٥) فيقول العلامة علي بن سلطان القاري المكي في كتابه (الأثمار الجنية في أسماء الحنفية):

(إليه المنتهَى في دعاء الخلق إلى الله تعالى، وتسليك طريق العبادة، والانقطاع عن علائق الدنيا، هذا مع التضلُّع من العلوم الظاهرة، والتبحُّر في الفضائل الفاخرة).

وذكره مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس في كتابه (الألطاف الخفية في أشراف الحنفية)[3].

= الحادي عشر في انتشار الإسلام في إفريقيا، وراجع عنوان «الإسلام في إفريقية» حواشي الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي جـ٢ ص ٣٦٧.

(١) قال ابن رجب: قد كان رحمه الله في العقيدة والفروع متبعاً للإمام أحمد، والمحدثين والسلف، كان متمسّكاً في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة، مبالغاً في الردّ على من خالفهما.

(٢) اقرأ لتراجمهم الحافلة في الجزء الثاني والثالث من سلسلة «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ). والكتاب في ثمانية أجزاء كبار في تراجم أعيان الهند من المسلمين، منذ دخل الإسلام في هذه البلاد إلى عصر المؤلف.

(٣) نزهة الخواطر جـ٣ ص ١٦٠ - ١٦٤.

أما الشيخ محمود بن يحيـى الأَوَدِي المشهور بنصير الدين محمود الحسيني اليزدي ثم الأودي الدفين بمدينة دهلي (م ٧٥٧ هـ)، فقد كان من كبار أولياء الله السالكين المرتاضين، في التمسُّك بالأثر، والدعاء إلى الله، ونفع الخلق والإحسان إليهم، والتوكل والزهد، توفي سنة سبع وخمسين وسبع مائة بمدينة دهلي[1].

أما الشيخ محمد بن يوسف، فهو الشيخ الإمام العالم الكبير، العلّامة الفقيه الزاهد، صاحب المقامات العلية والكرامات الجلية محمد بن يوسف بن علي بن محمد بن يوسف الإمام أبو الفتح صدر الدين محمد الدهلوي ثم الكلبركوي، فينتهي نسبه إلى يحيـى بن الحسين بن زيد الشهيد عليه وعلى آبائه السلام (٧٢١ ـ ٨٢٥). فكان المرجوع إليه في علمي الرواية والدراية، وفي تهذيب النفوس والدلالة على معالم الرشد وطرائق الحق، جامعاً بين الشريعة والطريقة، زاهداً غواصاً في بحار الحقائق والمعارف[2].

* * *

ومنهم السيد الشريف العلامة أشرف بن إبراهيم الحسني الحسيني المشهور بجهـانكيـر، ولد بمدينة سمنان ونَهَل في نعمة أبيه، ونشأ نشأة الملوك، واشتغل بالعلم على أساتذة عصره، وقام بالمُلك مقام والده، واشتغل بمهمات الدولة مع اشتغاله بصحبة الشيخ ركن الدين علاء الدولة السمناني وآخرين من العلماء والمشايخ، ثم خلع نفسه وترك السلطنة وأقام مقامه أخاه محمداً وظعن إلى الهند ودخل كجهوجهه[3]، وسكن بها واشتغل بالتربية والإرشاد ودعاء الخلق إلى الله، ونفع الله به خلقاً كثيراً.

وكان عالماً كبيراً عارفاً مِسفاراً، له مصنفات كثيرة في الفقه وأصول

---

(١) نزهة الخواطر جـ ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٦٠ ـ ١٦٤.
(٣) قرية في الولاية الشمالية الغربية في الهند.

الفقه والتزكية والكلام والأنساب والسير والتفسير، وديوان شعر، كانت وفاته في ٢٨ من محرم سنة ٨٠٨ هـ[١].

* * *

ولم يكن تأثير هؤلاء الشيوخ المربّين الداعين إلى الله محصوراً في وسطهم التربوي وفي نطاق تلاميذهم الروحيّين، بل تعدّى ذلك إلى المجتمع الإسلامي الواسع، وإلى الأسواق والمنازل، والبلاط الملكي. يقول أحد المتصلين بالشيخ نظام الدين البدايوني المذكور أعلاه، وأحد المؤرخين الكبار ضياء الدين البَرني، وهو يتحدّث عن تأثير الشيخ في المجتمع والشعب فيقول:

(لقد حدث بتأثير صحبة الشيخ وما اتّصف به من ورع وزهادة، وتحرّي الصدق والاستقامة في المعاملات وإصلاح الأخلاق، وارتفعت شعائر الإسلام، وكان للأحكام الشرعية رواج ونفاق، وأقلع الناس عن المعاصي وارتكاب المحرّمات، ونشأت فيهم رغبة جامحة إلى العبادة والقيام بالنوافل، والنشاط فيما ينفع الناس، والاهتمام بالأمور الرفاهية، وتاب عدد كبير من الناس عن تعاطي الخمر والمسكرات، والقمار والاستهتار، والانتفاع بالربا والاكتناز، وتطفيف الكيل وترويج السلعة بالكذب، إلى آخر ما يدل على انقلاب كبير في السلوك، وتطوّر واسع عميق في حياة الشعب)[٢].

ولم يكن هؤلاء المربّون العاكفون على تزكية النفوس والدعوة إلى الله منطوين على نفوسهم، لا شأن لهم بما يتهدّد المسلمين ومستقبلهم في هذه البلاد، يعيشون في عزلة عن الأحداث والتطورات في نظام الحكم وعمّا يؤثر في الوجود الإسلامي في هذه البلاد الواسعة التي تشكل حلقة ذهبية رئيسية في سلسلة الحكومات الإسلامية، وكانت لتلعب دوراً حاسماً في تاريخ الإسلام الإصلاحي والتجديدي في المستقبل القريب، ونكتفي في ذلك بمثالين:

---

(١) مختصراً من كتاب «نزهة الخواطر» جـ٣.

(٢) راجع «تاريخ فيروزشاهي» للمؤرخ ضياء الدين البرني، ص/٣٤٦ ـ ٣٤١.

الأول: ما رواه التاريخ الإسلامي من حكاية اضطلاع الملك الصالح العادل المعروف بالنشاط والحماس في نشر الإسلام في ربوع الهند، السلطان فيروزشاه تغلق فقد حدث بالسلطان محمد تغلق حادث الموت، بعيداً عن دار ملكه (دهلي)، وهو مصاف بعساكره لقتال المغول المقيمين على شطّ نهر السند الآخر، وقد أصبح بموته الجيش الإسلامي مالاً سائباً لا راعي له ولا قائد، وأصبحت الحكومة الإسلامية تحت رحمة الطامحين والطامعين من هواة الحكم والسلطة.

هذا وابن عم السلطان الراحل، فيروز تغلق، عازف عن الاضطلاع بالمسؤولية، زاهد في الملك والسلطان.

هنالك قام الشيخ محمود بن يحيى الأودي المشهور بنصير الدين سراج دهلي، فألحّ عليه بالاضطلاع بالمسؤولية والجلوس في مكان ابن عمه، والحكم بالعدل، والقيام بالجهاد، وتكفّل له بأنه سيدعو له بالنصر والبركة، وأجاب فيروز طلب الشيخ، وتولّى أمور الملك والسلطة وحكم أربعين سنة كانت من أفضل فترات الحكم في تاريخ الملوك المسلمين أمناً ورفاهية وقلّة جنايات، ونزول بركات من السماء[1].

والمثال الثاني، هو أنه لما استولى الحاكم الهندوكي راجه كش على عرش بنغال وتعرّض الحكم الإسلامي في هذه الولاية للزوال والانقراض لفت أحد المشايخ الكبار وهو الشيخ نور، والثاني السيد أشرف جهانكير السمناني، نظر السلطان إبراهيم الشرقي عاهل الحكومة الشرقية التي عاصمتها جونفور، إلى مواجهة هذا الخطر، ووجّه إليه رسائل لدفع هذا الخطر فتقدّم السلطان بجيوشه وزال الخطر وتراجع راجه كش بجيوشه[2].

* * *

(١) راجع «تاريخ فيروزشاهي»، ص ٢٨.

(٢) راجع «أخبار الأخيار»، ص ١٦١ ـ ١٦٣، و«كلزار أبرار»، ص ١٠٤ ـ ١٠٥، والتفصيل في «تاريخ مشايخ جشت» جـ١، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ للأستاذ الكبير خليق أحمد نظامي (طبع دار أدبيات دهلي ـ ١٩٨٠ م).

ومن هؤلاء السادة المُربّين الداعين إلى الله، الشيخ العارف آدم بن إسماعيل الحسيني الكاظمي البنّوري، أخذ عنه خلق كثير، حتى قيل إن أربع مائة ألف مسلم بايعوه على اتباع الشريعة المحمدية، واقتفاء آثار السنة السَنيّة، ونال عنه ألف رجل منهم حظاً وافراً من العلم والمعرفة. قيل إن زاويته قلما كانت تخلو عن ألف رجل كل يوم، كلهم يأكلون الطعام من مطبخه ويستفيدون منه، توجّه إلى لاهور سنة اثنتين وخمسين وألف، وكان معه عشرة آلاف من السادة والمشايخ من كل طبقة، وأوجس منه سلطان الهند (شاه جهان) خيفة، وكان بلاهور بذلك الزمان، فأوعَز إليه بأن يسافر إلى الحرمين الشريفين، فسافر وحطّ رحاله بالمدينة المنورة، ومات بها سنة ثلاث وخمسين وألف **١٠٥٣ هـ**[١].

* * *

وننتهي ـ بقطع مفاوز القرون الكثيرة والمساحات المكانية الواسعة ـ إلى الداعية الكبير والمربّي العظيم السيّد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد[٢] (١٢٠١ ـ ١٢٤٦ هـ)، الذي اعتبره كثير من أهل المعرفة والبصر مجدّد القرن الثالث عشر الهجري، فقد هبَّت بوجوده ودعوته رياح الإيمان والتوحيد الخالص واتّباع السُنّة السنيّة، والحنين إلى الجهاد والشهادة، والعمل بالعزيمة، والقيام بالبطولات الإسلامية، والتجرد عن الأنانية وسلطان الهوى، وتحكيم الشريعة المطهرة في الحياة الفردية والجماعية، وبذل أقصى الجهود لتأسيس حكومة شرعية على منهاج الخلافة الراشدة، ومواجهة القوات

---

(١) مختصراً من كتاب «نزهة الخواطر» الجزء الخامس، ص ١ ـ ٢.

(٢) ينتهي نسبه إلى محمد ذي النفس الزكية، ابن عبدالله (المحض)، ابن الحسن (المثنّى)، بن الحسن بن علي بن أبي طالب. قدم الهند جدّه الأمير الكبير شيخ الإسلام قطب الدين محمد ابن السيد رشيد الدين أحمد، في القرن السابع الهجري، وجاهد في سبيل الله، وفتحت على يده مدن وقلاع حصينة، وألقى الرحل في كره مانك بور، وتوفي سنة سبع وسبعين وست مائة، وبارك الله في أعقابه، ونهض منها مربون ومصلحون كبار، ومجاهدون في سبيل الله، أشهرهم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الراي بريلوي المذكور أعلاه.

الأجنبية، ومحاولة إجلاء الإنجليز من الهند، المغتصبين للحكم والسيطرة في شبه القارة ـ الذين كانوا يشكلون الخطر الكبير على العالم الإسلامي ـ، وبذل النفس والنفيس في ذلك، حتى اعتبره المؤرخون الإنجليز التحدّي الأكبر للنفوذ الإنجليزي ومستقبله[1]، هبت هذه الرياح قوية عاصفة مباركة طيبة، لم يشهد مثلها تاريخ الدعوة والكفاح الإسلامي في القرون الأخيرة[2].

يقول المؤلف الشهير والعالم الكبير العلامة السيد صدِّيق حسن القنّوجي أمير بوفال (م ١٣٠٧ هـ) ـ وقد أدرك خلفاءه ورأى آثار جهودهم ـ:

(إنه كان آية من آيات الله في هداية عباده وإصلاح حالهم، والرجوع بهم إلى الله وعبادته، بلغ خلق كثير وعالم بأسره إلى درجة الربانية والإحسان، بتعليمه وتربيته وتزكيته القلبية والجسمية، وتطهَّرت الهند من أدناس الشرك والبدع والخرافات والأوهام بفعل مواعظ أصحابه وخلفائه، واهتدت إلى جادّة الكتاب والسنة، ولا تزال مواعظه وتعاليمه تفعل فعلها وتؤتي أكلها).

ويُضيف قائلاً:

(وقصارى القول: إننا لا نعلم رجلاً يدانيه في جلالة شأنه وفضله في أي جزء من أجزاء العالم (العالم المعاصر)، وما جناه الخلق من المنافع الإيمانية والمكاسب الروحية من هذه الجماعة الحقة، لم ينالوا عشر أعشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين)[3].

ويقول أحد العلماء في أوائل هذا القرن الذين لهم خبرة واسعة بأحوال الهند وأخبارها، وهو الشيخ عبد الأحد:

---

(١) راجع كتاب OUR INDIAN MUSALMANS, W.W. HUNTER وسجلّ «القضية الوهابية الكبيرة»، THE GREAT WAHABI CASE.

(٢) راجع كتاب المؤلف «إذا هبَّت ريح الإيمان» طبع بيروت ولكهنو، ورسالة المؤلف «الإمام الذي لم يُوَفَّ حقه من الإنصاف والاعتراف»، طبع المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكهنو.

(٣) تقصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار، المطبع الشاهجهاني، بوفال، طبع ١٢٩٨ هـ، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(أسلم على يدي السيد أحمد رحمة الله عليه أكثر من أربعين ألف هندوكي وغير هندوكي، من الكفار، وبايعه ثلاثة ملايين من المسلمين، ولو وضعنا في الاعتبار سلسلة البيعة والإرشاد التي لا تزال متصلة الحلقات وتجري حتى اليوم على أرض الله، عن طريق أتباعه وأتباع أتباعه، فيكون قد دخل في بيعته ملايين الملايين من الناس)[1].

وقد قام السيد الإمام بحركة إصلاحية دعوية جهادية، لم تشهد الهند أوسع منها نطاقاً ولا أعمق منها أثراً، يكفي لذلك ما ذكره أحد المهاجمين الكبار لهذه الحركة ومنشئها، وهو الدكتور هنتر (W.W. HUNTER) يقول في كتابه «مسلمو الهند»:

(إن رئيس رجال الشرطة في بنغال صرّح بأن كل داع ومسؤول في الجماعة - أتباع السيد أحمد الشهيد - لا يقل أتباعه عن ثمانين ألفاً، تسود عليهم المساواة الإسلامية بكل معانيها، يعتبر كل واحد شغل زميله ومصلحته، شغله ومصلحته، لا يألو جهداً في مساعدة أخيه في حال من الأحوال)[2].

* * *

وقد نبغ في أقطار عربية إسلامية دعاة إلى الله ومربون وقادة للجهاد الإسلامي، واجهوا القوى الأوروبية الكبيرة بشجاعة نادرة وحكمة بالغة، وإليهم يرجع الفضل في تحرير هذه البلاد وتخليصها من الحكم الأجنبي، وقيام حكومات مسلمة حرة، نخص بالذكر منهم الأمير السيد عبد القادر الجزائري، وسيدي أحمد الشريف السَّنوسي، وننقل انطباعات أمير البيان شكيب أرسلان عنهما، نقلاً عن حواشيه القيمة على «حاضر العالم الإسلامي» تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي وتعريب الأستاذ عجّاج نُويهض:

---

(١) نقلاً من كتاب «سوانح أحمدي» للشيخ محمد جعفر التهانيسري ص ٩٥، مطبع فاروقي طبع سنة ١٣٠٩ هـ.

(٢) راجع كتاب «OUR MUSALMAN IN INDIA» رسائل رقم ١٠٠، ١٣ مايو سنة ١٨٤٣ م، ١٨٤٧ م.

يقول الأمير شكيب عن الأمير عبد القادر الجزائري:

(هو عبد القادر بن محيي الدين الحسني، أصل سلفهم من المغرب الأقصى ومن أهل البيت، كانت ولادته سنة ١٢٢٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٠٨ م، ونشأ في مهد العلم والتقوى، واعتنى بالتحصيل جدّ الاعتناء، حتى تفوَّقَ بالأدب والفقه والتوحيد والحكمة العقلية، وكان مع ذلك لا يهمل المثاقفة بالسلاح وركوب الخيل، بحيث نبغ من جهة عالماً فاضلاً، ومن جهة ثانية ثقفاً فارساً، فجمع بين السيف والقلم، وعظم شأنه وتأصل سُلطانه بعد وفاة والده، وصار الأمير الشرعي لجميع أهل الجهات الغربية من المغرب الأوسط، ثم مدّ رواق ملكه على البلاد التي لم تكن داخلة في ضمن حدوده، وانتصر على الفرنسيس في يوم المقطع (٢٦ تموز ١٨٣٥ م) وانهزم في حرب مع الجنرال الفرنساوي «بوجو» ولكنه بقي ثابت العزم متوفر القوة، واعترفت فرنسا في معاهدة «التفنة» بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر، وخضع له أهل هاتيك الأطراف.

ولم يغفل عن شيء مما يلزم لتأسيس الحكومة الشرعية، ونادى بالجهاد في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ م ضد الفرنسيس، فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ إلى سنة ١٨٤٣ م بدون انقطاع، قام فيه الأمير عبد القادر مقامه المحمود الذي طبّق ذكره الآفاق، وآل عدم تكافؤ القوتين المتقابلتين أخيراً إلى استيلاء العدو على أكثر مدنه وخَذَله أكثر أنصاره، فلجأ إلى المغرب، وانقضَّ على بلاد الجزائر ثانية، وأوجف في الغارة حتى بلغ بلاد البربر وكانت قدم الفرنسيس في الجزائر قد رسخت، فكان آخر أمره أن هاجر إلى الشام وقضى بقيّة حياته في دمشق في مثافنة العلماء وإسداء الخيرات، وما زال مثالاً للبرّ والتقَوى والأخلاق الفاضلة إلى أن توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ م ودفن في الصالحية)[١].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، المجلد الثاني، حاشية أمير شكيب أرسلان ص ١٦٨ ـ ١٧٢ (ملخصاً).

ويقول عن سيدي أحمد الشريف السنوسي:

(رأيت في سيدي أحمد الشريف السنوسي حَبْراً جليلاً، وسيداً غطريفاً، وأستاذاً كبيراً، من أنبل من وقع نظري عليهم مدةَ حياتي، جلالةَ قدر، وسراوةَ حال، ورجاحةَ عقل، وسجاحةَ خلق، وكرم مهزّة، وسُرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد من غير رياء ولا سمعة.

وقد لحظت منه صبراً قَلَّ أن يوجد في غيره من الرجال، وعزماً شديداً، تلوح سيماؤه على وجهه، فبينما هو في تقواه من الأبدال، إذا هو في شجاعته من الأبطال، وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال، وكثيراً ما كان يغامر بنفسه، ولا يقتدي بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية، أن لا تصل إليهم يد العدو فيها لو وقعت هزيمة)[١].

* * *

عقيدةُ الإمامة عند الشيعة

لقد وضح وضوح الشمس من السطور الماضية أنّ سادة أهل البيت كانوا متمسّكين بعقيدة الإسلام النقية الصافية، التي تلقّوها من نبيّهم وجدّهم ـ عليه أفضل الصلوات والتسليمات ـ وهي عقيدة الإيمان بأنَّ نبيّهم وجدّهم ﷺ هو النبيُّ الأخير الذي خُتِمت به النبوّات والرسالات، وانقطع به الوحي، وتمَّ الدين، ورُبطت به السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهو الدين الكامل الذي قال الله عنه: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾[٢]، فلا نبوة بعده ولا تشريع، ولا نقص ولا

---

(١) حاضر العالم الإسلامي جـ٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣.

زيادة، ولا نسخ ولا إلغاء، وقد دَرَجت على ذلك أجيالهم منذ سيّدنا عليّ إلى آخر من نُوِّهَ به وأشير إليه بالبنان.

يقول سفيان عن مطَرِّف عن الشَّعبي عن أبي جُحَيفة، قال: سألنا عليّاً رضي الله عنه: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء بعد القرآن؟ قال: لا، والذي فَلَقَ الحبّة وبرأ النسمة، إلا فهم يؤتيه الله عزّ وجلّ رجلاً في القرآن، أو ما في الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العَقْل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر[1].

الدوافع النفسيّة المريضة إلى تبنّي هذه النظرية:

وبذلك تمسك أولاده وخلفاؤه أشدَّ التمسُّك، وظلّوا طول حياتهم يدعون إليه ويتواصَوْن به، ويناضلون دونه، ولكن أخيراً نشطت الطبيعة التي كانت من رواسب الجاهلية القديمة، والديانات البائدة، والحضارات والمجتمعات والفلسفات التي لم تستفد من النبوّات ولم تَقُمْ على تعاليمها، في يونان، وإيران، والهند، والصين، وهي طبيعة تقديس أفراد الأسَر المالكة الحاكمة، أو الروحية الباطنية القائمة بالقيادة الدينية في الزمن الماضي، التي تسلسل فيها رجال عُرِفوا بالرياضات الشاقّة والمجاهدات العظيمة، وشيء من التسامي على المستوى العام، ودانوا بعصمة البابوات وقدرتهم على نسخ أحكام الشريعة، والتشريع المطلق[2].

وتساعد على ذلك عوامل نفسية، وإغراءات طبيعية في صالح كثير من الناس:

١ ـ التخلّي عن التبعة والمسؤولية الفرديتين، والاعتماد على طبقة خاصة، أو أسرة خاصة، أو أفراد معدودين أو فرد يمثل هذه الطبقة أو الأسرة.

---

(١) من مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مُسنَد الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) راجع دائرة المعارف البريطانية، ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, F. 194 المجلد التاسع الطبعة الخامسة عشرة (١٩٨٥ م).

٢ ـ تركيز الثقة والإجلال والخضوع في أسرة واحدة أو في فرد خاص، وذلك أيسر بكثير من الخضوع لشريعة تشتمل على أحكام كثيرة أو لشارعيها وعلمائها، الذين يكثر عددهم، وقد يختلف بعضهم عن بعض.

٣ ـ إمكان استغلال هذه الأسرة أو الفرد، أو تزعّم هذه الرئاسة الدينية لتحقيق مآرب شخصية أو جماعية أو سياسية، ويتغلّب بذلك على مشكلات كثيرة، وطيّ مسافات بعيدة في وقت قصير وسعي قليل، لأن تقديس الأفراد واعتقاد العِصْمة فيهم ممّا تعوّده عامة الناس في كل زمان ومكان، واستفاد بذلك دُهاة السياسيين والمؤسسين للحكومات والأمجاد في الزمن القديم.

وجاءت عقيدة الإمامة عند الشيعة الاثنتي عشرية، تحقّق هذه الأغراض البعيـدة المدى في يسر وسهولة، وفي لون ديني وصبغة قُدسية.

زعمت هذه الفرقة أنّ خلفاء الرسول والأئمة قد تمّ تعيينهم من عند الله، وهم كالنبيِّ معصومون ومفتَرَضـو الطاعة، وأنّ منزلتهم تساوي منزلة رسول الله ﷺ، وتفوق منزلة الأنبياء الآخرين.

إنّ حُجة الله لا تقوم على خلقه بدون الإمام، وإن هذا لا يَتمُّ ما لم يُعلَم به، إن الدنيا لا تقوم بدون الإمام، إن معرفة الأئمة شرط للإيمان، وإن طاعة الأئمة واجبة كطاعة الرسل، إن الأئمة لهم الخيار في تحليل الأشياء وتحريمها، وإنهم معصومون مثل الأنبياء، إن المؤمن بالأئمة المعصومين من أهل الجنّة وإن كان ظالماً وفاسقاً وفاجراً.

إنّ درجة الأئمة كدرجة الرسول ﷺ وأرفع من جميع الخلق ومن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لقد كان الأئمة يتمتّعون بعلم ما كان وما يكون، تعرض على الأئمة أعمال العباد في ليلهم ونهارهم، إلاّ الملائكة تتردَّدُ إلى الأئمة ليل نهـار، وفي ليلة كل جمعة يُكْرمون بالمعراج، وعلى الأئمة ينزل كتاب من عند الله كل عام في ليلة القدر، الموت في سُلطتهم، وهم

يملكـون الدنيا والآخرة، فأعطوا من شاؤوا وما شاؤوا[1].

* * *

وجاء في كتاب الكافي أيضاً:

كتب الحسن بن العباس المعروفي إلى الرِّضا: جُعِلتُ فداك، أخبرني ما الفرق بين الرسول والإمام والنبي؟ فكتب أو قال: الفرق بين الرسول والنبي والإمام، أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل ويراه ويسمع كلامه، وينزل عليه الوحي، وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم، والنبيّ ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص[2].

* * *

ويحكي العلاَّمة ابن خلدون في أمانة تاريخية وتحليل علميٍّ فيقول:

(إن الإمامة (عند الشيعة) ليست من المصالح العامة التي تفـوَّض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبيّ إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأن عليّاً رضي الله عنه هو الذي عيَّنه صلوات الله وسـلامه عليـه، بنصـوص ينقلونهـا ويؤوّلـونهـا على مقتضى مذهبهم)[3].

* * *

وقد تسلسلت هذه العقيدة واتصلت في علماء الشيعة وقادتهم إلى هذا العصر، فإنها من العقائد الأساسيـة، حتى انتهت إلى الخُمَيني في هذا العصر، فيقول في كتابه (الحكومة الإسلامية) تحت عنوان «الولاية التكوينية» نقلها ههنا بنصّها:

(١) ملتقـطات من كتاب أصـول الكافي ص ١٠٣ ـ ٢٥٩، وشـرح أصول الكـافي للكليني (م ٣٢٨ هـ) جـ٢ ص ٢٢٩.
(٢) كتاب أصول الكافي، ص ٨٢، طبع فارس، سنة ١٢٨١ هـ.
(٣) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين بك ص ٣٢٧، نقلاً عن مقدمة ابن خلدون.

(فإن للأئمة مقاماً محموداً، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون. وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتّنا مقاماً لا يبلغه ملك مُقرَّب ولا نبي مُرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة عليهم السلام كانوا قبل هذا العالم أنواراً، فجعلهم الله بعرشه مُحْدقين، وجعل لهم من المنزلة وزلفى ما لا يعلمه إلا الله)[١].

* * *

وقد فهم الأذكياء من غير المسلمين نتيجة هذه العقيدة ولوازمها الفاسدة، يقول البطريق هوجيس PATRICK HUGEC.

(إن الشيعة إنما يَخْلَعون على الأئمة صفات الله تعالى)[٢].

ويقول ويوانو WIVANOW:

(إن استمرار ضوء الإمامة في العالم بصفة دائمة، إنما يمنح النبوة مكانة جانبية)[٣].

إيران القديمة وعكس معتقداتها:

إنَّ عقيدة الإمامة الغالية التي تصل حدودها وأبعادها إلى تقديس السلالات والبيوتات وتأليهها يعكس عليها معتقدات إيران القديمة، فقد كانت السيادة والقيادة الدينية والحكم في قبيلة «ميديا» ثم انتقلت هذه الزعامة إلى قبيلة «المغان» منذ غلبة الديانة الزردشتية وتأثيرها على إيران، وكان الفرس يعتقدون في طبقة الكهنوت PRIEST CLASS أنهم ظل الإِلّه على الأرض ولم يُخلقوا إلا لخدمة الآلهة، ولا بدّ للحاكم أن يكون من هذه القبيلة، فإن ذات الإله تتجسَّم فيه، وإن منصب الإشراف على بيت النار وتنظيمه حق يختص بهذه القبيلة وحدها[٤].

---

(١) الحكومة الإسلامية ص ٥٢ طبع مكتبة بزرك الإسلامية، طهران.

(٢) THOMAS PATRICK HUGEC: DICTIONARY OF ISLAM, LONDON 1885 P. 574.

(٣) H.A.R. GIBB AND J.H. KRAONER: SHORTER ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM LITT. 1953 P. 248.

(٤) اقرأ كتب تاريخ الديانة الزردشتية، وكتب تاريخ إيران القديمة وديانتها.

ويقول الأستاذ دوزي DOZY:

(قد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى المَلِك نـظـرة فيها معنى إلٓهي، ونظروا هذا النظر نفسه إلى علي وذريته، وقالوا إنَّ طاعة الإمام أول واجب، وإن أطاعته إطاعة الله)[1].

وهذا التركُّز في أسرة خاصة واحتكارها للقيادة الدينية الروحية السياسية، قد جرّ على الشعوب والمجتمعات التي كانت تدين بالديـانات القـديمة ـ السماوية أحياناً والثورية الإصلاحية أحياناً أخرى ـ شقاءاً كبيراً وويلاً عظيماً.

فكان فيه تعطيل القوى والطاقات المُودَعة في الجيل البشري كله، وحرّية النقد والتفكير الحُرّ في أصحاب الضمائر والعقول الواعية، وتخدير الأعصاب والذكاء والشجاعة في الشعوب.

وحدث به أحياناً الاستغلال الفظيع لموارد الثروة في البلاد، المؤدّي إلى بيع تذاكر الغُفران ومفاتيح غرف الجنة[2]، وأحياناً إلى الصراع بين الكنيسة والعلم[3]، الذي أخَّر تقدم العلم لقرون، وانتهى بأوروبا إلى فصل الدين عن السياسة وإلى الإلحاد ـ فضلاً عن العلمانية ـ الذي وصل أواره إلى أطراف العالم الإسلامي، وأحدث مشكلة كان العالم الإسلامي في غِنىً عنها من الصراع بين الحكومات والصحوة الإسلامية والحركات الشعبية المنادية بالعودة إلى الإسلام، وتحكيم شريعته، وإضاعة الطاقات والوسائل في الجهاد في غير عدو، والصراع الداخلي بغير لزوم وضرورة.

* * *

ومن نتائج هذه الحكومة المطلقة التي تنبثق من الإمامة التي توازي النبوة في تشريع الأحكام ونسخ الثابت المنصوص من الشريعة، ونتائـج

---

(١) نقلاً من فجر الإسلام ص ٢٧٧.

(٢) كما يروى عن الخميني للمتقدمين إلى ساحة الحرب في العراق.

(٣) اقرأ قصة هذا الصراع الدامي في كتاب «الصراع بين العلم والدين» لدرابر الأمريكي CON-FLICT BETWEEN RELIGION AND SCIENCE BY DRAPPER.

الخضوع لها خضوعاً مطلقاً، وطاعتها طاعة عمياء: أن تلغي هذه الحكومة ـ أو الإمامة ـ ما تشاء من أركان الدين وفرائض الإسلام، وأحكام الشريعة، إذا اقتضى ذلك مصلحة جماعية أو سياسية، وأدّى إلى ذلك اجتهاد الإمام المجتهد المطلق المأمور من الله.

وقد وقع ذلك فعلاً، فقد نشرت صحيفة «كيهان» الإيرانية الرسمية في عددها ١٨٢ الصادرة في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٨ هـ، رسالة للخُميني موجَّهة إلى رئيس الجمهورية سيد علي خامنه إي بعنوان ـ بقلم عريض ـ:

(إن الحكومة تستطيع أن تعطّل المساجد أو تهدمها، وإن الحكومة مقدمة على الصلاة والصيام).

ويقول فيها:

(إن الحكومة هي فرع من ولاية رسول الله المستقيمة، ومن أحكام الإسلام الأولية، ومقدمة على جميع الأحكام الفرعية، حتى الصلاة والصوم والحج، فيجوز للحاكم أن يعطل المساجد عند اللزوم، ويخرب مسجداً، ويستطيع أن يلغي أي حكم من أحكام الإسلام ـ سواءاً كان من العبادات أو غير العبادات ـ إذا كان مخالفاً لمصالح الإسلام، ويعطل الحج الذي هو من فرائض الإسلام المهمة إذا اقتضت ذلك مصلحة المملكة الإسلامية، لأنَّ هذه الحكومة هي ولاية إلٓهية مطلَقَة).

ومعلوم أن هذه العملية، عملية التصرُّف في الأحكام الشرعية، والنَّسخ والتعطيل فيها باجتهاد فردي أو مصلحة سياسية، خطر دائم على الدين الخالد والشريعة الدائمة العالمية، وقد يؤدي هذا التحكم في الشريعة وفي مصير شعب بأسره، أو بلاد بأسرها، والطاعة العمياء له قد يؤدي إلى تعطيل الدين أو إبادة أمة بأسرها أو توريطها في كارثة لا خلاص منها، كما هو واقع الآن في حرب إيران مع العراق ودُوَل الخليج، فقد جرَّت على البلدين ويلاً كثيراً، وخسارة عظيمة من غير نتيجة ومردود.

وقد تمثل هذه الإمامة المطلقة التي تجب لها الطاعة العمياء، دور الآمر المطلق المستبد DICTATOR الذي يعيثُ في الأرض فساداً، ويُهلك الحرث والنسل، كما جرّبه العالم في أدوار مختلفة من الحكم المُطلَق، فكيف إذا اقترنت به الصبغة الدينية والتقديس، واعتقاد العصمة وكونه مأموراً من الله قائماً مقام النبي في أمته وعهده؟.

* * *

وعلاوة على ذلك تنشأ طبقات من العاطلين والبطّالين الذين يعيشون على عطايا الشعب، ويستغنون عن كدّ اليمين وعَرَق الجبين، وتنتشر البطالة والفُسولة والإخلاد إلى الراحة في الطبقات الدينية والعلمية، نتيجة اكتناز المنصب الكهنوتي، أو البابوي، أو الإمامي، في أسر وعوائل خاصة، وتداس حقوق طبقات كادحة من الفلاّحين والصُنّاع والتُجّار ورجال الحرب بالأقدام، وتنشأ طبقة لا تحرك في سبيل كسب المعيشة لها ولعيالها ساكناً، ولا تريق قطرة من عرق، وتترفّهُ وتبذخ على حساب الطبقات الكادحة والعاملة، وصدق الله العظيم:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرُهْبان ليأكلونَ أموالَ الناس بالباطلِ ويَصَدُّون عن سبيل الله ﴾[1].

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

الفهارس العامّة



(١)
فهـرس أسمـاء الأعـلام*

يتضمن أسماء الأشخاص والجماعات
والقبائل والشعوب والجمعيات ونحوها

* ملاحظتان في هذا الفهرس:
١ ـ هذه العلامة = تعني: أنظر.
٢ ـ لم تراعَ في الفهرسة أل للتعريف ولا ابن، أبو، بنو، أم، بنت.

(ب)

(خ)

(د)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)



(٢)

فهرس أسماء الأماكن
يتضمن أسماء البلاد والمناطق والمدن ونحوها

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(٣)
فهرس المصادر والمراجع

(أ)

- **آيات بيِّنات**، للأمير محسن الملك، طبع مرزابور ١٨٧٠ م.
- **أخبار الأخيار (كلزار أبرار)**، تاريخ مشايخ جشت، لخليق أحمد نظامي، طبع أدبيات دهلي ١٩٨٠ م.
- **الإدارة الإسلامية**، محمد كرد علي.
- **إذا هبّت ريح الإيمان، للمؤلف**.
- **الأركان الأربعة**، للمؤلف، طبع دار القلم ـ الكويت، والطبعة الثانية، دار الفتح.
- **إزالة الخفا عن خلافة الخلفا**، لحكيم الإسلام ولي الله الدهلوي، طبع مجمع سُهيل لاهور، الطبعة الأولى ١٩٧٦ م.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، لابن عبد البرّ القرطبي، دار صادر ـ بيروت.
- **أسد الغابة**، لابن الأثير الجزري.
- **الإسلام الممتَحَن**، للسيد محمد الحسَني ١٣٩٩ هـ.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبع دار صادر ـ بيروت.
- **أصول الكافي وشرحه**، للكليني.
- **الأعلام**، للزّركلي، ط. بيروت.
- **الإمام الصادق**، للعلاّمة محمد أبو زهرة، دار الندوة الجديدة ـ بيروت.
- **الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان**، للعلامة شبلي النعماني (مطبعة آس. لكهنؤ ١٩١٢ م).
- **أنساب الأشراف**، للبلاذري، دار المعارف ـ مصر ١٩٥٩ م.

- **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهير بالسيرة الحلبية**، مطبعة مصطفى البابي ـ مصر، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م.

(ب)

- **البداية والنهاية**، لابن كثير، مكتبة المعارف ـ بيروت، ومكتبة النصر ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م.
- **البرهان في علوم القرآن**، للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (٧٩٤ هـ).
- **بروتوكولات حكماء صهيون**.
- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، للعلّامة السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، الطبعة الثالثة ـ القاهرة.

(ت)

- **تاريخ الأدب العربي**، للزيات، مطبعة الرسالة ـ القاهرة، الطبعة الحادية عشرة.
- **تاريخ الأمم الإسلامية**، للشيخ محمد خضري بك، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦٩.
- **تاريخ الأمم والملوك**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة المعارف.
- **تاريخ إيران في عهد الساسانيين**، لمؤلفه آرتهر كرستين سين.
- **تاريخ الخلفاء**، للسيوطي، الطبعة الميمنية ـ مصر ١٣٠٥ هـ.
- **تاريخ الخميس** للشيخ حسين الدياربكري، مطبعة عثمان عبد الرزاق، الطبعة الأولى ١٣٠٢ هـ.
- **تاريخ ابن عساكر**.
- **تاريخ فيروز شاهي**، للمؤرخ ضياء الدين البرني.
- **تاريخ اليعقوبي**.
- **الترغيب والترهيب**، للمنذري، مصطفى البابي الحلبي ـ مصر، الطبعة الثانية ١٩٥٤ م.
- **تقاصر جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار**، المطبع الشاهجهاني.
- **تكميل الإيمان**، للشيخ عبد الحق البخاري الدهلوي (م ١٠٥٢ هـ) طبع مطبعة فخر المطابع لكهنؤ ١٩٠٥ م.
- **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، لابن بدران، طبع دار المسيرة، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م.

(ج)

- **الجامع الصحيح**، للبخاري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر ١٩٥٣ م.
- **الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة**، لمحمد بن أبي بكر بن عبدالله بن موسى الأنصاري التلمساني، الشهير بالبري، المتوفى (٦٨٠ هـ) طبع دار الرفاعي - الرياض، الطبعة الأولى.

(ح)

- **حجة الله البالغة**، للشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (طبع المكتبة السلفية - لاهور باكستان).
- **الحكومة الإسلامية**، للخميني، طبع مكتبة بزرك الإسلامية - طهران.
- **حلية الأولياء**، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب.
- **حياة أبي طالب**، للشيخ خالد الأنصاري، مطبعة علوي ١٩٥١ م.

(خ)

- خالد بن **الوليد**، للأستاذ صادق عرجون، الدار السعودية، الطبعة الثالثة.
- **الخراج**، لأبي يوسف، المطبعة الميرية - مصر ١٣٠٢ هـ، الطبعة الأولى.
- **الخلفاء الراشدون**، للشيخ عبد الوهاب النجار.

(د)

- **دائرة المعارف**، لبطرس البستاني، طبعة بيروت ١٨٧٦ م.
- **دائرة معارف القرن العشرين**، لمحمد فريد وجدي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧١ م.
- **الدعوة إلى الإسلام**، لأورنلد.

(ر)

- رجال **الفكر والدعوة في الإسلام**، دار القلم - الكويت، الطبعة السابعة.
- رجال كشي.
- رسائل **الإمام الرباني** (الجزء الرابع من مكتوبات الإمام الرباني) طبع المطبع المجددي - أمرتسر ١٣٢٩ هـ.
- **الرياض النضرة في مناقب العشرة**، للمحبّ الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م.

(ز)

ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، لابن القيم، المطبعة الميمنية ـ مصر.

(س)

ـ **سنن أبي داوود**.

ـ **سنن الترمذي**.

ـ **سوانح أحمدي**، للشيخ محمد جعفر التهانيسري، مطبع فاروقي، ١٣٠٩ هـ.

ـ **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

ـ **سيرة عائشة**، للعلّامة السيد سليمان الندوي، تعريب محمد ناظم الندوي.

ـ **سيرة عمر بن الخطاب**، لابن الجوزي، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٣١ هـ.

ـ **سيرة عمر بن عبد العزيز**، لابن الجوزي.

ـ **سيرة ابن كثير**، (طبع دار الفكر العربي).

ـ **سيرة ابن كثير**، مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة، طبع ١٩٦٤ م.

ـ **السيرة النبوية**، للمؤلف، الطبعة السابعة، طبع دار الشروق ـ جدة.

ـ **سيرة ابن هشام**، الطبعة الثانية ـ مصطفى البابي بمصر ١٩٥٥ م.

(ش)

ـ **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ م.

(ص)

ـ **صحيح مسلم**، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٩٥٥ م.

ـ **الصراع بين العلم والدين**، لدرابر الأمريكي.

ـ **صفة الصفوة**، لابن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ.

(ط)

ـ **الطبقات الكبرى**، لابن سعد، دار صادر ـ بيروت.

(ع)

ـ **العبقريّات الإسلامية**، مجموعة رسائل ومقالات الأستاذ العقاد، (دار الفتوح ـ القاهرة).

- **عثمان بن عفان**، للأستاذ محمد الصادق عرجون، الدار السعودية، الطبعة الثانية ١٩٨١ م.
- **العرب تاريخ موجز**، للدكتور فيليب حتّي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٦.
- **عمر بن الخطاب**، ترتيب الأستاذين علي وناجي الطنطاوي.

(ف)

- **الفاروق**،(باللغة الأردية) للعلامة شبلي النعماني (م ١٣٣٢ هـ).
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، للعلامة ابن حجر العسقلاني.
- **الفتوحات الإسلامية**، للسيد أحمد زيني دحلان، المطبعة الميرية ـ مكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٣١١ هـ.
- **فتوح البلدان**، للبلاذري.
- **فجر الإسلام**، لأحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- **فصل الخطاب في مواقف الأصحاب**، لمحمد صالح أحمد الغرسي.
- **فواتح الرحموت شرح مُسلَّم الثبوت**، لعبد العلي ابن العلّامة نظام الدين الأنصاري.

(ق)

- **القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع**، طبع المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكهنؤ.
- **قلائد الجواهر**، لعمر الكيساني، الطبعة العثمانية ـ مصر ١٣٠٣ هـ.

(ك)

- **الكامل**، لابن الأثير، دار صادر ـ بيروت ١٣٩٩ هـ.
- **الكامل**، للمبرّد، طبع مؤسسة الرسالة.
- **كنز العمال**، للعلّامة علي المتقي البرهانبوري، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣١٢ هـ.

(ل)

- **لسان العرب**، لابن منظور.

(م)

- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، للمؤلف، طبعة دار القلم ـ الكويت، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٢ م.
- **مجالس المؤمنين**، للقاضي نور الله الشوستري.
- **مجموع فتاوى ابن تيمية**، الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ، الرياض.
- **محاضرات تاريخ**.
- **المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى**، للعلامة السيد علوي بن طاهر الحداد، طبع عالم المعرفة ـ جدة ١٤٠٥ هـ.
- **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، لصفي الدين البغدادي.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، للمسعودي، المطبعة الأزهرية المصرية، الطبعة الأولى ١٣٠٣ هـ.
- **المسالك شرح الشرائع**، لأبي القاسم القُمّي.
- **المستدرك**، للحاكم النيسابوري.
- **مسند الإمام أحمد**، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبع دار المعارف بمصر.
- **مشكاة المصابيح**، للخطيب التبريزي.
- **مصنف ابن أبي شيبة**، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية كراتشي ـ باكستان ١٩٨٧ م.
- **مصنف عبد الرزاق**، المجلس العلمي ـ دابيل الهند، الطبعة الأولى ١٩٧٠ م.
- **معالم السنن**، للخطابي.
- **معجم الأدباء**، لياقوت الحمَوي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
- **المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، للدكتور جواد علي، دار العلم للملايين ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٨ م.
- **مقاتل الطالبيين**، لأبي الفرج الأصبهاني، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.
- **مناقب أبي حنيفة**.
- **منهاج الكرامة**.
- **المنهج الإسلامي السليم**، للسيد محمد الحسني ١٣٩٩ هـ.
- **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبّان**، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. (دار الكتب العلمية).
- **موطأ الإمام مالك**.

(ن)

- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للعلامة السيد عبد الحي الحسني.
- نهج البلاغة (مجموع خطب أمير المؤمنين وكتبه)، طبع دار الكتاب اللبناني الطبعة الأولى.

(و)

- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، للسّمهودي (م ٩١١ هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١ م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، طبع مطبعة النهضة - القاهرة ١٩٤٨ م.

* * *

المراجع الأجنبية

1 - ANNALS OF THE EARLY CALIPHATE. SIR WILLIAM MUIR.
2 - DICTIONARY OF ISLAM, THOMAS PATRICK HUGEC. LONDON 1885.
3 - ENCYCLO - PEDIA OF ISLAM, 1953 H.A.R GIBB AND J.H. KRAONER SHORTER.
4 - ENCYCLO - PEDIA BRITANNICA.
5 - HISTORY OF MEDIAEVAL HINON INDIA C.V. VAIDYA.
6 - JEWISH ENCYCLO - PEDIA.
7 - POPULAR HINDUISM.
8 - RELIGIONS OF THE WORLD.
9 - RIGHT HONOURABLE JUSTICE, SAYED AMIR ALI.
10 - A SHORT HISTORY OF THE SARACENS, SAYED AMIR ALI.
11 - THE SPIRIT OF ISLAM, SAYED AMIR ALI.

* * *



(٤)

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

سيدنا علي في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنهما ٩٥ ـ ١١٤

الفصل الخامس

سيدنا علي في خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنهما ١١٥ ـ ١٣٦

الفصل السادس

سيدنا علي في خلافته ١٣٧ ـ ١٥٧

الفصل السابع

سيدنا علي إزاء الخوارج وأهل الشام إلى شهادته ١٥٩ ـ ١٧٤

الفصل الثامن

سيدنا علي بعد الخلافة ١٧٥ - ١٩٢

الفصل التاسع

سيِّدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضي الله عنهما ١٩٣ - ٢١٩

الفصل العاشر

سادة أهل البيت وأولاد علي ٢٢١ ـ ٢٥٠

الفهارس العامة:

* * *